

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



الموشى

أو

الظرف والظرفاء

لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء

تحقيق
كمال مصطفى

الطبعة الثالثة

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

تصـــدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«وبعد» فهذا كتاب الموشى، أو «الظرف والظرفاء»[1]، لأبى الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء، الذى عاش فى النصف الأخير من القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ — ٩٣٦ م).

وهو كتاب فريد فى بابه، يمثل آداب عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين. ولقد رمى المؤلف إلى إعطاء صورة عن الرجل الظريف، وما يجب أن يتحلى به من محاسن، وما يجتنب من مساوىء.

وعسى أن يكون هذا الكتاب أول ما ألف فى صور الظرف، وآداب

---

(١) كان المرحوم السيد محمد أمين الخانجى الكتبى أول من نشر هذا الكتاب بمصر، وقد أطلق عليه «الظرف والظرفاء»، وقدمه بهذه الكلمة:

بسم الله الرحمن الرحمن

تباركت اللهم أحسن الخالقين ونصلى ونسلم على نبيك سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

(وبعد) فانى عند ما صمدت للاتجار فى الكتب صيب الله إلىّ نشر النافع منها فكنت أرجع فى اختيارى إلى مصنفات الصدر الأول لموقع اختيارهم فيما يدونوه من العلم فى كل فن. وهذا كتاب عرف بالموشى تأليف أبى الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء أحد أئمة الأدب فى القرن الثالث وممن أخذ عن أبى العباس محمد بن يزيد النحوى المعروف بالمبرد وقعت إلى نسخة منه فانتحلت له اسم (الظرف والظرفاء) ليطابق مسماه ويكون عنوانا على حليته وحلاه والله المستعان على كل حال

كتبه

محمد أمين الخانجى الكتبى

السلوك والليقان ، وهى ما تسمى الآن فى العرف الافرنجي « بالاتيكيت » ، وانه ليدل على أن المسلمين قدشغلوا بهذه الصور ، وألفوا فيها ، قبل أن يشغل بها الغربيون ويؤلفوا فيها بأكثر من ألف سنة .

الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية على عهد المؤلف :

كانت الدولة العباسية دولة فارسية ، يعلوها خليفة عربى ، فالفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها ، فكانوا ركن الخلافة ودعامتها ، وولاتها وساستها ، وكفاتها وقادتها ، ومشيريها ووزراءها ، ومفكريها وعلماءها ، وكتابها وشعراءها ، فاصطبغت الدولة بصبغة فارسية ، وتغلبت هذه الصبغة على الحضارة العربية.

وانتقلت الخلافة من بلاد العرب إلى العراق الفارسى ، واتخذت قصبتها بغداد ، أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأصبحت بغداد خلفا من المدائن .

وأطلق الخلفاء أيدى الموالى فى سياسة الدولة ، فاستقلوا بشؤونها ، واستبدوا بأمورها .

ودخلت فى تكوين الدولة عناصر أخرى : تركية وسريانية ورومية وبربرية ، وتمازج العرب بهذه العناصر بالتزاوج والتناسل ، واختلطت المدنية الآرية بالمدنية السامية ، ولكل منهما لغة ، وأخلاق وعادات ، واعتقادات ، أثرت فى الأخرى .

وبلغت الدولة فى زمن العباسيين ذروة المجد والحضارة ، فعم الأمن ، وكثر الخير ، واتسعت أبواب الرزق ، وتفرغ القوم للتمتع بما فاض لديهم ، ورتعوا فى بحبوحة العيش ، وتأنقوا فى انواع الترف ، من مطعم وملبس وزخرف البناء والرياش[1] والمعاش ، وصقلت[2] طباعهم ، ورقت أذواقهم ،

---

(١) الرياش : الزينة . (٢) صقلت : جليت .

وأمست بداوتهم أثرا بعد عين ، وأصبحوا يتقلبون على الطنافس[١] الحريرية في القصور المذهبة تحيط بها الحدائق الغناء ، ويلبسون الخز[٢] والديباج[٣] ، ويطعمون الفالوذ[٤] والسكباج[٥] ، وهيهات . . . زمان كانوا يحسبون فيه الكافور[٦] ملحا ، والرقاق كاغدا[٧] .

ولما أن اتسعت رقعة البلاد ، واختلط العرب بعدة شعوب ، وانتقلت إليهم حضارات جديدة ، وطغت هذه الحضارات ، وانغمس الناس فيها ، أخذت رهبة الدين تنحسر عن قلوبهم ، فاستمتعوا بكل ما حوت البلاد من عيش ناعم ، وملك باسم ، وزهو ولهو ، وعزف وقصف .

ولقد أجلب الفرس على العرب بكل ما يُصبي القلوب ، من سماع وشراب ، وكواعب أتراب ، وأغرقوهم في بحر طام من السرف والترف[٨] ، والمحارم والمآثم ، وراح العرب يخطرون في مطارف[٩] الفرس ، ويلعبون في ملاعب الفرس ، ويشربون في مشارب الفرس ، ويتأدبون بآداب الفرس ، ويتخلقون بأخلاق الفرس .

وضعف سلطان الدين في قصور الخلافة ، واعتلى الحكم فيها ملوك يتوارثون الحكم ، واطلقت الحرية في الدين ، فشاعت المقالات المختلفة في الالحاد والسياسة .

---

(١) الطنافس : البسط ، ومفردها طنفسه (بضم الأول والثالث وكسرهما) .
(٢) الخز : نسيج من الحرير والصوف .
(٣) الديباج : نسيج من الحرير الخالص .
(٤) الفالوذ : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل .
(٥) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل .
(٦) الكافور : صمغ أبيض قوى الرائحة يؤخذ من شجر الكافور .
(٧) الرقاق : الخبز المنبسط الرقيق . والكاغد : الورق .
(٨) الترف : الترفه .
(٩) المطارف : جمع مطرف ، رداء من خز ذو أعلام .

وكان مما أفاء الفتح الاسلامى على العرب كثرة الجوارى ، فنفذن إلى الساحة العربية ، واقتناهن العرب ، وأقحموهن فى حياتهم ، فكن من عوامل بنائها الاجتماعى ، وسايرت النساء العربيات فى تكوين الأسر فى الأوساط المختلفة ، حتى أصبح الجمهرة الساحقة من خلفاء بنى العباس من أولاد الجوارى (٣٦ من ٣٩ خليفة).

ولما راجت سوقهن ، وكثر اقبال الناس عليهن ، عنى النخاسون ومواليهن باعدادهن لهذه الحياة على خير الوجوه وأكملها ، فعلموهن الرواية والشعر والاجازة والمطارحة والغناء ، وكلما نبغت جارية فى هذه الضروب غالى صاحبها فى الثمن ، واشتط فى التقدير.

ولقد انتشرت تجارة الرقيق فى ذلك العهد ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » انتهب فى الفتنة بين الأمين والمأمون ، وبكاه شاعر فى قصيدة طويلة آخرها :

ومهما أنسَ من شئٍ تولّى   فإنّى ذاكرٌ دارَ الرَّقِيق

واشتهر فى ذلك العصر كثير من النخاسين فى بغداد ، وسبب شهرتهم مالهم من جوار حسان ، يأوى اليهن الشعراء والأدباء .

فمنهم نخاس يُكنى « أبا عُمَيرٍ » كان له جوار قيان لهن ظَرف ، وكان من جواريه جارية تسمى « عَبَّادة » هَويها عبد الله محمد بن البواب فيقول :

لو تَشَكَّى « أبُو عُمَيْرٍ » قليلا   لأتيناه من طريق العياده

فقضينا من العيادة حقا   ونظرنا فى مقلَتَىْ « عَبَّادَه »

ومنهم « أبو الخطاب » النخاس ، كان له جارية تعرف بذات الخال ، كان يهواها ابراهيم الموصلى .

ومنهم « حرب بن عمرو الثقفى » كان نخاسا ، وكان له جارية مغنية ، وكان

الشعراء والكتاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها يسمعونها ، وينفقون في منزله النفقات الواسعة ، ويبرّونه ويهدون اليه ، وفيها وفيه يقول أشجع :

أَشْكو الذى لاَقَيْتُ من حُبِّها ... وبُغض مولاها إلى الرَّبِّ

من بُغض مَوْلاها ومن حُبِّها ... سقمت بين البغض والحُبِّ

فاختلجا في الصدر حتى استوى ... أَمْرهُما فاقتَسَما قلبي

تعجل الله شفائي بها ... وعَجِّل السُّقم إلى حَرْبِ

وكان قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء تعج بالجوارى والقيان ، من أمم متعددة ، تختلف في الطباع والعادات واللغات ، وكانوا يتخذون منهن، في مجالس الأنس وليالى الصفو ، بلابل يصدحن بأعذب الألحان ، بين رنين الكؤوس وبهجة الندمان .

ويقول أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه الأغانى : ودخل احمد بن صدقة على المأمون في يوم السعانين [1] ، وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنّرات ، قد تزيّنّ بالديباج الرومى ، وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون ، فقال المأمون : ويلك يا أحمد ، قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغنّنى فيها ، ثم أنشدنى :

ظِبَاءٌ كالدّنانيرِ ... مِلاَحٌ في المقاصِيرِ

جَلاهنّ السّعانين ... علينا في الزّنانير [2]

وَقد زَرفنّ أصداغا ... كأذناب الزّرازير [3]

---

(١) يوم السعانين ، عيد للنصارى ، ويسمى عيد الزيتونة ، والشعانين ، وتفسيره بالعربية : التسبيح ، ويعملونه فى سابع أحد من صومهم .

(٢) الزنار : ما يشد على الوسط .

(٣) زرفن شعره : جعله كالزرافين ، وهى الحلق الصغير واحدها زرفين . الزرازير : جمع زرزور ، طائر من نوع العصفور .

وأقبلنَ بأوساطٍ كأوساطِ الزنابرِ

ودعاهم الشغف بالغناء الى تعليمه الجوارى ، للتمتع بغنائهن ومنظرهن معا ، وتعلم الغناء استتبع تعلم الأدب ، لأن الناس فى ذلك العصر كانوا يتغنون بالشعر العربى الفصيح ، والمغنية لاتحسن أن تغنى هذه الأشعار إلا إذا حفظت كثيرا من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف ، واطلعت على كثير من الأدب .

ولقد نبغت الجوارى فى العصر العباسى نبوغا عظيما ، ووصل فن الغناء على أيديهن الى أبعد غاية من التقدم والرقى ، وعنى العباسيون بالمتأدبات النابغات منهن ، حتى قيل ان الرشيد اتخذ ألفى جارية فى قصره ، لكل منهن صنعة وفن وميزة فى الأدب والموسيقى والطرب .

ورغب الناس فى الجوارى ، ولاسيما المتأدبات المغنيات منهن ، وتنافسوا فى شرائهن أسوة فى ملوكهم .

وتسربت روح الأدب من الجوارى المتأدبات إلى طبقة من بنات البيوتات ، فكان للجوارى أثر كبير فى انطلاق الكثيرات الى قرض الشعر ومطارحة كبار الشعراء .

وكان لمجالس الخلفاء العباسيين روح دنيوية ، وكانت مجالس الغناء فى عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بنى العباس تعد من عجائب الفن .

وكان من أثر الجوارى فى الأدب قرضهن الشعر فى أغراضه المختلفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وعتاب ووصف ، لأن اعدادهن لتلك الحياة العربية الرائعة الفخمة نبه فى كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطرى ، وكثرة مارووين من الأشعار الكثيرة فى الأغراض المختلفة .

ويقول الجاحظ فى رسالة القيان : وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت[1] فصاعدا ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدا مايدخل

---

(١) أغنية

فى ذلك من الشعر ، اذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرة آلاف بيت . . .

وكان كثير من هؤلاء الجوارى يحسن الشعر وصناعته ، كما يحسن الغناء ، وكن يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب ، ويفرغن على الشعر العربى حلة مُذهبة النسج ، واضحة النهج ، صفية الديباجة ، خفيفة الروح .

وكان العصر العباسى عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجوارى ، يبتدئ الشاعر ببيت من الشعر ، فتعارضه الجارية بمثله على وزنه ورَوِيّه وفى بقية معناه ، وأكثر ما تكون الغلبة للنساء ، فقد كن أسرع بديهة ، وأرق طبعاً

ومن حديث ذلك ان اعرابيا ذهب إلى عنان جارية الناطفى ، وصاحبة أبى نواس ، فقال : بلغنى انك تقولين الشعر ، فقولي بيتا ، وكان السلولى الشاعر عندها ، فقالت : قل أنت ياعم ، فقال السلولى :

لقد جدّ الفراق وعِيل صبرى   عشيةً عِيرهم للبين زُمّت

فقال الأعرابى :

نظرت إلى أواخرها ضُحَيّا   وقد بانت وأرضَ الشام أمّت

فقالت عنان :

كتمت هواكمُ فى الصدر منّى   على أن الدموع علىّ نمّت

فقال الأعرابى : أنتِ والله أشعرنا ، ولولا أنك بحرمة رجل لقبّلتك ، ولكنى أُقبّل البساط .

وقال بكر بن حماد الباهلىّ : لما انتهى إلىّ خبر عنان جارية الناطفى ، وأنها ذكرت لهارون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ، خرجت معترضًا لها ، فما راعنى إلا الناطفى مولاها ، فقال لى : هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، ومجالسة عنان ؟ فقلت : مابعد عنان مطلب ؛ ومضينا حتى أتينا منزله ، ثم دخل ، فقال : هذا بكر شاعر باهلة يريد مجلستك اليوم ، فقالت : لا ، والله إنى

لكسلانة ، فحمل عليها بالسوط ، وقال لى : ادخل ، ودمعها ينحدر كالجمان ، فقلت أجيزى :

هذى عنان أسبلت دمعها كالدُّرّ إذ ينسل من خيطه

فقالت :

فليت من يضربها ظالما تجفُّ كفّاه على سوطه

ثم أنشدتها :

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفّس فى أحشائه فتكلما

فقالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا مابكى دمعًا بكيت له دما

فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟

بديع حُسْن بديع صَدٍّ جعلت خدّى له مَلَاذا

فأطرقت ساعة ، ثم قالت :

فعاتبوه فعنفوه فأوعدوه ، فكان ماذا ؟

فاذا قدر الانسان الزمن الذى قيلت فيه هذه الاجازة ، أصبح فى غنى عن التعليق عليها ، والاعجاب بقدرة عنان ، والثناء عليها فى موقف كهذا ، قد يعجز أنبغ الشعراء .

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتًا غريب القافية ليعجزها ، فقال :

لاذ بها يشتكى اليها فلم يجد عندها ملاذا

فما لبثت أن قالت :

ولم يزل ضارعًا اليها تهطل أجفانه رَذاذا

فعاتبوه ، فزاد عشقًا فمات وجداً فكان ماذا ؟

ولما دخلت فضل على المتوكل قال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: كذا زعم الذي باعني واشتراني، فضحك وقال: أنشدينا شيئا من شعرك، فقالت:

استقبل الملكَ إمام الهدى عام ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك الناس ثمانينا
لا قدس الله أمرأً لم يقل عند دعائى لك: آمينا

ولما أُكرهت محبوبة، جارية المتوكل، على الغناء في مجلس أعدائه، بعد أن قتل، وصدفت عن زهرة الدنيا، حداداً عليه، ووفاء له، وزهداً في الدنيا بعده، قالت:

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذاهيا م وحزن فقد برا
غير محبوبة التى لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
ان موت الكئيب أصـ ـلح من أن يعمرا

وإن فى هذا الشعر للوناً صادقاً من العاطفة والنبل.

ومن فضل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن بين الشعر والغناء، فكانت الجارية تقول الشعر، ثم توقعه، ثم تغنى به، فتخرجه أحسن مخرج، وتؤثر به أنفذ تأثير.

يقول الأغانى فى عريب: كانت مغنية محسنة، وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخط والمذهب فى الكلام، ونهاية فى الحسن والجمال والظرف، وحسن الصورة، وجودة الضرب، واتقان الصنعة، والمعرفة بالنغم والأوتار، والرواية للشعر والأدب . . .

ويقول فى دنانير ، جارية البرامكة : كانت من أحسن الناس وجها ، وأظرفهم وأكملهم وأحسنهم أدبًا، وأكثرهم رواية للغناء والشعر .

ويقول فى متيم : كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن اسحاق الموصلى وعن أبيه من قبـله ، وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناء وأدبًا ، وكانت تقول الشعر ، ليس مما يستجاد ، ولكن يستحسن من مثلها . . .

ويقول فى فضل : كانت مولدة من مولدات البصرة ، وكانت أمها من مولدات اليمامة ، بها وُلدت ، ونشأت فى دار رجل من بنى عبد القيس ، وباعها بعد أن أدبها وخرجها ، فاشتريت وأُهديت الى المتوكل ... وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام ، أديبة فصيحة ، سريعة البديهة ،مطبوعة فى قول الشعر ، ولم يكن فى زمانها أشعر منها .

ولقد نشر الجوارى نوعًا من الثقافة ، وهو الفنون الجميلة ، وما يتبعها من رقى فى الذوق الفنى ، فقد كانت بجانب الحركة العلمية فى ذلك العصر : حركة أُخرى لا تقل عنها شأنا ، وهى الحركة الفنية ، من غناء وتصوير ورقص ، وكان الجوارى أكبر عامل فى نشر الشعور بالجمال ، وما يتبعه من فنون جميلة ، فان العباسيين لم يكتفوا بالجوارى من ناحية جمالهن الخِلْقى ، بل شغفوا بهن من ناحية الجمال الفنى أيضا ، ليجمعوا بين الجمالين ، فكانوا يميلون الى الغناء والرقص ، والى التفنن فى الملبس ، والى غير ذلك من ضروب الفن . فأخذوا يعلمون الجوارى هذه الفنون ، وسرعان ما تحول النبوغ فيها من الرجال الى الجوارى .

ونشر الجوارى أنواعا من الظرافة ، قلدهن الناس فيها ، وجروا على أثرهن ، كحب الأزهار وتعشقها ، فكانت متيم ، جارية على بن هشام ،

يعجبها البنفسج جدًا . وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب . حتى أنها من شدة اعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ، ولا تراه الا كما قطف من البستان .

وفطن الناس إذ ذاك الى دلالة الأزهار على المعانى ، فيقول الشاعر :

أهدت اليه بنفسجا يسليه تنبيه أن بنفسها تفديه
فارتاح بعد صبابة وكآبة ورجا لحسن الظن أن تدنيه

ويقول آخر :

سُرَّ بالآس الذى أهدت له ثم لما أهدت الورد جزع
ذاك أن الآس باق دائم ولأن الورد حينا ينقطع

ونشر الجوارى نوعا آخر ظريفا ، وهو كتابة الأشعار الرقيقة ، والجمل الظريفة ، تطريزا على الأقمشة والأردية والأكمام ، والعصائب ، ومشاد الطرر ، والذوائب ، والزنانير والمناديل ، والوسائد والبسط ، والنعال والخفاف ، وبالحناء على الأقدام والراح . . .

وسيجد القارىء كثيرا من ذلك فى هذا الكتاب

ونجح الجوارى فى اشعار الناس بالظرف ، والتزام حدوده ، حتى أصبح للظرفاء عرف خاص فى الزى والنظر . والطعام والشراب ، وما الى ذلك . . .

وهو ما دونه المؤلف أدبا للظرفاء .

ونشر الجوارى فن التجميل ، فقد كن يعمدن الى أساليب اصطناعية متعددة فى اظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها ، واحداث البلج بالافراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك فى شروط الجمال .

وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التى تختص بها الحواجب

من قرن [1] ، وزبب [2] ، ومعط [3] ، واستعاضت بعض الجوارى دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذى بلغه فن التجميل إذ ذاك ، بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الجليبات أسراره عن قومها وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليبهن .

وتنبهت الجوارى الى السواك ، المأخوذ من الأراك ، فاستخدمنه فى تنظيف الأسنان ، واخراج ما علق بينها من بقايا الطعام .

ولقد فتن الشعراء بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا واحدة منها ، للثم ما يتقدم الأسنان ، وتناقلوا الأحاديث عنها ، منها قول الشاعر :

نَقَلَ الأَرَاكُ بأنّ رِيقَةَ ثغْرِهِ من قهوةٍ مُزِجَتْ بماءِ الكَوْثرِ

وقول الآخر :

أقولُ لِسْوَاكِ الحَبِيبِ لَكَ الهَنَا بِلثْمِ فَمٍ ما نَالَه ثَغْرُ عَاشِقِ

وعرف العصر العباسى نوعًا من الجوارى متشبهات بالفتيان ، وهن المطمومات الشعر ، المسميات بالغلاميات ، وتعداهن هذا الزى الى الحرائر فى قصور الخلفاء والأمراء والقواد . فأخذت المرأة عهدئذ بقص الذوّابة [4] الى مستوى الرقبة ، وبمد الوفرة [5] حول الأذن ، والعقرب على الجبين ، أو رسم طرة عليه ، وذهب بعضهن الى رفع شعورهن ورسم هيئات متعددة ، وجعلن حول رءوسهن عصابة مزركشة بالألوان ، وكتبن عليها

(١) القرن : اتصال الحاجبين .
(٢) الزبب : كثرة الشعر فى الحاجبين .
(٣) المعط : تساقط الشعر من بعض أجزاء الحاجبين .
(٤) الذوّابة : الناصية ، وهى شعر فى مقدم الرأس .
(٥) الوفرة : ما سال من الشعر على الأذنين .

بالخيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية كريمة ، وأكثرهن كان يؤثرن الشعر الغزلى ، تقربا من مواليهن ، ومغالاة فى الفتنة ، وقد رسم أحدهم على عصابة جارية له هذين البيتين :

تمت، وتمّ الحسن فى وجهها ... فـكلّ شىء ما سواها محال

للناس فى الشهر هلال ، ولى ... فى وجهها كل صبح هلال

وجعل بعضهم فى عصابات الجوارى درًّا ، ينثرونه بأشكال هندسية ، أو ينسجون به خطوطا وحروفا وكلمات .

وغالين أحيانا فى هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم والخطوط ، وفى رفع شعورهن تاجا فوق مفارقهن .

وقد وجد الشعراء فى مثل هذه العصابات موضوعا شائقا للنظم والغزل ، فيرون مثلا أن الدر يزدان بالوجه الذى تحته ، كقول أحدهم :

واذا الدُّرُّ زَانَ حسْنَ وجوهٍ ... كانَ للدُّرِّ حسن وجْهِكِ زَيْنَا

وكان الجوارى أقرب النساء الى قلوب الخلفاء ، فأخذ نفوذهن يقوى شيئا فشيئا ، حتى أصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا .

ولقد ملكت « ذات الخال » زمام الرشيد ، حتى أنه أقسم يوما أنها لا تسأل شيئا الا قضاه لها ، فطلبت منه أن يولى أحد المقربين اليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، فامتثل لها ، وكتب عهداً به ، وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ، ان لم تتم فى حياته .

وكان هارون الرشيد أول من غالى من العباسيين فى تفضيل الجوارى وتقريبهن ، فان معظم أولاده كانوا أولاد إماء ، منهم : عبد الله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل . والقاسم المؤتمن وأمه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو اسحاق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى

تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ، فدعاه ميله الى أمه الى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذين الفارسى والعربى ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان ؛ ومن أولاد هارون : صالح وأمه أم ولد يقال لها رئم ; ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد ابو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وامه أم ولد يقال لها رواح ، ومحمد أبو على وأمه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو احمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان .

ولقد قام بعض الجوارى بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين ، فاشتركن فى المؤامرات التى حيكت لخلع خليفة ومبايعة آخر .

فمنهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه الأتراك الخلافة وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره ، ظنا منهم أن يوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاءون ، لضعفه وصغر سنه ، فاذا بهم يلاقون عنتا شديداً من أمه ، وهى م ولد رومية ، فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم وحنكة مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها عباسى الحكم آنذاك ، وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين ، فكانت أمه تسعى إلى إعادته الى كرسى الخلافة ، حتى تألب عليه الخصوم ، فخرج لقتالهم فصرعوه .

ومنهن الجارية الشيرازية حسن ، التى عاشت أيام الخليفتين المتقى والمستكفى ، فهى التى سعت إلى إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت الى غلامها السندى بسمل عينيه ، عندما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلطت على الثانى ، حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد .

ومنهن الجارية صبيحة [1] ، فقد اشتركت فى الغدر والطيش ، وأوغلت

(١) سماها المتوكل « قبيحة » اتقاء العين ، فقد كانت أبرع النساء جمالا .

فى الكيد ، فأشارت على ابنها أبى عبد الله المعتز ، حين كان خليفة ، أن يقتل أخاه المؤيد — من أبيه – ليتخلص منه ، فقتله .

وإن موقفها من ابنها لأسوأ موقف تقفه أم إزاء ولدها ، فقد طالبه الجنود بأرزاقهم ، وبيت المال خال ، فأرسل إلى أمه ، وكانت ذات ثروة طائلة ، يسألها أن تعطيه مالا ايعطيهم ، فأبت أن تعطيه شيئا ، وأنكرت ان يكون عندها شىء ، فدخل اليه القوم وجروا برجله الي باب الحجرة ، وتناولوه بالدبابيس ، فخرج وقميصه مخرق فى مواضع ، وآثار الدم على منكبه . فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه ، ثم خلعوه ، وسلموه الى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر ، فمنعوه . وبقى بعضهم يلطمه على وجهه ، وهو يتقى بيده ، ثم أدخلوه سردابا وجصصوا عليه . فمات ، ثم نفوا أمه الى مكة ، وصادروا أموالها وكنوزها ، وجردوها من حليها وجواهرها [1] .

وكان الجوارى متعددات المصادر والأجناس والألوان . مختلفات فى الدين ، ينتمين الى الاسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية ، وكان مواليهم يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة فى المواسم والأعياد ، وكثيرا ما كانت تقام الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية فى قصور الخلفاء .

---

(١) يقول على بن أنجب فى كتابه « مختصر أخبار الخلفاء » : وجد لها مطمورة تحت الأرض فيها ألف ألف دينار عينا ، ووجد لها سفط فيه مكوك ذمرذ وفى سفط آخر مكوك لؤلؤ وفى سفط آخر كيلجة ياقوت لا يوجد مثله عند ملك ، فحمل جميعه إلى صالح ابن وصيف ، فقال : قبح الله قبيحة ، عرضت ابها للقتل لأجل خمسين ألف دينار ، وعندها هذه الأموال العظيمة .

ولقد أدى تدين الجوارى بغير دين سادتهن ، وتسربهن الى جميع القصور ، والحظوة التى كانت لهن فى القلوب الى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، فكان للمقتدر خال رومى يخاطبه الناس بالإمرة ، وكان ذا سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون اليه فى سبيل الوصول الى ما يريدون من نعم الخلافة .

وان ما ألمّ بالأمة من تغير الحال ، لفساد الحكومة ، وتوالي النكبات على الخلفاء ، حول همّ المفكرين الى نشر الحكم واخبار الزهد والزهاد ، وأقوال الحكماء ، وسير رجال العدل والحزم ، التى يترتب عليها العظة والاعتبار ، مع الحث على الاقتـــداء بهم ، لرد الناس عن غيهم ، فأخذوا يجمعون ذلك فى كتب الأدب ، ويرتبونها فى أبواب مبنية على الحكمة المستفادة منها ، كما صنع الوشاء فى الأبواب الثلاثة عشر الأولى من هذا الكتاب .

موضوعات الكتاب :

(ا) تحدث المؤلف فى الثلاثة عشر باباً الأولى عن حدود الأدب ، والنهى عن ممازحة الأخلاء ، والحث على انتخاب الأقران والاخدان ، وصحبة الاخوان ، وصفة المتحابين فى الله ، والبشاشة بالاخوان ، واتفاق القلوب على مودة الصديق ، والنهى عن استعمال الافراط فى حبه . وشرائع المودة وصفتها ، وفضل الصدق ، وكره الكذب ، وقبح خلف المواعيد ، والحث على كتمان السر . . . .

(ب) كما تحدث فى الباب الرابع عشر عن سنن الظرف ، وان العشق من تسنّن الظرفاء .

(ج) ثم تناول فى الأبواب التالية من الخامس عشر الى الثانى والعشرين : الحديث عمن مات من شدة العشق ، ووصف الحب ، ومن تعفّف فى محبّته ، وذم القيان ، ومصارمة ذوى الغدر ، والنهى عن الهوى ..

(د) ولعل أبرز ما فى الكتاب تلك الأبواب التى تناول فيها الحديث عن زى الظرفاء فى الطعام والشراب ، وتصفيف الموائد والأطعمة ، وكيفية الأكل من وجوب تصغير اللقم ، والتحرز من الشره ، وعدم تلطيخ الأصابع أو تجاوز ما بين الأيدى ، او التخلل على المائدة قبل ان تفرغ ، وإفساد الرائحة بأكل الثوم والبصل ونحو ذلك .

ثم ذكر الظرفاء ، وزيهم فى اللباس ، والوان الملابس ، ومناسباتها للحفلات ، ومناسبة بعضها لبعض ، ومناسبتها للتكك والنعال والخفاف ، وزيهم المخصوص فى الخواتيم والفصوص ، والتعطر والتطيب .

وذكر متظرفات النساء فى اللباس ، وزيهن المخالف لزى الرجال ، فى لبس التكك والخفاف والنعال ...

ثم ذكر الأشياء التى يتطير الظرفاء من إهدائها ، وما قيل فى صفة الورد ، والتفاح ، وما جاء فى السواك ....

وصفة ذوي التظرف ، ومباينتهم لذوى التكلف .

(ه) وأخيرا ذكر ما اختير من ألفاظ الأدباء فى المكاتبات ، وماضمنوه كتبهم من الأشعار ، وما كتبوه على العنوانات ، وما كتب على الفصوص ، والتفاح ، والقنانى والكاسات والأقداح ، والأقلام ، والدراهم والدنانير ....

ثم ما كتبته الجوارى والقيان على ذيول الأقمصة والأعلام ، وطرر الأردية والأكام ، والكرازن والعصائب ، ومشاد الطرر والذوائب . والخفاف والنعال . والوطأة والوشاح ، والأقدام والراح ، والجبين والخد ، والعيدان والمضارب ، والطبول والمعازف ، والدفوف والنايات ....

نسخ الكتاب :

اعتمدت فى إبراز هذا المطبوع على ثلاث طبعات :

(ا) إحداها المطبوعة فى ليدن سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٦ م) باشراف المستشرق رودلف برونو [1].

(ب) والثانية التى نشرها المرحوم السيد محمد أمين الخانجى الكتبي سنة ١٣٢٤ هـ، وهى منقولة عن الطبعة السابقة، فقد نشر هذين البيتين:

لا تأنفنّ من الخضو ع لمن تحب وداره
إخضَعْ له فَلَطَالَمَا مُلّكت حَلّ إزاه

كما وردا بالنسخة الألمانية كهذا:

لا تأنفن من الخضوع لمن تحب وداره
إخضع له فلطالما ملكت حل إزاره

(ج) والثالثة التى طبعت على نفقة المرحوم مصطفى فهمى الكتبي بجوار الأزهر بمصر سنة ١٣٢٤ هـ وهى نسخة من المطبوع الذى نشره المرحوم

---

(١) ولد سنة ١٨٥٨ م فى آن أربور من أعمال مشيجن. وتوفى سنة ١٩١٧، وهو من أصل ألمانى أمريكى، وتلقى دروسه العربية فى ألمانيا، وعين فى سنة ١٩١٠ أستاذا للغات السامية فى جامعة برنستون بأمريكا، واشتهر فى العلوم الآشورية، وقد تولى حفريات حوران.

ويقول فى مقدمته للوشى: انه نشره عن مخطوط بمكتبة ليدن، وهو الوحيد الموجود فى أوروبا، ويبدو أنه كان غير معروف فى الشرق، فلم يذكر عنه شيئا حاجى خليفة (مؤلف كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون).

ويقول فى وصف المخطوط: طوله تسع بوصات، وعرضه ست بوصات، ويحتوى على احدى وتسعين ومائة ورقة، ومكتوب بخط النسخ، وهو لا يحمل تاريخا، ولكن الخط يدل على أن عمره حوالى خمسمائة عام، والنسخة الأصلية جيدة، ولكن يوجد بها بعض الاعجام، وعناوين الأبواب مكتوبة بالحبر الأحمر، وعلى الصفحة الأولى من الجزء الأول للكتاب قطعة من الورق قديمة، وعليها قطعة جديدة مكتوب عليها بخط اليد الحديث:

هذا الكتاب الموشى تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة أبى الطيب
محمد بن اسحق بن يحى الموشى رحمه الله تعالى
وفهرست الأبواب أضيف حديثا أيضا . . .

الخانجى ، فقد وردت بها أبيات محرفة وناقصة ، كما جاءت بمطبوع المرحوم الخانجى ، مثال ذلك هذا البيت :

طلبتُ امرأً مَحْضًا صحيحا مسلمًا نَقِيًّا من الآفات فى كلّ مَوْسِم

فقد نشر فى المطبوعين الثانى والثالث هكذا :

طلبت امرأ صحيحا مسلما نقيا من الآفات فى كل موسم

آثارنا فى الكتاب:

ولقد عانيت كثيرا لاخراج الكتاب فى طبعته هذه ، فقد كان هناك تصحيف وتحريف فى كثير من الأسماء ، ونقص فى الأبيات الشعرية .

ولم أشأ حذف بعض الألفاظ المكشوفة من الشعر ، لأنه يمثل الحياة الاجتماعية فى عصر العباسيين ، تلك الحياة التى كانت مزيجا من التقى والفجور ، واللهو والسرور ، وكان هــــذا الشعر يصف أحاسيس النفس ورغباتها وشهواتها فى حرية وانطلاق .

ما صار إليه الكتاب :

وتم لنا بعون الله وفضله : إبراز هذا الكتاب ، بعد تصحيحه وضبطه ، وإكمال النقص ، وكشف غامضه ، ووضع فهارس الأعلام .

ونرى أنه قد برز فى ثوب أنيق ، وعسى ألا يجد فيه القارئ مغمزا ولا مطعنا .

رجاء :

وإنى لأضع هذا المطبوع بين أيدى حفاظ الأدب العربى . وأرجو أن يحوز قبولا . كما أحمد لمكتبة الخانجى المصرية عملها باخراج هذا الكتاب

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنى إلى نشر آثار السلف الكريم ، وخدمة لغتنا العربية الجليلة . فى هذا العهد الزاهر السعيد ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير

كمال مصطفى

حلوان الحمامات فى يوم الأربعاء ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢
١٨ من فبراير سنة ١٩٥٣

التعريف بالمؤلف

نسبه :

أبو الطيب محمد بن أحمد بن اسحاق بن يحيى ، ويُعرف بالوشاء ، والأعرابى وقيل : ابن الوشاء .

مولده :

لم يرشدنا التاريخ على وجه صحيح إلى مولده

وقد ذكر المستشرق رودلف بروفو أنه عاش فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (٨٦٠م) . ولعله اعتمد فى تحديد هذا التاريخ على أنه أخذ عن ثعلب والمبرد ، وقد ولد أولهما سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) وتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وولد الثاني سنة ٢١٠ هـ (٨٢٦ م) وتوفى سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) .

عصره :

تحدثنا فى « التصدير » عن الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية على عهده .

علمه :

كان أديبا ، فاضلا ، نحويا ، حسن التصنيف ، مليح الأخبار .

والغالب عليه تصنيف كتب الأخبار كالشعر والمقطعات .

أخذ عن أبوى العباس ثعلب والمبرد ، وغيرهما من الأئمة الاثبات .

وحدث عن أحمد بن عبيد بن ناصح ، والحارث بن أسامة .

وروى عن عبد الله بن أسعد الوراق وطبقته .

ويقول ابن النديم : وكان نحويا معلما لمكتب العامة .

ويقول القفطى : وكان يعلم فى دار الخلافة وروت عنه مُنْيَةُ الكاتبة جارية أم ولد المعتمد على الله .

---

(١) الوشاء : الذى يشى الثياب ، أى ينقشها ويزخرفها .

وحدثت مُنْيَةُ إملاء من لفظها قالت : حدثنى أستاذى محمد بن اسحاق ابن يحيى النحوى المعروف بالوشاء قال : حدثنى عبد الله بن عمر الوراق ، حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا أبو غسان محمد بن يحيى ، أخبرنى عبد العزيز ابن عمران ، عن ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة ، عن داود بن الحصين ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السخاء شجرة فى الجنة . فمن كان سخيًّا أخذ بِغُصْنٍ منها فلم يتركه الغصن حتى يُدْخله الجنة ؛ والشح شجرة فى النار ، فمن كان شحيحا أخذ بغصن منها فلم يتركه حتى يُدْخله النار .

شعره :

للوشاء شعر لطيف رقيق ، لم يبلغ حد الجودة ، ولكنه حسن النظم ؛ ولقد ذكر منه الكثير فى هذا الكتاب .

ويقول ياقوت : نقلت من خط أبى عمرو محمد بن أحمد النُّوقانى : أنشدنى الشافعى أحمد بن محمد : أنشدنى أحمد بن محمد بن حفص : أنشدنى أبو الطيب الوشاء لنفسه :

لَا صَبْرَ لِى عَنْكَ سِوَى أَنَّنِي ... أَرْضَى مِنَ ٱلدَّهْرِ بِمَا يَقْدُرُ

مَنْ كَانَ ذَا صَبْرٍ ، فَلَا صَبْرَ لى ... مِثْلِىَ عَنْ مِثْلِكَ لَا يَصْبِرُ

ومن خطه وإسناده للوشاء :

يا مَنْ يَقُومُ مَقَامَ الرُّوحِ فِى الْجَسَدِ

لا تَحْسَبَنِّى خَلِىَّ البَالِ مِنْ سَهَدِ (1)

حَاشَاكَ مِنْ أَرَقٍ ، حَاشَاكَ مِنْ قَلَقٍ

حَاشَاكَ مِنْ طُولِ مَا أَلْقَى مِنَ الْكَمَدِ

---

(1) سهد : أرق .

حُزْنِي عَلَيْـكَ لَا نَفَـادَ لَهُ
أَوْهَى فُؤَادِي وَأَوْهَى عُقْدَةَ الْجَلَدِ[1]
وَالصَّبْرُ عَنْكَ قَلِيلٌ مُضْرِمٌ قَلَقًا
بَيْنَ الضُّلُوعِ كَصَبْرِ الْأُمِّ عَنْ وَلَدِ[2]

مصنفاته :

يقول القفطى : وللوشاء التصانيف الحسنة المشهورة .

وله من الكتب : كتاب مختصر فى النحو . كتاب الجامع فى النحو . كتاب فى المقصور والممدود . كتاب المذكر والمؤنث . كتاب الفرق . كتاب خلق الانسان . كتاب خلق الفرس . كتاب المثلث . كتاب أخبار صاحب الزنج . كتاب الزاهر فى الأنوار والزهر . كتاب السلوان . كتاب المذهب . كتاب الموشح . كتاب سلسلة الذهب . كتاب أخبار المتظرفات . كتاب الحنين إلى الأوطان . كتاب حدود الظرف الكبير . كتاب الموشى .

ويقول القفطى : وله كتاب « زهر الرياض » وهو كبير فى عدة مجلدات، ملكت منها نسخة بخطه ، فى عشر مجلدات ، تشتمل على أنواع وابواب من المنظوم والمنثور فى حسن اختيار ، تدل على كثرة الاطلاع والبحث .

ويقول جورج زيدان فى تاريخ آداب اللغة الغربية : ذكر له صاحب الفهرست نحو عشرين كتابا فى النحو والأدب ، لم يصلنا منها إلا كتابان :

(١) كتاب الموشى : وهو فريد فى بابه ، يمثل آداب ذلك العصر ، ويتخلله كثير من المواعظ والحث على المصادقة والاخلاص والتعفف ، وفيه وصف الأزياء التى كانت شائعة يومئذ على اختلاف الطبقات، وما اختير

(١) أوهى : جعله واهيا مشقوقا .   (٢) مضرم : مشعل انزعاجا واضطرابا .

من الألفاظ للكاتبات ، وفيه فصول ضافية فيما كانوا يكتبونه من الأشعار على الثياب والأعلام والعصائب والزنانير والمناديل والستور والوسائد حتى النعال، وعلى المجالس وآنية الشراب والعيدان .

ومنه نسخة خطية فى ليدن ، وقد طبع فيها سنة ١٨٨٦ ، وفى مصر سنة ١٣٢٤ وسموه كتاب الظرف والظرفاء .

(٢) كتاب تفريج المهج وسبب الوصول إلى الفرج .

منه نسخة خطية مختصرة فى مكتبة برلين .

وبدار الكتب المصرية كتاب : وصايا الملوك وأبناء الملوك ، يبحث فى وصايا الملوك وأبنائهم من ولد قحطان بن هود النبى عليه السلام وما ورد فى ذلك من أخبارهم وأشعارهم .

وهو منسوب إليـــه ، وطبع فى مطبعة الشاه ببغداد سنة ١٣٣٢ . وهو ثلاثة أجزاء . ويوجد بالدار الجزء الأول فقط .

وبالدار نسخة خطية غير كاملة ، ضمن مجموعة ، من هذا الكتاب .

وفاته :

مات أبو الطيب سنة خمس وعشرين وثلثمائة من الهجرة (٩٣٦ م) .

خطبـــة الـكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ. باسم الله يكون الابتداء، وبعونه تتم الأشياء، وبمشيئته تتصرف الدهور، وعلى ارادته تتقلب الأمور، ومنه التوفيق والتأييد، وبيده الاعانة والتسديد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبتوفيقه ارشاده.

قال أبو الطيّب محمد بن اسحاق بن يحيى المُوَشّى، المؤلف لهذا الكتاب، وهو الكتاب المُوَشّى (نقول) ونستعين بالله على السداد ونستهديه، ونستفتح له استفتاح اللاجىء اليه ونستكفيه: يَجِبُ على المتأدّب اللبيب، والمتظرّف الأريب، المتخلق بأخلاق الأدباء، والمتحلّي بحِلية الظُّرفاء: أن يعرف قبل هجومه على ما لا يعلمه، وقبل تعاطيه ما لا يفهمه، تبيينَ الظَّرف، وشرائع المروءة[1]، وحدودِ الأدب، فانه لا أدبَ لمن لا مروءةَ له، ولا مروءةَ لمن لا ظرفَ له، ولا ظَرفَ لمن لا أدبَ له.

وقد وصفنا في كتابنا هذا، على قدر ما بلغه علمُنا، واحتوى عليه فكرُنا، وجعلناه حدودا محدودة، ومَعالمَ مقصورة، وشرائع بَيِّنة، وأبوابا نيِّرة، وشريطتُنا على قارىء كتابنا: الاقصارُ عن طلب عيوب خطائنا، والصفحُ عن ما يقف عليه من إغفالنا، والتجاوزُ[2] عن ما ينتهي اليه من اهمالنا، وإن أدّاه التصفح الى صواب نشَرَه، أو إلى خَطاء سَتَرَهُ، لأنه قد تقدّمنا بالاقرار، ولا بُدَّ للانسان من زللٍ[3] وعِثار[4]، وليس كلّ الأدب عرفناه، ولا كلّ

---

(١) تروى: المروة، وهما بمعنى: النخوة وكمال الرجولة.

(٢) تجاوز عنه: أغضى وعفا

(٣) زل: زلق وسقط، وعن الحق: انحرف

(٤) عثر: سقط

العلم رويناه ؛ وعلينا فى ذلك الاجتهاد ، والى الله الارشاد .

وقل ما نجا مؤلف لكتاب من راصد بمكيدة . أو باحث عن خطيئة ، وقد كان يقال : من ألّف كتابا فقد استشرف[1] ، واذا ما أصاب فقد استهدف[2] ، واذا أخطأ فقد استُقذف[3] ؛ وكان يقال : لا يزال الرجل فى فُسْحَةٍ[4] من عقله ما لم يَقُلْ شعرا أو يضعْ كتاباً ، وقال الشاعر فى ذلك :

لا تَعْرِضَنّ للشِّعْرِ مَا لَمْ يَكُنْ ... عِلْمُكَ فى أبْحُرِهِ جِسْرَا

فَلَنْ يَزَالَ الْمَرْءُ فِى فُسحَةٍ ... مِنْ عَقْلِهِ مَا لَمْ يَقُلْ شِعْرَا

وأنشد فى ذلك :

الشِّعْرُ عَقْلُ المَرْءِ يَعْرِضُهُ ... وَالقَوْلُ مثلُ مَواقعِ النَّبْلِ

مِنْها المُقَصِّرُ عن رَمِيَّتِهِ ... وَنَوَافِذٌ يَذْهَبْنَ بالخَصْلِ[5]

وكان يقال : اختيار الرجل وافد عقله .

وقيل : دلّ على عاقل اختياره .

وقيل لبعض العلماء : اختيار الرجل قطعة من عقله ، فقال: لا ، بل مبلغ عقله

وقال الخليل بن أحمد : لا يُحْسِن الاختيار إلّا مَنْ يعلم ما لا يحتاج اليه من الكلام .

وقال الشَّعْبِيّ : العلم كثير ، والعُمْر قصير ، فخذوا من العلم أرواحه ، ودعوا ظروفه .

وقال ابن عباس : العلم أكثر من أن يُحْصَى ، فخذوا من كل شىء أحْسَنَه .

---

(١) استشرف : انتصب .

(٢) استهدف الشىء : ارتفع واستقبل ، ومنه قولهم : من صنف فقد استهدف . أى انتصب كالغرض يرى بالأقاويل .

(٣) استقذف الرجل : رماه واتهمه بريبة .

(٤) فسحة : سعة .

(٥) الخصل : إصابة الغرض .

قال الشاعر :

مَا حَوَى الْعِلْمَ جَمِيعاً أَحَدٌ ... لا وَلَوْ مَارَسَه أَلْفَىْ سَنَة

إِنَّما العِلم كَرَوْضٍ مُزْهِرٍ ... فَتَخَيَّرْ مِنْ كلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهْ

(ونحن) نستعين الله، ونودع كتابنا هذا جملةً من حدود الأدب والمروءة والظرف، ونجعل ذلك أبواباً مختصرة، وفصولاً محبَّرة، على غير نقص منّا لما فى كل باب، لئلا يطول به تأليف الكتاب، ولأن غرضنا فى الاختصار، لما عليه النفوسُ من ملل الاكثار، ولننجو من مقالة حاسدٍ، أو اعتراض معاند.

مطلب فى الحسد:

على أنه لابدَّ للحاسد، وان لم يجد سبيلا إلى وَهْن[1]، ولا سبيا إلى طعن، أن يحتال لذلك بحسب مارُكِّبَ عليه طبعه، وتضمنه صدره، حتى يخلصَ إلى غفلة، أو يصل إلى زَلَّة، فيتشبَّث بالمعنى الحقير، ويتسبَّبُ بالحرْف الصغير، إلى ذكر المثالب[2]، وتغطية المناقب[3]، ولأن[4] من طبع أهل الحسد، وأرباب المعاندة والنَّكَد، تغطيةُ محاسن مَنْ حسدوه، واظهار مساوىء من عاندوه.

وقد أخبر أبو جعفر أحمد بن عُبَيد بن ناصح، وبشر بن موسى بن صَالح الأسدى، قالا: حدثنا الأصمعى قال العلاء بن أسلم قال رؤبة بن العجاج قال: قال لى فلان: قصَّرتُ وعرفتُ، ثم قال لى: يارؤبة عساك مثلُ أقوام إن سكت لم يسألونى وان تكلّمتُ لم يَعُوا عنى، قلت: أرجو أن أكون كذلك، قال: فما أعداء المروّة، قلت: تخبرنى، قال بنو عم السَّوء[5] إن رأوا خيراً ستروه، وإن رأوا شراً أذاعوه.

أنشدنى أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد :

(١) الوهن: الضعف
(٢) المثالب (جمع مثلبة): العيب
(٣) المناقب (جمع منقبة): المفخرة، والفعل الكريم
(٤) ويروى: إذ
(٥) السوء: الفساد

عَيْنُ الحسودِ عليك الدهرَ حَارِسَةٌ … تبدى المَسَاوِىَ والاحسانَ تُخْفِيهِ
يلقـــاك بالبِشرِ يُبْدِيه مكاشَرَةً … والقلبُ مضطغن[1] فيه الذى فيهِ
إنَّ الحسودَ بِلَا جُرْمٍ عـداوتـهُ … فليس يَقْبَلُ عُذْرًا فى تجنّيـــهِ

وأنشدنى أبو جعفر فى مثل ذلك :

إن يعلموا الخيرَ يُخْفوه ، وإن علموا … شرًّا أُذِيعَ ، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

وأنشدنى محمد بن ابراهيم القَارِىء :

وتَرَى اللبيبَ محسَّدا لم يجترمْ … شَتْمَ الرجال وعِرْضُـه مشتومُ
حَسَدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ … فالقوم أعـــداءٌ له وخُصُومُ
كضرائر الحَسْناء قُلْنَ لوجهها … حَسَـــدا وبَغْيًا انَّه لَذميمُ

وقال عمارة بن عَقِيل بن بلال بن جرير :

ما ضَرَّنى حسدُ اللِّئامِ ولم يزلْ … ذو الفضل يحسده ذَوُو النقصانِ
يا بُؤسَ قومٍ ليس جُرْمُ عَدُوِّهم … إلاَّ تَظَاهُرَ نِعْمَـــةِ الرَّحمَانِ

وخُبِّرتُ أن المنصور قال لبعض ولد المهلَّب بن أبى صُفْرة : ما أسرع الناس إلى قومك ، فقال يا أمير المؤمنين :

إنَّ العرانينَ[2] تلقاها محسَّدةً … ولا ترى للئامِ الناس حُسَّادا
كم حاسدٍ لَهُمُ قد رام سَعْيَهُمُ … ما نال مثلَ مَساعيهم ولا كادا

ويُروى أن عمر بن الخطّاب رحمة الله عليه كان يتمثّل بهذين البيتين :

قومٌ سِنانٌ أبوهمْ حين تنسُبُهمْ … طابوا وطاب مِنَ الأولاد ما وَلَدُوا
محسَّدون على ما كان من نعمٍ … لا يَنْزِعِ الله منهمْ ماله حُسِدوا

وأنشدنا أحمد بن عُبَيد ، قال : أنشدنا العُتْبِي عن أبيه :

---

(١) مضطغن : منطوى على الحقد (٢) العرانين : جمع العرنين وهو من كل شىء : أوله .

إنّى نشأتُ وحُسَّادى ذوُو عَدَد ... ياذا المعارج لا تنقُصْ لهم عَـدَدَا
ما زِلتُ أُقْـــدِمُ أفراسى مكلَّمَةً ... حتَّى اتّخذتُ على حُسَّادهنّ يدَا

وأُنشِدتُ :

كُلُّ العداوة قد تُرْجا إماتَتُها ... إلا عداوةَ من عاداكَ من حَسَدِ

وبلغ محمد بن عبد الله بن طاهر : أنَّ قوماً من الموالى يحسدونه ، فقال:

إنْ يحسُدونى فإنّى غير لائمهم ... قَبْلى من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدوا
فـــدام لى ولهُمْ ما بى وما بهِمِ ... ومات أكثرُهمْ غيظًا بما يَجِد
أنا الذى يجدونى فى صدورهِمِ ... لا أرتقى صَعَدًا منها ولا أَرِدُ

وقال أرْدَشِيرُ بن بابَكَ : كل خَصْلَةٍ رديئةٍ فهى دون الحسد ، لأنَّ الحسود يسعى على من أحسن إليه ، ويبغى الغوائل[1] لمن أنعم عليه .

وقال الأصمعىّ : سمعتُ أعرابياً ذكر بعض الحُسَّاد ، فقال : ما رأيتُ ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : حُزْنٌ لازمٌ ، ونفسٌ دائمٌ ، وعقلٌ هائمٌ .

وقال حاتم طيِّء :

ياكَعْبُ ما إن ترى من بيتِ مَكرُمَةٍ ... إلاّ له من بيوتِ الشَّرِّ حُسَّادا

والتحرّزُ من الحُسَّاد مالاسبيلَ لنا إليه : والتحفظ من ألسنتهم مالانقدر عليه ، لـكن أقول كما قال الشاعر :

ما يضُرّ البَحْرَ أمسى زاخراً ... أن رَمَى فيـه غُلَامٌ بِحَجَرْ

(وأُصدِّر) كتابى هذا ، مستعينا بالله ، راغبا إليه ، بذكر الأدب وصفته ، وما يحتاج الأدباء إلى معرفته ، وأشفعه بأشياء يستحسنها الأديب ، ويرغب فى دراستها الأريب ، وبالله التوفيق .

---

(١) الغوائل : جمع الغائلة : الشر

١ — باب البيان عن حدود الأدب
وما يجب على الأدباء من الفحص والطلب

اعلمْ أنّ أولَ ما يجب على العاقل ، المنفصل بصفته عن الجاهل ، أن يتبعه ويميل إليه ، ويستعمله ويحرص عليه : مجالسةُ الرجال ذوى الألباب ، والنظرُ فى أفانين الآداب ، وقراءةُ الكتب والآثار ، وروايةُ الأخبار والأشعار ؛ وأن يُحسن فى السؤال ، ويتثبّت فى المقال ؛ ولا يُكثر الكلام والخطاب ، إن سئل عما يعمله أجاب ، وإن لم يُسأل صمت للاستماع ، ولم يتعرّض لمكروه الانقطاع ، فقد رُوى فى الخبر المأثور أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أُغدُ عالما أو متعلمًا أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلكَ [1] . والصمت أحسن بالرجل من الهَذَر [2] فى منطقه ، والكلام فيما لا يعنيه ، والتسرّع إلى ما يكون على وَجَلٍ [3] منه ، وقد قال بعض الشعراء :

يَمُوت الفتى من عَثْرَةٍ بلسانه ... وَلَيْسَ يَمُوتُ المرءُ من عَثْرة الرِّجْلِ
فعثْرتُه مِن فِيه تَرْمِي برأسِهِ ... وَعثْرَتُهُ بالرِّجْل تبرا على مَهَل

وقال أبو العتاهِية :

إذا[4] كُنْتَ عَنْ أنْ تحْسِنَ الصَّمْتَ عاجزًا
فَأَنتَ عَنِ الإبلاغِ فِي القَوْلِ أَعْجَزُ
يَخُوضُ أُناسٌ فى المَقالِ[5] لِيُوجِزُوا ... وَلَلصَّمْتُ عَنْ بَعْضِ المَقالاتِ أوْجَز[6]

وقال أيضا[7] :

(١) روى بالجامع الصغير للحافظ : « أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبا ولاتكن الخامسة فتهلك » (٢) الهذر: سقط الكلام الذى لايعبأ به (٣) الوجل: الخوف

(٤) فى ديوانه : فأن . وقد روى البيتان الثانى أولا ثم الأول ثانيا

(٥) فى ديوانه : الكلام (٦) فى ديوانه : وللصمت فى بعض الأحايين أوجز

(٧) ينسب هذان البيتان فى ديوان أبى العتاهية لابنه محمد ، وكان شاعراً ، وبعدهما :

يا عجبا لامرىء ظلوم ... مستيقن أنه يموت

قَدْ أفلحَ السَّاكِتُ[1] الصَّمُوتُ	كلامُ راعِي الكلام قُوتُ
مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوابٌ	جَوَابُ ما تَكْرَه[2] السُّكُوتُ

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت ، وقال : من صمت نجا .

وكان أعرابىّ يجالس الشّعْبىّ يطيل الصمت ، فقال له يوما : لِمَ لا تتكلمْ ؟ فقال : أسمع لِأَعلمَ وأسكُتَ فأسْلَمَ .

وقال أبو هُرَيْرَة : ثمرة القلب اللسان .

وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : ما مبدى علم القلب وجهله ؟ قال : اللسان ، قال : فأين يلزم الصمت ؟ قال: عند من هو أعلم منكم ، وعند الجاهل اذا جالسكم .

وقال بعض الشعراء :

تَعاهَدْ لسانَك إِنّ اللّسا	نَ سريعٌ إلى المرء فى قَتْلِهِ
وهذا اللّسان بريدُ الفؤا	دِ يدُلُّ الرجال على عَقْلِهِ

وقال آخر :

استُر النفسَ ما استطعتَ بصمْتٍ	إن فى الصّمت راحةً للصّموتِ
واجعل الصمت إن عَيِيتَ جوابًا	رُبَّ قولٍ جوابُهُ فى السُّكوتِ

وقال أبو العتاهية[3] :

لا خَيْرَ فى حَشْوِ الكَلاَ	مِ إذَا اهْتَدَيْتَ عَلَى عُيونِهِ
وَالصَّمْتُ أجْمَلُ بِالفَتَى	مِنْ مَنْطِقٍ فى غَيْرِ حِينِهْ

وقال لُقمَانُ لابنه : يا بُنَيَّ إن غُلبتَ على الكلام فلا تُغْلَبُ على الصَمت ،

---

(١) تروى : السالم (٢) تروى : ما نكره
(٣) ترتيب البيتين فى ديوانه : الثانى فالأول

فكن على أن تَسْمَعَ أحرصَ منك على أن تقول ، إنى ندمت على الكلام مرارا . ولم أندم على الصمت مرّة واحدة .

وقال ابراهيم بن المهدى فى هذا المعنى فأحسن :

إن كان يُعجِبُكَ السّكوتُ فانه   قد كان يُعْجِبُ قبلكَ الأخيارا
ولئنْ ندمتَ على سكوتك مرّةً   فلقد ندمتَ على الكلام مرارا
إنّ السكوتَ سلامة ولرُبَّما   زَرَعَ الكلامُ عداوةً وضِرارا

فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه ، ولا يرسله فى غير حقه ، وأن ينطق بعلم ، وينصت بحلم ، ولا يعجل فى الجواب ، ولا يهجم على الخطاب ، وإن رأى أحداً هو أعلم منه ، نصت لاستماع الفائدة عنه ، وتحذّر من الزلل والسقط ، وتحفظ من العيوب والغلط ، ولم يتكلم فيما لا يعلم ، ولم يناظر فيما لا يفهم ، فانه ربّما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب ، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب ، وقد قال الأعور الشّنّى فأجاد :

ألَمْ تَرَ مِفتَاحَ الفؤادِ لِسَانَهُ   إذا هُوَ أبْدَى ما يقولُ مِنَ الفَمِ
وكائنْ ترى من صامت لك مُعْجِب   زيادتهُ ونقصه فى التكلّمِ
لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤاده   فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللّحم والدّمِ

ومثله قول الأخطل أيضا :

إن الكلامَ من الفؤاد وإنّما   جُعِلَ اللّسانُ على الفؤاد دليلاَ

وأخبرنى أبو العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب قال كان بكر بن عبدالله المُزَنىّ يُقِلُّ الكلام . فقيل له فى ذلك ، فقال : لسانى سَبُعٌ إن تركتُه أكلنى ، وأنشد :

لسان الفتى سَبْعٌ عليه شَذاتهُ   فَإلّا يَزَعْ من غَرْبه فَهوَ آكله
وما العِيُّ إلّا منطقٌ متبرّعٌ   سواءٌ عليه حقُ أمرٍ وباطلهْ

قال أبو الطيب : قوله — شذاته — أى حَدّه .

وقال بعض الحكماء : إلزَمِ الصَّمت تُعَدُّ حكيما كنتَ أمْ عليما .

وقال الهيثم بن الأسود النخعىّ :

من يستعِنْ بالصمت يوما فانه ... يقال له لبٌّ نهــاه أصِيلُ

وإنّ لسانَ المرء مالم تكن له ... حصاةٌ[1] على عوراته لدليلُ

وكان يقال : الصمت صونُ اللسان وستر العىّ .

أنشدنى أحمد بن يحيى ثعلب للخَطَفَى بن بدر :

عجبتُ لأزراء العيِّ بنفسِه ... وصَمْتِ الذى قد كان بالقول أعلَمَا

وفى الصمت سترٌ للعيِّ وإنّما ... صحيفةُ لُبِّ المرء أن يتكلّما

والعرب تقول : عىٌّ صامتٌ خير من عِىٍّ ناطق .

وكان ربيعة الرأى كثير الكلام ، فتكلم يوما وأكثر ، ثم قال لأعرابى عنده : أتعرف ما العىّ ؟ قال : نعم ، ما أنت فيه منذ اليوم .

وقال أكثم بن صَيْفى ، حتف[2] الرجل بين لحيَتيهْ .

وأنشدنى أحمد بن عُبَيد لأبى محمد اليزيدىّ :

حتفُ امرىء لسانُه ... فى جَدِّه أو لَعِبِهْ

بين اللَّهَا[3] مقتلُه ... رُكِّبَ فى مُرَكَّبِهِ

ورُبَّ ذى مَزْحٍ أُمِيـتَتْ نفسُه فى سَبَبِهْ

ليس الفتى كلّ الفتى ... إلّا الفتى فى أدَبِهْ

وبعض أخلاق الفتى ... أوْلَى به مِنْ نَسَبِهْ

(١) الحصاة : العقل والرأى

(٢) الحتف : الموت

(٣) اللها : جمع اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم

وكان يقال : لسانُك عبدُك ، فإذا تكلّمتَ صرتَ عبده

وقال بعض الحكماء : أنا بالخِيار مالم أتكلّم، فإذا تكلّمتُ صار الكلام عليّ بالخيار .

وقال آخر : لسانى فى حبس بدنى ما لم أُطلِقه على نفسى ، فاذا أطلقتُه صار بدنى فى حبس لسانى .

وقال آخر : الكلمة أسيرة فى وَثاق [1] الرجل، فاذا تكلّم بها صار فى وِثاقها

وقال الشعبيّ: أنا على اتّباع ما لم أُوقِـعْ أقدرُ منّى على ردّ ما أوقعت .

وتكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات ، خرجن كلّهن بمعنى ؛ فقال كسرى: أنا على قول ما لم أقلْ ، أقدرُ منّى على ردّ ما قلتُ . وقال قيصر : لاأندمُ على ما لم أقل ، فانىا أندم على ما قلتُ . وقال ملك الصين : إذا تكلّمتُ بالكلمة ملكتْنى ولم أملكها . وقال ملك الهند : عجبتُ لمن يتكلّم بالكلمة ، إن حُكِيَتْ عنه ضرّته ، وإن لم تُذْكَر لم تنفعه .

وقال امرؤ القيس :

إذا المرءُ لم يَخزُن عليه لسانَه فليس على شىءٍ سِواه بخزّانِ

وقالت الفلاسفةُ : اللسان خادم القلب .

وقالت العلماء : اللسان كاتِبُ القلب إذا أَملَى عليه شيئا أتى به .

وأنشدنى عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر :

رأيتُ لسانَ المرءِ راعِيَ نفسِه وعاذِرَه إن لِيمَ أو زَلَّ ساتِرُهْ

فَن لَزِمتْه حُجّةٌ من لسانه فقدمات راعيه وأُفحِمَ [2] عاذِرُهْ

ولئن كان السكوت جميلا لقد جُمِلَ الكلامُ جليلا ، مالم يتعدَّ المتكلِّمُ فى

---

(١) الوثاق « بفتح الواو وكسرها » : ما يشد به من قيد وحبل ونحوه

(٢) أفحم : أسكت بالحجة فى خصومة أو غيرها ، ولم يستطع جواباً

كلامه ، ويتجاوزْ فى الكلام حدَّ نِظامه .

وقد أنشدنى أحمد بن يحيى ثعلب :

ما فى الكلام على الأنام أَثامٌ ... بل فيه عندى النقضُ والإبرامُ

لولا الكلامُ لَمَا تَبيَّنَا الهُدَى ... وتعطلتْ فى دِيننا الأحكامُ

فَزِنِ الكلامَ إذا أردتَ تكلُّمًا ... وَدَعِ الفضولَ، فِى الفضولِ مَلَامُ

إن أنت لم تُرْشِدْ أخاكَ إذا أتى ... فَعَلَيْكَ منـــه هُجْنَةٌ[1] وأثامُ

وَالنُّطقُ أفضلُ من صُماتٍ[2] مُتْهِم ... جاء الكتابُ بذاك والاسلامُ

هذا البيان فلا تكن مُتَمارِيًا ... فالصمتُ عِيٌّ والكلامُ نِظامُ

وليس بعيب على الأديب ، وإن كان مستقلا بما لديه ، استحذاؤُه[3] للمتقدم فى العلم عليه ، ولا فى سؤاله فيما غُيِّبَتْ معرفتُهُ عنه ، مَنْ هو أعلى درجةً فى العلم منه .

وأنشدنى أحمد بن يحيى ثعلب :

تَمامُ العَمَى طولُ السكوت وإنَّما ... شِفاءُ العَمَى يوماسؤالُك مَنْ يَدْرِى

ورُوى أن أعرابيًا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن عبد المطّلب : ماذا يزيد فى العلم ؟ قال : التعلمُ . قال : فماذا يدل على العلم ؟ قال : السؤال .

أنشدنى أحمد بن عبيد ، قال : أنشدنى ابن الأعرابى لبشامة بن عمرو المُرِّى :

إذا ما يَهْتَدى لُبِّى هَدانى ... وأسألُ ذا البَيان إذا عَمِيتُ

وأجتنبُ المقاذع[4] حيث كانت ... وأتركُ ما هويتُ لما خَشِيتُ

---

(١) الهجنة من الكلام : العيب والقبح ، أو ما يعيبه الانسان ، وفى العلم : إضاعته ، يقال : احفظ علك من الهجنة

(٢) الصمات : السكوت (٣) استحذى : اقتدى

(٤) قدح فى عرضه : طعن فيه وعابه وتنقصه ، ويروى : المقاذع ، أى الخنا والفحش

وكان يقال: من رقَّ وجهه عن السؤال دق علمه ، ومن أحسن السؤال علِم .

وقال الشاعر :

إذا كنتَ فى بَلْدَةٍ جاهلاً ولِلْعِلم مُلْتَمِسًا فاسْأَلِ
فإنَّ السُّؤَالَ شِفَاءُ الْعَمَى كما قيل فى الزَّمَنِ الْأَوَّلِ

ورُوينا عن يونس ، عن الأوزاعىّ ، عن يحيى بن أبى كَثيرٍ ، قال : لا يتعلّم من استحيا وتكبّر .

وقال رجل من بنى العبّاس للمأمون : أيحسن بمثلى طلب العلم اليوم ؟ فقال : نعم ، والله لأن تموت طالبا للعلم أزيَن بك من أن تموت قانعا بالجهل . فقال : إلى متى يحسن بى وقد جاوزت الستين ؟ قال : ماحسنتْ بك الحياة :

وقال الخليل : ذاكِرْ بعلمك ، فتذكر ما عندك ، وتستفيد ما ليس عندك

وقال الخليل أيضا : كنتُ إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته .

وأخبرنى أحمد بن عُبَيْد قال : أخبرنى ابن الأعرابى قال : أخبرنا أزهر السمان قال : قال الزُّهرىّ : الأخبارُ ذُكْرَانٌ لا يحبّها إلاّ ذكران الرجال ، ولا يكرهها إلا مؤنثوهم .

وقال الطِّرِمّاح :

وَلا أَدَعُ السُّؤَالَ إذا تَعَيَّتْ عَلَيَّ مِنَ الْأُمور الْمُشْكِلاتُ
وَيَنْفَعُنى إذا استيقنْتُ عِلْمى وأقوَى الشكِّ عندى البَيِّنَاتُ

فهذه جملة تحثّ الأدباء على الطلب، وصدرٌ يقنع به العقلاء من حدود الأدب ،

(ومنه أيضا) : ترك ممازحة الاخوان ، إذا كان ممَّا يوغر صدور الخلّان، وقد اختصرتُ لك من ذلك جملة مقنعة ، وألفاظُها ممتّعةٌ . فيها لك كفاية ، ولذوى الألباب نهاية ، إن شاء الله تعالى .

٢ — باب النهي عن ممازحة الأخلاء
والنهي عن مفاكهة الأوداء

اعلم أن من زي الأدباء، وأهل المعرفة والعقلاء، وذوي المروءة والظرفاء: قلة الكلام في غير أرب، والتجالل[1] عن المداعبة واللعب، وترك التبذل بالسخافة، والصياح بالفكاهة، والمزاح لأن كثرة المزاح يذل المرء، ويضع القدر، ويزيل المروءة، ويفسد الأخوة. ويجترىء على الشريف الحر: أهل الدناءة والشر.

وقد أخبرني أحمد بن عبيد قال: أخبرني الأصمعي عن رجل من العرب قال: خرجت في بعض ليالي الظُّلَم، فإذا أنا بجارية كأنها صنم، فراودتها عن نفسها. فقالت: يا هذا، أمالك زاجرٌ من عقل، إذا لم يكن لك واعظ من دين؟ قلت: والله ما يرانا إلا الكواكب! قالت: ياهذا، فأين مُكَوْكِبُهَا؟ فقلت: إنما كنت أمزح، فقالت:

فإيّاكَ إيّاكَ المِزَاحَ فإنّه ... يُجَرِّى عليك الطِّفْلَ والدَّنِسَ النَّذْلَا
ويُذْهِبُ ماءَ الوجه بعد وَضَاتِهِ ... ويُورِثُ بعد العِزِّ صاحِبَه ذُلَّا

وقال سليمان بن داود عليهما السلام. المزاح يستخف فؤاد الحليم، ويُذْهِب ببهاء ذي القُدْرة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكثر من شيء عُرِفَ به، وَمن مازح استُخِفَّ به، ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته.

وكان يقال: لكل شيء بذرٌ، وَبذر العداوَة المزاح.

وَكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: إمنعوا الناس من المزاح، فانه

---

(١) التنزه والترفع

يُذهب المروءة ، وَيوغر[1] الصدر .

وَقال بعض الشعراء :

مازِحْ أخاكَ إذا أردتَ مُزاحاً ... وَتَوَقَّ منه فى المزاح جماحا[2]

فلربّما مُزح الصديق بمزحة ... كانت لبابِ عداوةٍ مِفتاحا

وقال عمر بن عبد العزيز : امتنعوا من المزاح تسلم لكم الأعراض ، وقال خلف بن صفوان : المزاح سباب النَّوْكى[3] .

وقال محمود الورّاق :

تَلقى الفتى يَلْقى أخاه وَخِدْنه ... فى لحْنِ منطقه بما لا يُغفر

وَيقول كنتُ ممازِحًا وملاعِبًا ... هيهات نارك فى الحشا تتسعّر

ألهبْتَها وطفقت تضحك لاهياً ... عمّا به وفؤادهُ يَتفطّرُ

أوَ ما علمت ومثل جهلك غالبٌ ... أنَّ المُزاح هو السّباب الأصْغَر

وقال بعض الحكماء : الخصومةُ تُمْرِضُ القلوب . وَتثبت فيها النفاق ، والمزاحُ يُذهِب ببهاء العزّ .

وحدثنى الباغنْدِيّ قال : حدثنا الحميدى ، عن سفيان ، عن ابن المُنْكَدِر قال : قالت لى أمى : يا بُنَيّ لا تمازح الصبيانَ فتهونَ عليهم . وقد كانت أدركته النبي صلى الله عليه وسلم .

وأوصى يَعْلَى بن مُنَبِّه بنيه فقال : يا بَنِيّ إيّاكم والمزاحَ ، فانّه يُذهب بالبهاء ، ويُعقب الندامة ، ويُزْرى بالمروءة .

(١) وغره عليه : أغراه بالحقد عليه

(٢) جمح الرجل : ركب هواه فلم يمكن رده

(٣) النوكى : جمع الأنوك : الأحمق ، العاجز الجاهل

وقال مِسْعَر بن كِدَّام الهلالىّ لابنه :

ولقد مَنَحتُكَ يا كِدام نصيحتى فاسمعْ لقول أبٍ عليك شفيقِ
أمّا المزاحة والمِراء فدَعْهما خُلُقان لا أرضاهما لِصَديقِ
إنّى بَلَوْتهما فلم أحمَدْهما لمجاورٍ جاوَرْتُه وَرفيقِ

وكان سعيد بن العاص يقول : لا تمازحنّ الشريفَ فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترىء عليك .

وقد تواترتْ بالنهى عن ذلك الأخبار، وتكاثفتْ فيه الاشعار ، ولعمرى إنّ تركَ ما نهى عنه ذوو الأدب ، من المداعبة واللعب ، أولى بذى النُّهْية[1] والأرب ، وقد يجب على العاقل الأديب أن ينتقى اخوانه ، ويتخيَّر أخدانه ، ويفتِّشُ عن الأصحاب ، ويجالسَ ذوى الألباب ، ويستخلصَ أهل الفضل ، وأهل المروآت والعقل ، فانّها محنة الأدباء ، وفراسة العلماء ، وإنما يعرف الرجل بأشكاله . ويقاس بأمثاله ، ويوسم بأخدانه ، ويُنسب إلى أقرانه .

وقد شرحتُ فى ذلك جملةً من الآثار ، وما رُوى فيه من النُّتَف والأخبار ، فتَقِف عليه يَبِنْ لك ما فيه إن شاء الله تعالى .

٣ — باب الأمر باختيار الاخوان وانتخاب الأقران والأخدان

رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اختبروا الناس باخوانهم ، فانّ الرجل يخادن مَن يُعجبه نحوُه .

وقال مجاهد : إنى لأَنتقِى الاخوان ، كما أنتقى أطايب الثَّمر .

وقال بعض الشعراء :

---

(١) النهية : العقل

إمحَض[1] مودّتك الكريمَ فإنما ... يرْعَى ذوى الأحساب كلُّ كريمِ
وإخاء أشرافِ الرِّجالِ مروءةٌ ... والموتُ خيرٌ مِنْ إخاء لئيمِ

وقال يحيى بن أكثم :

وقارنْ إذا قارنتَ حرًّا فإنما ... يَزين ويُزرِى[2] بالفتى قُرناؤُهُ
إذا المرء لم يَختَرْ صديقاً لنفسه ... فنَادِ به فى الناس هذا جزاؤُهُ

وروى أنَّ سُليمان بن داود عليهما السلام قال : لا تحكموا للرجل بشىء حتى تنظروا مَنْ يخادن .

وقال عدى بن زيد العبادىّ :

عن المرء لَا تَسأل وأبصِرْ قرينَه ... فان القرين بالمقارِن مُقتَدِ
اذا ما رأيتَ الشَّرَّ يَبعث أهله ... وقام جُناةُ الشَّرِّ للشرِّ فاقعُدِ

وقال عُتبة بن هُبَيرِ الأسدىّ :

إن كنتَ تبغى العلمَ أو أهلَه ... أو شاهِداً يُخبِر عن غائبِ
فاختبرِ الأرضَ بأسمائها ... واختبرِ الصاحب بالصاحِبِ

وقال أبو العتاهية :

من ذا الذى يَخفَى عليـ ... ـك إذا نظرت إلى قرينِهْ
وعلى الفتى بطِبَاعِهِ ... سِمَةٌ[3] تلوح على جَبينِهْ

وأنشدنى أحمد بن عُبيد لأبى محمد اليزيدىّ :

ومَنْ يصاحبْ صاحباً ... يُنسَبْ إلى مُستَصحَبهْ
بزائنات رشدِهِ ... أو شائنات ريبِهْ

(١) محض فلانا الود أو النصح : أخلصه إياه
(٢) أزرى عليه عمله : عابه عليه
(٣) السمة : العلامة

ورأسُ أمــرِ لامرئٍ خيرٌ له من ذَنبه
وذو النُّهى ليست تبا عاتُ[1] الهوى من أربه

وقال آخر: ولا تَصْحَبْ أخا الجهل وإيَّــاك وإيَّاهُ
فكمْ من جاهلٍ أردَى[2] حليمًا حِــينَ آخاهُ
وللشيْءِ مِنَ الشيْء مَقَايِيسٌ وأشْــباهُ
يُقَاسُ المرءُ بالمرءِ إذا ما المرءُ ما شَاهُ
ولِلقَلْبِ على القلب دليلٌ حــين يَلْقَاهُ

وأنشدنى أبو العبَّاس الشيبانىّ لأبي آمِنة جدّ النبىّ صلىّ الله عليه وسلّم :

وإذا أتيتَ جماعةً فى مجلس فاحــذرْ مَجالسَهم ولمّا تَقْعُدِ
وذَرِ الغُوَاةَ الجاهلينَ وجهْلَهمْ وإلى الذين يذكّرونك فاقْعُدِ

فليُؤَاخِ الأديبُ أكفاءه، وليصحب نظراءه، ومن يأمَنْ مِنْ غدره، وغِبِّ[3] أمره، وبوائق[4] شرّه، وأنّى يكون ذلك ولن يجتمع إلاّ فى أهل الحياء، فمنهم كرم الوفاء، وإذا اجتمع الحياء والوفاء، صحّ الإخاء.

وقد أخبرنى مخبرٌ عن عبد الله بن طاهر أنّه قال: لادواء لمن لاحياء له، ولاحياء لمن لاوفاء له، ولاوفاء لمن لا إخاء له، ولاإخاء لمن أراد أن يجمع بين أهواء أخلائه، حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى من أحد ختْلا[5] ولا زللا، ولا تفريطا، ثم أنشد:

طلبتُ امرءًا مَحْضًا[6] صحيحا مسلَّما نَقِيًا من الآفات فى كلّ مَوْسِمِ

---

(١) التباعات: جمع التباعة: ما يترتب على الفعل من الخير أو الشر
(٢) أردى الرجل: أسقطه (٣) الغب: العاقبة
(٤) البوائق: جمع البائقة: الداهية، أو الشر (٥) ختله: خدعه
(٦) المحض: الخالص الصريح عموما.

لِأَمنحه وُدّى فلم أُدرك الّذى طلبتُ وَمَنْ لى بالصحيح المُسَلَّم
صَبرتُ ومَنْ يَصْبِرْ يجدْ غِبَّ صبرهِ ألذّ وأشهى من جَنَى النحل فى الفم
وَمن لا يَطِبْ[1] نفساً ويَسْتبْقِ صاحباً ويغفرْ لِأهل الوُدّ يُصْرَمْ وَيَصْرِمِ[2]

وقال محمود الورّاق :

إلْبَسْ أخاك على تصنُّعِـــهِ فلَرُبّ مفتضحٍ علـى النّصّ
ما كِدْتُ أفحص عن أخى ثِقَـةٍ إلا ذَممتُ عواقبَ الفحْصِ

وليصحب نظراءه ، ومن يأمن غدره ، وغب أمره ، ويوائق شرّه .

وأنشدنى محمد بن يزيد المبرّد للمُطيع بن إياس :

ولئنْ كنت لا تُصاحِبُ إلاّ صاحباً لا تَزِلّ ماعاش نَعْــلُهْ
لا تجدْه ولو حرصتَ وأنّى لك بالخِلِّ ليس يوجَدُ مِثلُهْ

وقال يونس بن عُبيد : أعيانى شيئان : أخ فى الله ، ودرهم حلال .

وقيل لبعض الحكماء : من أبعد الناس سفرا ؟ فقال : من كان فى طلب صديق يرضاه .

وقال رجل للفضل بن عِياض : ابغِنى رجلا أحدّثه سرّى ، وآمنه على أمرى . فقال : تلك ضالّة[3] لا توجَد .

وأنشدنى المهلّبى لنفسه :

إلْبَسْ أخاك على ما كان من خُلُقٍ واحفَظْ مودّته بالغَيْبِ ما وَصَلا
فأطْوَلُ الناس غَمًّا من يريد أخًا ذا خُلّةٍ[4] لا يَرى فى وُدّه خَلَلا

وأنشدنى أيضا :

أقسمتُ بالله لا ينْفَكّ مغتفِراً ذَنْبَ الصديق وإن عَقَّا وإن صَرَما

---

(١) طابت النفس : انشرحت
(٢) صرمه : هجره ، وقاطعه
(٣) الضالة : الشىء المفقود الذى تسعى وراءه
(٤) الخلة : الصداقة

والعمرُ يَقصر عن هجْرٍ وعن صِلة ... وعن تجنٍّ وعَتْبٍ يُورِثُ السَّقَما

فترك مصارمة الخلّان ، والتجاوز عن هفوات الإخوان ، والاستكثار من الأخلاء ، ورفض معاندة الأعداء ، أولى بأهل الأدب ، وذوى المروة والأرب ، وأهل الفضل والحسب.

وقد حكى الأصمعيّ قال : سمعت أعرابيا يقول لأخ له : أى أخى ، إن الصديق يحول بالجفاء ، وإنى أراك رَطْب اللسان من عيوب أصدقائك ، فلا تَزِدْهم فى أعدائك .

وقال عبد الله بن الحسن بن علىّ لابنه رضى الله عنه : إياك وعداوة الرجال . فإنها لن تُعدمك مكرَ حليم ، أو مفاجأةَ لئيم

ورُوى أن سليمان بن داود قال لابنه : يا بُنىّ لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق : ولا تستقلّ أن يكون لك عدوّ واحد

وروى أن على بن أبى طالب عليه السلام قال :

وأكثِرْ من الاخوان ما اسْطَعْتَ إنّهم ... عمادٌ إذا استنجدتَهم وظُهورُ

وليس كثيراً ألفُ خلٍّ وصاحبٍ ... وإنّ عدوًّا واحداً لكثيرُ

وليس شىء أسرّ إلى ذى اللبّ ، ولا أحسن موقعاً فى القلب ، من محادثة العقلاء . ومجالسة الأدباء ، فإنّ ذلك مما تَفْتَق به الأذهان . وينفسح به الجنان ، ويزيد فى اللبّ ، ويحيا به القلب . كما قال بعض الشعراء :

وما بَقِيَتْ من اللذّات إلاّ ... محادثةُ الرجال ذوى العُقُول

وقد كُنّا نَعُــدُّهُمُ قليلا ... فقد صاروا أقلّ مِنَ القَليلِ

وقيل للحرَقة ابنة النعمان : ما كانت لذة أبيك ؟ فقالت : إدمان الشراب ومجالسة الرجال .

وقال عمرو بن مُرّة الجهَنى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وَسلم :

وَصحَوْت إلاّ من لِقاء محدِّث ‌‌ ‌‌ حَسَنِ الحديثِ يَزيدنى تَعْلِيماَ

وقال معاوية بن أبى سفيان لعمرو بن العاص : ما بقى ممّا تستلذّه ؟ فقال : مجالسة الرجال .

وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن عدّة من الصحابة رضى الله عنهم ، من الأحاديث فى الحث على صحبة الاخوان ، والرغبة فى الخلّان ، ما إن ذكرناه طال به الكتاب ، وكثر به الخطاب ؛ وسنذكر بعض ذلك ونختصره ، ونأخذ من أحسنه ما يكون فيه بلاغ إن شاء الله تعالى .

٤ — باب الحثّ على صحبة الاخوان

والإغراء على مودّة الخلّان ، والرغبة فى أهل الصلاح والإيمان

رُوى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالّ .

ورُوى عن أبى عمرو العَوْفِيّ قال : كان يقال : اصحبْ من إن صحبتَه زانك ، وان خدمته صانك ، وان أصابتك خصاصة[١] مَانَك[٢] ، وان رأى منك حَسَنَةَ عدّها ، وإن رأى منك سقطة سترها ، ومن إن قلت صدّق قولك ، وإن أصبت سدّد صوابك ، ومن لا يأتيك بالبوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

وقال الفضل بن غسان البصريّ : كان يقال : اصحب من ينسى معروفه عندك

ورُوى عن معاوية بن قُرّة قال : نظرت فى المودّة والاخاء ، فلم أجد أثبتَ مودّةَ من ذى أصل .

---

(١) الخصاصة : الفقر ‌‌ ‌‌ (٢) مانه : قدم له مؤنته وقام بكفايته

وأنشدونا لعمر بن عبد العزيز ، ولا يعرف له غير هذه الأبيات :

إنى لأَمنح مَنْ يُواصِلُنى ... منّى صَفاءً ليس بالمَذْقِ[1]

وإذا أخٌ لى حالَ عن خُلُقٍ ... داوَيْتُ منه ذاك بالرِّفْقِ

والمرءُ يَصنع نفسَه وَمَتَى ... ما تَبْلُهُ يَنزع إلى العِرْقِ

ومثله قول زُهَيْر بن أبى سُلْمَى :

وَمَا يَكُ من خير أَتوهُ فإنما ... تَوارَثَه آباءُ آبائهم قَبلُ

وَهَلْ يُنبِت الخطِّىَّ إلاوَشِيجُهُ[2] ... وَتُغْرَس إلّا فى منابِتِها النّخل

ومنه قول الآخر :

والابْن ينشو على ما كان والِدهُ ... إنَّ العُروقَ عليها تَنبُتُ الشَّجَر

وقال المتوكّل الكنانىّ :

عندى لصالح قومى ما بَقيت لهمْ ... حَمْدٌ ، وَذمٌّ لِأهل الذمِّ مَعْدُودُ

أجْرِى على سُنَّةٍ مِنْ وَالدِى سَبَقَتْ ... وَفى أرومَتِه[3] ما يُنْبِتُ العُود

وَأوصى بعض الحكماء أخاً له فقال : أى أخى ، آخ الكريمَ الأخوّة ، الكامل المروة ، الذى إن غبتَ خلفك ، وَإن حضرت كنفك[4] وَإن لقى صديقك استزاده ، وَإن لقى عدوّك كفّه ، وَإن رأيته ابتهجت ، وَإن نأيته استرحت .

وَقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إذا رزقك الله مودّة امرىء مسلم فتشبّث بها.

وَكان سفيان الثّورى كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين :

أَبْلُ الرِّجال إذا أردتَ إخاءَهُمْ ... وَتوسَّمَنّ إخاءهم وَتَفَقَّدِ

---

(١) مذق الود : شابه بكدر ولم يخلصه

(٢) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهى جزيرة بالبحرين ترفأ إليها سفن الرماح . الوشيج : شجر الرماح

(٣) الارومة : أصل الشجرة

(٤) كنف الشىء : صانه وحفظه

فإذا وَجدتَ أخا الأمانة وَالتُّقى · فبه اليَدَيْنِ قَرِيرَ عينٍ فاشْدُدِ
كَمْ مِنْ صديق فى الرّخاء مُساعِد · وَإذا أردتَ حقيقةً لم توجَدِ

وَمثل ذلك قول الآخر :

آخ من آخَيتَ عن خِبرَتهِ · لَا يَغُرّنكَ من النّاسِ الطُرَرْ[1]
لا وَلا الأجسامُ ما لم تَبْلُهمْ · إنّما الناس كأمْثال الشّجَرْ
منـــه ما ليستْ له مَنْظَرَةٌ · وَهوَ صلْبٌ عودُه حُلو الثّمَرْ
وتَرى منـــه أنيقاً نَبْتُـهُ · طعمُه مُرٌّ وفى العَود خَوَرْ[2]

وقال آخر :

مَنْ حَمَدَ النـاس ولم يَبْلُهُـمْ · ثمّ بلاهمُ ذمّ مَنْ يَحْمَـــدُ
وصــار بالوَحْــــدة مستأنِسًا · يُوحِشُـهُ الأقربُ والأبعَدُ

ورُوِى أنّ رجلا من عبد القيس قال لابنه : أى بُنَىّ لا تُوَاخ أحداً حتى تعرف موارد أموره ومصادرها ، فاذا استبطنت الخير ، ورضيت منه العِشْرَة ، فآخه على إقالة العثرة ، والمؤاساة عند العُسْرَة .

وأنشدنى محمد بن يزيد المبرّد :

وكنتُ إذا الصديق أراد غَيْظِى · على حَنَقٍ وأشرَقَنى بِرِيقِى
غفرتُ ذنوبَه وكَظَمْت غيظِى · مخافَة أن أكُونَ بِلا صَديقِ

وأنشدنى لبَشّار بن بُرْد العُقَيْلِىّ :

أخوكَ الذى لا ينقُضِ الدهرُ عَهْدَه · ولاعندصَرف الدهريَزْوَرُّ[3] جانِبُهْ
خُذْ من أخيك العفوَ واغفرْ ذنوبَهُ · ولا تَكُ فى كلّ الأمور تجانبُهْ
اذا كنتَ فى كلّ الأمور مُعـــاتبًا · صديقَك لم تَلْقَ الذى لا تعـاتِبُهْ

---

(١) الطرر : جمع الطرة ، الجبهة
(٢) الخور : الضعف
(٣) ازور عن كذا : عدل وانحرف

اذا أنتَ لم تشرب مِراراً على القَذَى[1] ظمئتَ وأيّ الناس تَصفُو مَشارِبُهْ

وقال آخر :

ومن لا يغمّضْ عينَه عن صديقِهِ وعن بعض مافيه يَمُتْ وَهُوَ عاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبّعْ جاهداً كُلَّ عَــثْرَةٍ يجدْها ولا يَسلمْ له الدهرَ صاحِبُ

وأنشدنى أحمد بن يحيى لسعيد المُساحِقىّ :

فَخُذْ عفوَ من أحببتَ لا تُــبْرِمَنَّهُ فعند بُلوغ العذر رَنْقُ[2] المَشارِبِ

وقال أبو الأسود الدُّؤلىّ :

ولستَ مستبقيا أخًا لك لا تَصفَحُ عمّا يكون من زَلَلِهْ

من ذا الذى هُذِّبَتْ خلائقُــهُ فى رَيْثِهِ[3] إن أتى وفى عَجَلِهْ

لا أصحبُ الخائنَ اللئيمَ ولا أقطعُ وَصْلَ الخليلِ من مَلَلِهْ

أجْزِيهِ بالعُرْف ما حَيِيتُ وَلَا يَعْدَمُ صَفْحِى للشرِّ من عَمَــلِهْ

ومثله قول النابغة الذبيانىّ :

وَلستَ بمستَبْقٍ أَخًا لا تلمُّــهُ على شَعَثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

وأجاد والله الذى يقول :

إذا ما أذانى مَفْصِلٌ فقطَعْتُهُ بَقِيتُ ومالى للنُهوضِ مَفَاصِلُ

وَلـكنْ أُداويهِ فإن صحَّ كان لى وان هوأدْوَى[4] كانفيه تحامُلُ[5]

وأُنشِدتُ لرجل من طيّء :

أرْخِ على الناس ثوبَ سِتْرِهِمِ أو اجْنِ حُلْوَ الثِّمارِ من شَجَرِهْ

---

(١) القذى : ما يقع فى العين أو الشراب من تبن ونحوه

(٢) رنق الماء : اختلط فيه الطين فكدر .

(٣) الريث : مقدار المهلة من الزمن ، يقال : أمهله ريثما فعل ذلك ، أى مقدار ما فعل ذلك .

(٤) أدواه : أمرضه . (٥) تحامل فى والأمر : تكلفه على مشقة .

واستَبْقِ ما لم تَرِدْ قطيعَتَهُ ... بِسِتْرِه ما استقَرَّ في سُتَرِه

فرُبَّ بادِي الجميلِ منــه إذَا ... فُتِّشَ أبدى التفتيش عن عَوَرِهْ

واستصلِحِ الناس ما استطعت ولا ... تُسرِعْ إلى ضرِّ مُبتغِي ضَرَرِهْ

ورُوِي عن ابن عبَّاس رضى الله عنه قال: أحَبُّ أخواني إليَّ أخ إن غبت عنه عذرني، وإن جئته قَبِلَني

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أوجب عليك حقًا؟ فقال: الذي يسدُّ خلتي، ويغفر زلَّتي، ويقيل عثرتي

وقال مُطيع بن إياس:

إنَّما صاحِبِي الذي يَغفِرُ الذنْـ ... ـبَ وَيَكفِيه من أخيه أَقَلُّهْ

ليس مَن يُظهِر المَلالَةَ إفكًا ... وإذا قال خالَفَ القولَ فِعلُهْ

وَصْلُهُ للصديق يومٌ ويومٌ ... يُضمِرُ الهجرَ ثمَّ يَنْبَتُّ حَبلُهْ(١)

وأحقُّ الرجال أن يغفر الذنْـ ... ـبَ لإخوانِهِ المُوَفَّرُ عَقــلُهْ

وفي حديث سهل بن سعيد الساعِديِّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء كثير بأخيه

وكَتب الأحنف بن قيس إلى صديق له: أمَّا بعد، فاذا قدم عليك، أخ موافق لك، فليكن منك، مكان سمعك وبصرك، فإنَّ الأخ الموافق، أفضل من الولد المخالف

وقال خالد بن صفوان: أعجزُ النَّاس من قصَّر في طلب الاخوان، وأعجزُ منه من ضيَّع من ظفر به منهم

وقال عمر بن الخطاب: عليكم بإخوان الصدق فاكتسبوهم، فإنهم زين في الرخاء، وعُدَّة عند البلاء

---

(١) انبت: انقطع.

وسئل بعض الحكماء: أى الكنوز خير؟ فقال: أما بعد تقوى الله، فالأخ الصالح.

(واعلم) أن خير الاخوان من كانت إخوته ومحبته فى الله، ولم تكن خُلَّته[1] ولا مؤاخاته لطمع قليل، ولا لغَرَض عاجل، وليس شىء بذوى العقول، وأهل الديانات والفضل: أفضل من إخلاص المودّة فى الله، ولعمرى انّ ذلك يَحسن بجميع أهل المِلَل والأديان، وهو من أوثق عرى الايمان، وقد روى فيه أحاديث كثيرة، اقتصرنا على بعضها، واختصرنا من أحسنها، وفى البعض كفاية إن شاء الله.

٥ — باب صفة المتحابين فى الله عز وجل

رُوى عن البراء بن عازب أنّه قال: كنت جالساً عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: أتدرون أىّ عُرَى الايمان أوثق؟ قلنا: الصلاة. قال: إن الصلاة لحسنة، وماهى بها. قلنا: الزكاة. قال: وحسنة، وماهى بها. فذكروا شرائع الاسلام. فلمّا رآهم لا يصيبون. قال: إن أوثق عرى الايمان أن تحبّ فى الله وتُبغِض فى الله

وأخبرنى أبى رحمه الله بإسناد ذكره عن أبى هُريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان فى الجنّة لَعموداً من ذهبٍ عليه منائر من زبرجد تضىء لأهل الجنّة كما يضىء الكوكب الدرّىّ فى أفق السماء، قلنا: لمن هذا يا رسول الله؟ قال: للمتحابّين فى الله[2]

---

(١) الخلة: الصداقة.

(٢) الكوكب الدرى (بتثليث الدال): الثاقب المضىء كالدر. وقد روى الحديث بالجامع الصغير للحافظ السيوطى: «إن فى الجنة لعمداً من ياقوت عليها غرف من زبرجد لها أبواب مفتحة تضىء كما يضىء الكوكب الدرى يسكنها المتحابون فى الله تعالى والمتجالسون فى الله تعالى والمتلاقون فى الله».

وَرَوى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: الايمان أن تحبّ فى الله وَتبغض فى الله

وقال عليه الصلاة وَالسلام : الايمان أن يحبّ الرجلُ الرجلَ ليس بينهما نسب قريب ، ولا مال أعطاه إياه ، لا يحبه إلا لله عز وَجل

ورُوينا عن ثابت البُنانىّ ، عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وَسلم يؤاخى بين الرجلَيْن من أصحابه، فتطول الليلة على أحدهما حتى يرى أخاه

ورُوينا عن جرير بن عبد الله البَجَلىّ قال : ما حجبنى رسول الله صلى الله عليه وَسلم منذ أسلمت ، وَلا رآنى إلاّ تبسّم فى وجهى

وقال عمر بن الخطّاب : لقاء الاخوان جلاء الأحزان

وقال أكثم بن صَيفى : لقاء الأحبّة مَسْلاة الهم

وَكان عبد الله بن مسعود يقُول لأصحابه : أنتم جِلاء حزنى

وَرُوى عن أبى امامة قال : من أعطى لله ، وَمنع لله ، وأحبّ لله ، وأبغض لله ، فقد استكمل الايمان

وقد كانت الحكماء تقول : إنّ ما يجب للأخ على أخيه مودّتهُ بقلبه ، وتزيينُه بلسانه ، ورفدُه [1] بماله ، وتقويمه بأدبه ، وحسنُ الذبّ [2] والمدافعة عنه فى غيبته .

وأنشدنى أبو بكر بن أبى الدُّنيا :

اذا المرء لم يُنصِفْ أخاه ولم يكنْ	له غائبًا يوما كما هو شاهِدُهْ
فلا خيرَ فيه فالتمسْ غيرَه أخا	كريمًا على وَصْل الكريم تعاهِدُه
فإن غِبْتَ يوما أوشَهِدْتَ فوجهُهُ	على كلّ حالٍ أينما كنتَ واجدُهْ

(١) الرفد : العطاء والمعونة
(٢) ذب عنه : دفع وحامى

أنشدنى أحمد بن يحيى ، لكثير عزّة :

وليس خَليلى بالمَلُول ولا الذى اذا غِبْتُ عنه باعَنى بِخَليلِ
ولكنْ خليلى مَن يَدوم وفاؤُهُ ويَحفظ سِرّى عند كلّ دَخِيلِ
ولستُ براضٍ من خليلى بِنائِلٍ قليلٍ ولا أرْضَى له بِقَليل

وأنشدنى بعض الأدباء ، قال : أنشدنى أعرابى ببلاد نجد :

وليس خليلى بالمُزَجّى [1] ولاالذى اذا غِبْتُ عنه كان عَوْنًا مع الدَّهرْ
وَلَكِنْ خليلى من يَصون مَوَدّتى ويَحفَظُنى إن كان مِنْ دونِى البَحْرُ

وأنشدنى أبو العبّاس محمد بن يزيد النحوىّ :

تَوَدُّ عَدوّى ثم تزعمُ إنّنى أوَدُّك ، إنّ الرأى عنك لعَازِبُ [2]
وليس أخى مَنْ وَدّنى رَأْىَ عَينِه وَلَكِنْ أخى مَنْ وَدّنِى وَهْوَ غائبُ

وأنشدنى يوسف الأعور قال : أنشدنى يعقوب بن السِّكّيت لأوس بن حَجَر :

وليس أخوك الدّائم العَهْدِ بالذى يَذُمّك إنْ وَلّى وَيُرْضيك مُقْبِلَا
وَلَكِنْ أخوك النائى ما كنتَ آمِنًا وصاحبُك الأدنى إذا الأمر أعْضَلَا [3]

وأنشدنى أبو العيناء ، قال أنشدنى الجاحظ :

أخوك الذى إن سَرّك الأمْرُ سَرّهُ وَإن غِبْتَ يَومًا ظَلّ وَهْوَ حَزينُ
يُقَرّب مَنْ قَرّبْتَ مِن ذى مودّةٍ وَيُقْصِى الذى أقصيتَهُ وَيُهِين

وأنشدنى أحمد بن يحيى :

اذا أنت رافقتَ الرجال فكُنْ فَتى كأنّك مَملوكٌ لكلّ رَفيقِ

---

(١) المزجى : الضعيف .
(٢) عزب فهو عازب : بعد وغاب .
(٣) أعضل الأمر : اشتد واستغلق

وكُنْ مثلَ طعم المـاء عَذْبًا وَبارِداً على الـكَبِدِ الحَرَّى[1] لـكلِّ صديقِ

واعلم أنّ أحسن ماتألف به الناس قلوب أخلّائهم، وتفوا به الضِّغْن[2] عن قلوب أعدائهم ، البِشْرُ بهم عند حضورهم ، والتفقّد لأمورهم ، وحسن البشاشة ، فذلك يُثبت المحبّة والإخاء ، ومنـه أحاديث قد ذكرنا بعضها ، وقصدنا فيما فيه قِناعَه .

٦ — باب البشاشة بالإخوان

والصبر على تألف قلوب ذوى الأضغان

قال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِدْفَعْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَهُ عداوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلّا ذو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

وقال تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ)

وَقال عزّ وَجلّ : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وروى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: رأس العقل بعد الايمان التودّد الى الناس[3]

وسئل الحسن عن حُسْن الخلق فقال : الكرم والبذلة والتودّد الى الناس

وروينا عن جرير بن عبد الله البَجَلى فقال : ما حجبنيَ رسول الله منذ أسلمت ، ولا رآنى الا تبسم فى وَجهى .

---

(١) الحرى : الشديد العطش . (٢) الضغن : الحقد .

(٣) روى بالجامع الصغير : رأس العقل بعدالايمان بالله التودد إلى الناس واصطناع الخير إلى كل بر وفاجر .

وقال المنصور : اذا أحببتَ المحمدةَ من الناس بلا مؤونة ، فالقهم ببشر حسن .

ورُوى عن كعب الأحبار قال : مكتوب فى التوراة : ليكن وجهك سَبْطًا، تكنْ أحبّ إلى الناس ممّن يعطيهم الذهب والفضة .

وأنشدنى أبو على العنزى :

إِلْقَ بالبشر مَن لقيتَ مِنَ النّا ... سِ جميعًا ولاقِهِمْ بالطّلاقَهْ

تَجْنِ منهم به جَنِيَّ ثمارٍ ... طيِّبٍ طعْمُه لذيذ المَذاقَهْ

ودَع التيهَ والعُبوسَ عن النّا ... سِ فإنّ العبوس رأسُ الحمَاقهْ

كُلّما شئتَ أن تُعادِىَ عادَيْـ ... ـتَ صديقاً وقد تعزُّ الصَّداقَهْ

أنشدنى لبعض بنى طيّء :

خالِقِ الناسَ بخُلْقٍ واسعٍ ... لاتكنْ كلبًا على الناس تهِرْ

والقهمْ منك ببشرٍ ثم كُنْ ... للّذى تسْمَع منهمْ مُغْتَفِرْ

وقال أبو العتاهية :

وَألِنْ جَناحَكَ تعتَقِدْ ... فى النَّاسِ مَحْمَدَةً بِلِينِهْ

فَلَرُبَّما احتقَرَ الفَتَى ... مَنْ لَيْسَ فِى شَرَفٍ بِدونِهْ

وَكان يقال : أوّل المروة طلاقة الوجه ، والثانية التودّد الى الناس ، والثالثة قضاء حوائج الناس .

ورُوى أنّ أعرابيًا قال : يارسول الله ، إنّا من أهل البادية ، فنحبّ أن تعلمنا عملا لعلّ الله أن ينفعنا به . قال : لاتحقرنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تفرّغ من دلوك فى إناء المستقى ، وأن تكلم أخاك ووجهك اليه منطلق .

ورُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه والخُلق الحسن .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : تمام تحياتكم المصافحة .

وَقال الحسن البصرىّ : المصافحة تزيد فى المودة

وروى مُجاهد عن مُعاذ قال : إنّ المسلمَين اذا التقيا فضحك كلُّ وَاحد منهما فى وَجه صاحبه، ثمّ أخذ بيده تحاتّتْ ذنوبهما كما يتحاتّ ورقُ الشجر[1]

وَاعلم انه اذا صلحت النيّات ، وخلصت السَّريرات ، صلحت أصْفيَة[2] المودة ، وتثبت المحبّة ، واتفقت القلوب ، واغتُفِرت الذنوب ؛ واذا فسدت النيّات ، وخبثت السريرات ، بطل خالِصُ الإخاء ، وانحلت عُرَى[3] المودة والصفاء ، وقد شرحت فى ذلك بابًا ، تقف عليه إن شاء الله تعالى

٧ — باب ائتلاف القلوب

على مودّة الصديق . وقلّة الخلاف على الرفيق

رُوينا عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، وعن الوليد ، عن أبى هُريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر[4] اختلف .

وقال بعض الشعراء :

إنّ القلوب لأجنادٌ مجنَّدَةٌ ... لله فى الأرض بالأهواء تعترِفُ

فما تعارَفَ منها فَهْوَ مؤتلِفٌ ... وما تَناكرَ منها فَهْوَ مختلِفُ

وقال طَرَفَةُ :

وانّ امرءًا لم يعفُ يومًا فُكاهَةً ... لِمَنْ لم يُرِد سُوءًا بها لجَهُولُ

---

(١) تحات الورق من الشجر : تناثر .

(٢) أصفى فلانا الود ، وأصفى له الود . أخلصه له .

(٣) العرى : جمع عروة : ما يوثق به .

(٤) تناكر القوم : تعادوا وأنكر بعضهم بعضا .

تعارَفُ أرواحُ الرجال اذا التَقُوا   فمنهم عـــدوٌّ يُتَّقى وخَليلُ

وكان يقال : المودّة قرابة مستفادة .

وقيل لخالد بن صفوان : أخوك أحبّ اليك ، أم صديقك ؟ فقال : انّ أخى اذا كان غير صديق لم أحبّه .

وروينا عن واصل مولى ابن عُيينة قال : كنت مع محمد بن واسع بمَرْوَ ، فأتى عطاء بن مسلم ومعه ابنه عثمان فقال عطاء لمحمد : أىّ عمل فى الدنيا أفضل ؟ قال صحبة الأصحاب ، ومحادثة الاخوان ، اذا اصطحبوا على الأمن والتقوى ، فحينئذ يُذهِب الله بالخُلف من بينهم . فواصلوا وتواصلوا .

وَرُوِى عن بشر بن السَّرِىّ قال : ليس من البر أن تبغض ماأحبه حبيبك

وقال عبدالله بن صالح : اجتمعت أنا ومحمد بن نصر الحارثىّ ، وعبد الله ابن المبارك . وَفُضيل بن عياض ، فصنعت لهم طعاما فلم يخالف محمد بن نصر علينا فى شىء أصلا . فقال له عبد الله : ما أقلّ خلافك ! فقال محمد :

وَاذا صاحبتَ فاصحَبْ ماجداً   ذا حياءٍ وعفافٍ وكَرمْ

قولُه للشى : لا ، إن قلتَ : لا   وإذا قلتَ : نَعَمْ ، قال : نَعَمْ

وقال آخر :

هُمومُ رجالٍ فى أمورٍ كثيرةٍ   وهمّى من الدُّنْيا خليلٌ مُساعِدُ

اذا غِبْتُ عنه لم أغِبْ عن ضَميرِهِ   كأنّى مُقيمٌ بين عينَيْه شـــاهِدُ

نكون كرُوحٍ بين جِسْمَيْنِ فُرِّقَا   فجِسْماهما جسمانِ والرُّوحُ واحِدُ

وأنشدنى آخر :

وإلْفَينِ كالغُصْنَيْنِ ضَمَّهما الهَوَى   فروحاهما روحٌ وقَلْباهما قَلْبُ

إذا غاب هـذا ساعةً عن خليلِهِ   تَجَلّاه يوماً عنـد فُرْقتِهِ كَرْبُ

فيامَن رأى إلْفَينِ صانا هَواهما   فهذا بِذا صبٌّ وَهـذا بِذا صَبُّ

وأُنشِدتُ للحَكَمِيّ :

رُوحُها رُوحي ورُوحي روحُها ولَهَا قلبٌ وقلبي قَلْبُها
فلنَا روحٌ وقلبٌ واحدٌ حسبُها حَسْبي وحَسْبي حسبُها

ولعمرى انّ ذلك لحسن جميل ، والذى قيل فى ذلك كثير طويل .

وقد نَهى قومٌ عن استعمال الميل فى المودّة ، واعلم أن ذلك مع دوام المحبّة ، وصفاء المودة ، لحسن غيرُ مدفوع ؛ غير أنه قد نُهِىَ عن استعمال الميل فى المودة ، وكثرة الافراط فى المحبة ، وإدمان الزيارة فى كل يوم وساعة ، لموضع الملل والسلوان ، الذى هو طبع الانسان ، وأمرنا بالقصد فى كل الأمور ، بدوام المحبة والسرور ، وقد ذكرتُ بعض ذلك وفيه مقنع .

٨ — باب النهى عن استعمال الافراط فى حب الصديق

رُوى عن بعض الحكماء أنه قال : لايفرط الأديب فى محبّـة الصّديق ، ولا يتجاوَز فى عداوَة العدوّ ، فانه لايدرى متى تنتقل صداقة الصّديق عداوة ، ولا متى تنتقل عداوَة العدوّ صداقة .

وحُكى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه انه قال : أحبِبْ حبيبك هَوْناً ما[1] عسى أن يكون بغيضَك يومًا ما ، وأبغضْ بغيضَك هونًا ما ، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما .

ورُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا يكن حبّك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

ومن أمثال أكثم بن صَيفى : الانقباض من الناس مكسبة للعداوة ، وإفراط الأنس مكسبة للملال . قال أبو عبيدة : يريد ان الاقتصاد أدنى إلى السلامة .

---

(١) أحبب حبيبك هونا ما . . . : أى حبا مقتصدا لا إفراط فيه ، وإضافة ما تفيد التقليل ، يعنى لا تسرف فى الحب والبغض فعسى أن يصير الحبيب بغيضا والبغيض حبيبا ، فلا تكون قد أسرفت فى الحب فتندم ولا فى البغض فتستحى .

قال أبو زيد : من أمثالهم : لا تكنْ حُلْوًا فَتُسْتَرَط[1] ولا مُرًّا فتعقَى[2] أى تُلفظ من المرارة .

ومثله قول مُطَرِّف بن الشِّخِّير : الحسنة بين السَّيِّئتين ، وخير الأمور أوسطها .

وكان يقال : لا تهذر فى منطقك ، ولا تُخْبِر بذات نفسك ، ولا تغترّ بعدوّك ، ولا تفرط فى حب صديقك ، ولا تفزعْ إلى من لا يرحمك ، ولا تألفْ من لا يرشدك ، ولا تبغض من لا ينصح لك ، فان شرّ الأخلاق ملالة الصاحب ، وتقريب المتباعد .

وأنشدنى أحمد بن يحيى للمُقَنَّع الكندى :

وكُنْ مَعْدِنًا للحِلمِ واصفَحْ عن الأذى ... فإنك راءٍ ما علمتَ وسامِعُ
وأحبِبْ إذا أحببتَ حُبًّا مُقَارِبًا ... فإنّك لا تدرى متى أنت نازِعُ
وأبْغِضْ إذا أبغضتَ غيرَ مُباعِدٍ ... فإنّك لا تدرى متى أنت راجِعُ

وأنشدنى أحمد بن يحيى لسعيد المساحقىّ :

فَهَوْنَكَ فى حبٍّ وبغضٍ فربّما ... بَدَا جانبٌ من صاحب بعد جانِبِ

وسمعتُ عبد الله بن عبد الله بن طاهر ينشد هذين البيتين ، وأحسبهما له :

إذا أنا أكرمتُ اللئيمَ فعدّنى ... مهيناً له حقّقتُ باطلَ ما عَدَا
فإنّ صلاحَ الأمر يَرْجِعُ كلُّه ... فساداً إذا الانسانُ جُزتَ به الحَدَّا

وهذا طويل يُقنعك منه القليل .

وأما طول الزِّيارة ، فقد يجب على أهل الصَّداقة ترك المداومة عليها ، وكثرة الجنوح[3] إليها ، فإن ذلك يخلق الحبّ ، ويذهل الصَّبّ ، ويضجر

(١) سرط الشىء : ابتلعه . (٢) عقى الأمر : كرهه . وأعقى : صار مرّاً .
(٣) جنح إليه : مال .

المَزور ، ويعدم السرور ، ويوقع البدل ، ويبدى الملل ؛ وقد شرحنا فى ذلك بابا فاعرفه وقِفْ عليه إن شاء الله تعالى

٩ — باب الأمر باغباب زيارة الأحباب
والنّهى عن مداومة غشيان الأصحاب

رُوى عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : زُرْ غِبًّا تزدَدْ حُبًّا

وقال بعض الحكماء : من كثرت زيارته قلّت بشاشته

وقال آخر : من أدمن زيارة الأصدقاء : عَدِمَ الاحتشادَ عند اللقاء . ﴿ وقال آخر :

أَقْلِلْ زيارتَك الصَّديـ ـقَ تكونُ كالثّوبِ اسْتَجَدَّهْ
إنَّ الصَّديقَ يُمِلُّهُ أن لا يَزَالَ يَراكَ عِنْدَهْ

وقال آخر :

عَلَيْكَ بإِقــلال الزّيارة إنَّها تـكون إذا دامتْ إلى الهَجْرِ مَسْلَكا
فإِنّى رأيتُ القَطْرَ يُسْأَمُ دَائبًا وَيُسْأَلُ بالأيدى إذا هو أَمْسَكا [1]

وأنشدت لأبى تمّام ، حبيب بن أوس :

وَطُولُ مُقامِ المرءِ فى الحَىِّ مُخلِقٌ لِديباجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تَتَجَــدَّدِ [2]
فَإِنّى رأيتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إلى النّاسِ أن ليست عليهم بِسَرْمَدِ [3]

وأنشدنى لابراهيم بن المهدى :

إِنّى كَثُرْتُ عليه فى زيارتِهِ والشّىءُ مُسْتَثْقَلٌ جدًّا إِذَا كَثُرَا
وَرَابَنِى منـــه أَنّى لا أزال أرى فى طَرْفِهِ قِصَرًا عَنّى إذا نَظَرَا [4]

وقال عمر بن أبى ربيعة :

---

(١) القطر : المطر . (٢) مخلق : بال أو ممزق . الديباجة : الخد .
(٣) السرمد : الدائم . (٤) الطرف : العين .

لَا تَجْعَلَنْ أَحَداً عَلَيكَ إِذَا ... أَحببتَهُ وهَوِيتَهُ رَبّاً [١]

وَصِلِ الصَّدِيقَ إِذا كلفتَ بحبِّهِ ... وَاطْوِ الزِّيَارَةَ دُونَهُ غِبّاً [٢]

فَلَذَاكَ خَيْرٌ مِنْ مُوَاصَلَةٍ ... لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا

لا بَلْ يملّك عنـد دَعْوَتِهِ ... فيقول آهَ وَطَالَ ما لَبّي [٣]

وقال آخر:

أغِبّ الزِّيارةَ لمّا بَدَا ... لَهُ الْهَجْرُ أوْ بَعْضُ أسْبَابِهِ

وَمَا صَدَّ هَجْراً ولكنّهُ ... طَرِيدُ مَلالةِ أحْبَابِهِ

وكتب بعض الظّرفاء رقعة وطرحها فى مجلس محمدَ بن عبد الله بن طاهر حيث حرّم القيان:

عزَمَاتُ الأمير أصْلَحَه اللّـ ... ـهُ بحُسْنِ الارشاد والتّوْفيقِ

باعدتْ بيننا وبين عُجَابٍ ... ومُدِيلٍ ومُنْصِفٍ وصَدِيقِ

فوقّع محمد فى ظهر الرقعة

حُسْنَ رأى الأمير فى العُشّاقِ ... وفّر الحظ فى بِعاد التّلاقى

خافَ أن يحْدِثَ الوِصالُ مَلالاً ... فتلافى الهوَى ببعض الفِراقِ

وأنشدنى بعض الأدباء:

إنى رأيتك لى مُحِبّا ... وإلىّ حين أغيبُ صَبّا

---

(١) الرب: مفعول ثان لتجعلن. ويطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربى والقيم والمنعم.

(٢) كلف به: أحبه حباً شديداً وأولع به: ويروى: إذا سعفت به. واطو الزيادة: اقطعها. غب غباً: جاء زائراً بعد أيام، وغب عنه وعليه: أتاه يوماً وتركه آخر.

(٣) مل الشىء: سئمه وضجر منه، آه: توجع. لبى: أجاب النداء. ويروى:

لا بل يمـلك ثم تدعو باسمه ... فيقول هاه وطالما لبى

فهجــرتُ لا لمــلالة حَدَثَتْ ولا استحدثتُ ذَنبَا
الا لقـول نَبِيِّنــا زوروا عَلَى الأيَّام غِبَّا
ولقوله مَن زَار غِبًّا منكُم يَزداد حُبًّا
وهجرتُ حين هجرتُ كَيْ أزدادَ بالهجرانِ قربَا
الله يعـلم أنـنِي لك أخلصُ الثَّقلينِ قَلبَا[1]
أرعَى لك الوُدَّ القَديـم وإن جَنَيْتَ عَلَيَّ حَربَا

ومن ذلك ما رُوى ان العتَّابي دخل على يحي بن خالد البرمكيّ ، وكانت له جارية يقال لها : خَلوب ، تُجالس الأدباء ، وتناقض الشعراء ، فقال لها : سليه لابطائه عنَّا جائزةً ، فقالت له : قل على هذه القافية .

إذا شئتَ أن تُقلَى فَزُرْ متواتِرا[2] وَإنْ شِئتَ أن تَزداد حُبًّا فَزُرْ غِبَّا

فأنشأ يقول :

بَقيتُ بِلَا قلب لأنِّى هَائمٌ فهل مِنْ مُعِيرٍ يا خَلُوبُ بكُمْ قَلبَا
حلفتُ لها بالله أنــكِ مُنيَتِى فـكونى لِعَيْنِى حيث ماظرتَ نَصْبا
عسى الله يومًا أن يُرِيَنيكِ خاليـًا فأَجْنِى بلحظى من محاسنكِ نَجْبا
يقولون لا تكثرْ زيارة صاحبٍ فانكَ ان أكثرتَه كرهَ القربا
وكيف يُطيق الصبُّ سلوانَ حُبِّهِ إذا كان مشعوفًا فقد استَشعر الكربا[3]
وقد قال بيتًا ما سمعتُ بمثــله خَلِيٌّ من الأحزان لم يذُقِ الحُبَّا
إذا شئت أنْ تُقلَى فَزُرْ متواترًا وإن شئت أن تزدادَ حبًّا فَزُرْ غِبًّا

---

(١) الثقلان : الإنس والجن .

(٢) قلى الرجل : أبغضه . واتر الكتب : أرسل بعضا فى أثر بعض ، ويريد أن تكون الزيادة متواصلة .

(٣) شعفه الحب : غشى قلبه وغلبه .

فقال له : لله أبوك أحسنتَ ، خذ بيدها فهى لك ، وأمر له بألف درهم .

واعلم أن كلّ ما رسمناه فى هـذه الأبواب ، وذكرناه . وشرطناه على الأدباء ، ووجدناه داخلا فى باب حدود الأدب على ما أصبناه غير خارج منه ، ولا منفصل عنـه ، وأن يكون الأديب عاقلا ، واللبيب كاملا ، حتى تكون له مودة قد قرنها بأدبه ، وثابر عليها فى طلبه ، فاذا جمع ذلك ، رَهِب منه الأعداء ، ورَغِب فيه الأدباء .

وسنذكر من أنشأته المروّة ما يكون فيه بلاغ وهداية ، إن شاء الله تعالى .

١٠ — باب شرائع المروة وصفتها

اعلم أن المروّة هى عِماد الأدباء ، وعتاد[١] العقلاء ، يرأس بها صاحبها ، ويشرف بهـا كاسبها ، ولا شىء أزين بالمرء من المروّة ، فهى رأس الظرف والفتوة .

وقد قال بعض الحـكماء : الأدب يُحتاج معه الى المروّة ، والمروّة لا يحتاج معها الى الأدب ، وربّما رأيتَ ذا المروّة الخامل ، وذا السّخاء الجاهل ، قد غطت مروّته على عيوبه ، وستره سخاؤه من معيبه .

وأهل المروّات محسودة أفعالهم ، متّبعة أحوالهم ، وقل ما رأيتَ حاسداً على أدب ، وراغبًا فى أرب .

من ذلك ما حكى عن محمد بن حرب أنه قال : كنتُ على شُرْطة جعفر بالمدينة ، فأُتيت بأعرابىّ من بنى أسد يُستعدى[٢] عليه ، فرأيتُ رجلا له بيان ، يحتمل الصنيعة[٣] فرغبتُ فى اتخاذها عنده ، فتخلّصتُه ، ثم لم يلبث أن ردّ

(١) العتاد : ما أعد لأمر ما .

(٢) استعدى الرجل : استعان به . (٣) الصنيعة : الإحسان .

الىّ فقلت : حَماسَ ، فقال لى : حماس والله ، قلت : ماأرجعك ؟ قال : الشرّ ، وما قاله رجل منّا يقال له خالد ، فأنشدنى :

عَادَوْا مروّتنا فَضُلِّلَ سَعيُهُمْ ولكلّ بيتِ مروّةٍ أعداءُ
لسْنَا إذا عُدّ الفَخَارُ كمعشرٍ أزرَى بفعلِ أبيهم الأبناءُ

قال : فتخلّصتَه ثانية .

وقيل لبعض حكماء الفُرْس : أى شىء للمروّة أشد تهجينا[1] ؟ فقال : للملوك صَغَرٌ فى الهِمّة ، وللعامّة الصَّلَفُ ، وللفقهاء الهوى ، وللنساء قلة الحياء ، وللعامة الكذب ، والصبر على المروة صعبٌ ، وتحمُّلها عِبءٌ .

وقد قال خالد بن صفوان : لولا أن المروّة اشتدت مؤونتُها ، وثقل حملها ، ماترك اللئام للكرام منها شيئا ، ولكنه لما ثقُل محملها ، واشتدت مؤونتُها ، حاد عنها اللئام ، فاحتملها الكرام .

وقال بعضهم : المكارم لاتكون إلا بالمكاره ، ولو كانت خفيفةً لتناولها السِّفلة بالغلبة .

وقال ابن عمر : ما حَمل رجل حِملا أثقل من المروّة ، فقال له أصحابه : صف لنا ذلك . فقال : ماله عندي حدٌّ أعرفه إلا أنّى ما استحييتُ من شىء قط علانية الا استحييتُ منه سِرًّا .

وقام رجل من بنى مُجاشِع الى النبي صلى الله عليه وسلمَ ، فقال : يارسول الله ألستُ أفضلَ قومى ؟ فقال : ان كان لك عقل فلك فضل ، وان كان لك خُلق فلك مروّة ، وان لك مال فلك حسبٌ . وان كان لك دين فلك تقَى ، وان كان لك تُقَى فلك دين .

وروى الهلالىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من ثقيف

(١) هجن الأمر : قبحه وعابه .

ماالمروة فيكم ؟ قال : الصلاحُ فى الدِّين ، وإصلاحُ المعيشة ، وسخاء النفس ، وصلةُ الرَّحم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذلك هى فينا .

وقال عمر بن الخطاب : المروّة الظاهرة ، الثيابُ الطاهرة ، يعنى النقيَّة من الذنوب .

وقيل للأحنف : ما المروة ؟ قال : إصلاح المعيشة ، واحتمال الجريرة .

وقال معاوية لصعصعة بن صفوان : ماالمروة قال : الصبر على ماينوبك ، والصمت حتى تحتاج إلى الكلام .

وقال محمد بن علىّ بن الحسين : كمال المروة الفقهُ فى الدين ، والصبر على النوائب . وحسن تقدير المعيشة .

وقال معاوية لرجل من عبد القيس : ما تعدُّون المروَّة فيكم ؟ قال : العِفّة والحِرْفة .

وقيل لأبى زُهرة : ماالمروة ؟ قال : اصلاحُ الحال ، والرزانةُ فى المجالس ، والغداء والعشاء بالافنية .

وقال عمر بن الخطاب : حسب المرء ماله ، وكرمُه دينه ، وأصله عقله ، ومروَّته خُلقه .

وقال علىّ بن أبى طالب : مروَّة الرجل حيث يضع نفسه .

وقال عبد الله سُمَيْط بن عَجْلان : سمعتُ أيّوب السجستانىّ يقول : لاينبُل الرجل حتى تكون فيه خَصْلتان : العفة عن الناس ، والتجاوز عنهم

وقال مسلمة بن عبد الملك : مروّتان ظاهرتان ، الرياسة والفصاحة

وكان يقال : ثلاثٌ تفسد المروّة ، الالتفاتُ فى الطريق ، والشُّحُّ ، والحِرص

وقال عمر بن هُبيرة : عليكم بمباكَرة الغداء ، فانّ فى مباكرة الغداء ثلاث خلال : يطيّب النّكهة ، ويطفىء المرّة [1] ، ويُعين على المروة ؛

(١) المرة : خلط من أخلاط البدن ، وهو الصفراء أو السوداء . والجمع : مرار .

قيل : وما إعانته على المروة ؟ قال : لا تتوق النَّفس إلى طعام غيره .

وقال سَلم بن قُتيبة : لا تتمّ مروّة الرجل حتى يصبر على مناجاة الشيوخ الدُرد[1]

وسأل ابن زياد رجلا من الدهاقين[2] : ما المروة فيكم ؟ قال : أربع خصال . أن يعتزل الرجل الرّيبة ، فلا يكون فى شيء منها فانه إذا كان مُريبا كان ذليلا ، وأن يُصْلِح ماله ، فانّ مَنْ أفسد ماله لم تكن له مروة ، وأن يقوم لأهله بما يحتاجون إليه حتى يستغنوا به عن غيره ، فان من احتاج أهله إلى الناس لم تكن له مروة ، وأن ينظر فيما يوافقه من الطعام والشراب فيلزمه فانّ المروة ألاّ يخلّط على نفسه فى مطعمه ولا مشربه

وكان يقال : ثلاث من المروّة : تعاهُدُ الرجل إخوانه ، وإصلاحُ معيشته ، وإقالتُه[3] فى منزله

وسئل العتّابىّ عن المروة ، فقال : إخفاء مالا يُستحيي من اظهاره ، ومواطأةُ[4] القلبِ اللّسانَ

ويروى عن عبد الله بن بكر السهمىّ أنّ عبد الملك بن مروان دخل على معاوية ، وعنده عمرو بن العاص فجلس مليًّا ثمّ انصرف . فقال معاوية : ما أكمل مروة هذا الفتى ، وأخلقه أن يبلُغَ . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ان هذا أخذ بخلائق أربع ، وترك ثلاثا ، أخذ بأحسن الحديث اذا حدث ، وبأحسن الاستماع اذا حُدِّث ، وبأيسر المؤونة اذا خولف ، وبأحسن البشر اذا لَقِيَ ؛ وترك مزاح مَنْ لا يُوثَق بعقله ولا دينه ، وترك مخالفة لئام الناس ، وترك من الكلام ما يُعتذر منه

---

(١) الدرد : جمع أدرد وهو من ذهبت أسنانه .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو رئيس الإقليم .

(٣) نومه فى الظهيرة . (٤) المواطأة : الموافقة .

(فهذه) جملةُ شرائع المروة لا يقدر على القيام بأدنى المفترض فيه إلاذوو العقول الفاضلة والآداب الكاملة .

(واعلم) أنّ من المروّة أيضا عشرة خصال ، لا مروّة لمن لم يكن فيه : الحِلْمُ والحياءُ وصدقُ اللّهجة وتَركُ الغيبةوحُسْنُ الخُلُق والعَفْوُ عندالمَقْدرة وبذلُ المعروف وإنجازُ الوعدِ ، وفى تبيينهنّ أخبارٌ تحثّ على استعمالهنّ ، وآثار تدعو إلى المثابرة عليهن ، وأنا ذاكرٌ بعض ذلك إن شاء الله وبه القوّة

١١ — باب ما جاء من فضل الصدق

لذوى ، الآداب وما كُرِهَ من الكذب لذوى الألباب

رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: لا يصلح الكذب فى جدّ ولا هزل

وقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : إذا كذب العبدُ تباعد الملك منه ميلا لِنَتْنِ ما جاء منه

وقال : لسان الصديق خير للمرء من المال يأكله ويورثه

وقال المهلّب بن أبى صفرة : ما السيف الصارم فى يد الرجل الشجاع بأَعَزّ له من الصدق

وكان يقال : الصدق قوة ، والكذب عجز أنشدنى بعض الأدباء :

لا يَكْذِبُ المرءُ إلّا من مَهانَتِهِ أو عادة السوء أو مِنْ قِلّة الأَدَبِ
لَجيفةُ الكلب عندى خيرُ رائحةٍ من كَذْبةِ المرءِ فى جدٍّ وفى لَعِبِ

وكان يقال لا رأىَ لكذوب ، ولا مروّةَ لكذّاب

ويقال : لا تستعِنْ بكذّاب ، فإنه يقرّب لك البعيد ، ويباعدلك القريب .

وأنشدنى آخر :

وكُنْ صادِقًا فى كلّ شىء تقولُهُ ولا تكَ كذّابا فتُدْعَى مُنافِقا

وقال آخر :

الكذب عارٌ وخيرُ القول أصْدَقه ... والحقُّ ماسّهُ من باطل زَهَقَا[1]

وأنشدني غيره :

الصِّدْق مَنْجَاةٌ لِمَنْ هُوَ صادِقٌ ... وتَرَى الكَذُوبَ بما يقولُ يُوَبَّخُ

وقال أبو العتاهية :

كُنْ في أُمورِكَ سَاكِنًا ... فالمرءُ يُدْرَكُ في سُكُونِهْ

واعْمِدْ إلى صِدْقِ الحدِيثِ ... فإنَّه أزْكَى فُنُونِهْ

رُبَّ امرئٍ متيقِّنٍ ... غَلَبَ الشَّقاءُ على يقينِهْ

وحدَّثني بعض شيوخ الكتاب ، قال : حدثني عليّ بن هشام قال : قال لي محمد بن الجهم ذات يوم : يا أبا الحسن : الكذّاب والمَوات بمنزلة واحدة ، قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّ علامة الحيّ النطقُ ، ومن لم يوثق بنطقه بطلت حياتُه .

والذي جاء في ذلك يطول شرحه ، ويكثر وصفه ، والكلام فيه يتسع ، وأنا أُفرِدُ لهذا الباب كتابا ، وأرصُفُه أبوابا ، أبيِّن فيه فضل الصدق على الكذب ، ليُرْغَب فيه ذوو المروّة والأدب ، إن شاء الله تعالى

وأمّا ما جاء في انجاز العِدات عن ذوي الاخطار والمروّات ، فكثير يكثر عددُه ويطول أمده ، وقد شرحتُ لك بعض ذلك لتقف عليه إن شاء الله تعالى

---

(١) أزهق الباطل : لاشاه وأبطله .

١٢ — باب ما جاء فى قبح خلف المواعيد
وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد

إعلم أنّ أقبح ما استعمله أهل الأدب مطلُ العدات

وقال المثنى بن خارجة : لأن أموت عطشا أحبّ إلىّ من أن أخلف موعدا

ورُوينا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث علامات فى المنافق ، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : إذا حدّث كذب ، وإذا أُتمِن خان ، وإذا وعد أخلف

ورُوى عنه أنه قال : عِدة المؤمن أَخْذٌ بالكفّ

وقال بعض الأعراب : وعدُ الكريم تعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتسويف

وكان يقال اليأسُ أحد الراحتَين ، وأنشدنى يعقوب بن يزيد التمّار :

متى ما أَقُلْ يوماً لطالب حاجةٍ: نَعَمْ يافتى،أفعلْ،وذلك من شَكْلى
وإن قلت: لا، بيَّنتُها من مكانها ولم أُوذِهِ فيها بجَرٍّ ولا مَطْلِ

وأنشدنى آخر :

إذا قلتَ فى شىءٍ نعم فأَتِمّهُ فإن نعمْ دَيْنٌ على الحُرِّ واجِبُ
وإلّا فقُلْ لَا واسترِحْ وأرِحْ بها لِكَيلَا لا يَقُولَ النَّاسُ إنّك كاذِبُ

وأنشدنى آخر :

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ أن يَتِمَّ الوعدُ فى شَىْءٍ نَعَمْ
وإذا قلتَ نعمْ فامْضِ بها بنَجاح الوعْدِ إن الخلف ذَمْ

وأنشدنى ابراهيم بن محمد النحوىّ :

أنت الفتى كلّ الفتى لو كنتَ تفعل ما تَقُولْ
لا خيرَ فى كَذِبِ الجَوَا دِ وحَبَّذا صدقُ البَخِيلْ

وكان يقال : اعتذارٌ مِن منع أجمل من وعدٍ ممطول .

وقال علي بن هشام : أمرني المأمون بحاجة فأخرتُها ، فكتب إليّ :

تعجيلُ جودِ المرءِ أُكرُومَةٌ تَنْشُرُ عنه أحسَنَ الذِّكْرِ[1]
والحُرُّ لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحُرِّ

وكان يقال : المعروف يحتاج الى ثلاث : تعجيله ، وكتمانه ، وإتمامه .

وأنشدنا ليزيد بن جَبَلٍ :

يا صانِعَ المعروفِ كُنْ تاركًا تَرْدادَ ذِي الحاجة في حاجتِهْ
فشَرُّ معروفِك ممطولُهُ وخَيْرُه ما كان مِنْ ساعَتِهْ
لكل شيءٍ يُرْتَجَى آفَةٌ وَحَسْبُك المعروفُ من آفَتِهْ

وقال آخر :

صِلْ مَنْ أردتَ وِصَالَهُ وإخاءَه إن الأخوّة خيرُها موصولُها
وإذا ضَمِنْتَ لصاحبٍ لك حاجةً فاعْلَمْ بأنْ تمامَها تعجيلُها

وقال آخر :

لا تَنْشُرَنْ مواعيدًا وتَنْقُدُها الى المطال فما يرضَى به الأدبُ
لا تَطْلُبَنْ بِمَنْعِ المالِ مَحْمَدَةً إن المحامدَ بالأموالِ تُكْتَسَبُ

وكان يقال : لكلّ شيء آفةٌ ، وآفةُ المعروف المطل .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : لكلّ شيء رأسٌ ، ورأس المعروف تعجيله .

وفي وصيّة عبد الملك بن مروان لبنيه : يا بَنيَّ ، لا تَعِدوا الناس بما لا تناله أيديكم .

---

(١) الأكرومة : فعل الكرم .

ويقال إذا وعدتَ الرجل نائلا ثم مطلته به فقد أوفاك ثمنَ معروفك عنده .

وأنشدونا لدِعْبل بن علىّ الخزاعىّ :

إيّاك والمَطْلَ أنْ تُفارِقَهُ فانّه آفةٌ لكلّ يَدِ
اذا مطلتَ امرءًا بحاجتِهِ فامْض على مطله ولا تَجُدِ
فلستَ تلقاه شاكراً لِيَدِ قد كَدَّهَا المطلُ آخرَ الأَبَدِ[1]

وللفُقَيْمىّ أيضا فى مثله :

ما كَلَّفَ اللهُ نفساً فوق طاقتها ولا تجودُ يَدٌ إلّا بما تَجِدُ
فلا تَعِدْ عِدةً إلّا وَفَيْتَ بها ولا تكونَنْ مُخْلِفًا لما تَعِدُ

ولدِعْبل أيضا فى مثله :

وأرى النَّوالَ يَزِينُه تعجيلُهُ والمطلُ آفةُ نائلِ الوَهّابِ

وكان يقال : بذل جاه السائل ثمنُ معروف المسائل .

وقال أكثم بن صيفى : السؤال، وإن قلّ، ثمنٌ لكلّ معروف ، وإن جلّ .

أنشدنى محمد بن ابراهيم الهَمْدانىّ لعلى بن ثابت الكاتب :

ما اعتاض باذِلُ وجْهِهِ بسؤالِهِ بذلاً ولَوْ نال الْغِنَى بِسُؤالِ
وإذا السُّؤالُ مع النوال وَزَنْتَهُ رَجَحَ السُّؤالُ وخفّ كلُّ نَوالِ

وقال بعض الحكماء : أَحْيِ معروفك بإماتةِ ذكره ، وعظّمْه بتصغيرك له .

أنشدنى أبو العباس ثعلب لأبى يعقوب الخريمىّ :

زادَ معروفَكَ عندى عِظماً أنه عندك مستورٌ حَقيرُ
وتَناساهُ كأنْ لَمْ تَأْتِهِ وَهْوَ عند الناس مشهورٌ كَبيرُ

---

(١) كد : ألح فى الطلب .

وقال عديّ بن حاتم : لا يصلح المعروف إلّا بثلاث : تعجيله وكتمانه وتصغيره ، لأنك اذا عجّلتَه هنَّيته، وإذا كتمته استهنَـتَه، واذاصغّرته عظّمته .

وشَرحُ كلْ ما جاء فى ذلك يطول ، والاختصار أحسن من الاكثار ، وقدذكرتُ معنى هذا الباب مع مايلائمه من الاخبار فى كتاب لطيف التأليف والاختصار ، هو كتاب البثّ والحثّ، غنيا بما فيه عن الزيادة ، وعن التطويل والاعادة ، ونحن نَتبع هذا الباب بما ضَمنّاه على الحثّ على كتمان السر ، ليرغب فيه ذوو الأدب و القدرة ان شاء الله تعالى .

١٣ — باب الحثّ على كتمان السر
والترغيب فى حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : استعينوا على حوائجكم بكتمان السرّ .

وكان يقال : سِرُّك من دمك ، فانظر أين تجعله .

وكان يقال : ما كتمته من عدوّك فلا تُطلع عليه صديقك .

وقال المهلب بن أبى صفرة : من ضاق قَلْبه اتسع لسانه .

وأنشدنى أحمد بن يحيي لقيس بن الحَدَادية الخزاعىّ :

بَكَتْ من حديثٍ بَثَّه وأشاعَهُ وَلصَّقَهُ وَاشٍ مِنَ القوم رَاضِعُ[1]

بَكَتْ عَيْنُ من أبكاكِ لا يَشْجِك البُكَا ولا تَتَخَالجْكِ الأمورُ النَّوازِعُ[2]

ولا تُسْمِعِى سِرّى وسِرَّكِ ثَالِثًا أَلا كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ اثْنَيْنِ ضَائِعُ

وأنشدنى لبعض الطالبيّين :

---

(١) الراضع : اللئيم

(٢) شجاه : أحزنه ، وهيجه . خالجه الأمر . شغل فكره .

أكافى خليلى ما استقامَ بودِّهِ ... وأمنحُـــهُ وُدّى إذا يتعتَّب
ولستُ ببادى صاحبى بقَطيعةٍ ... ولا أنا مُفشى سِرِّه حين أغضَب[1]
عليك بإخوانِ الثِّقات فإنَّهم ... قليلٌ فصِلهُم دون مَن كنتَ تَصْحَبُ
وَمَا الخِدْنُ إلّا مَن صَفَا لك ودُّهُ ... وَمَنْ هو ذو نُصحٍ وَأنت مُغيَّبُ
اذا ما وضعتَ السرَّ عند مضيِّعٍ ... فذو السرِّ ممَّن ضيَّعَ السرَّ أذنبَ

وقال معاوية بن أبى سفيان : الحازم مَنْ كتم سرَّه من صديقه مخافةَ أن تَبَدّل صداقتُه عداوةً فيُذِيعَ سرَّه .

وقال بعض الشعراء :

تواقف معشوقَين مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ ... وَغُيِّبَ عن نجواهما كلُّ كاشِحٍ[2]
وكانَتْ جفونُ الماء عن حَمْل مائها ... فما ملكتْ فَيْضَ الدموعِ السوافحِ
وإنّى لأَطْوِى السرَّ عن كلِّ صاحب ... وَإن كان للأسرارِ عِدلَ الجوانحِ

وكتب عبد الملك بن مروان ببعض سرّه إلى الحجاج بن يوسف ، ففشا ، حتى بلغه ذلك ، فكتب إليه عبد الملك يعاتبه ، فكتب إليه : والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت به إلاّ إنسانا واحداً ، فكتب إليه عبد الملك : إنّ لكلّ إنسان نصيحا يفشى إليه سرَّه

وقال بعض الشعراء فى ذلك :

ألمْ تَرَ أنّ وُشَاةَ الرجا ... لِ لا يتركون أديمًا صَحِيحَا
فلا تُفْشِ سرَّك إلاّ إليك ... فإنَّ لكلِّ نصيح نَصِيحَا

وقال آخر :

---

(١) القطيعة : الهجران

(٢) الكاشح : العدو الباطن العداوة

إذا أنت لم تَحفَظْ لنفسك سِرَّها ... فَسِرُّك عند الناس أفشى وأضيَعُ

وقال آخر :

أَمِتِ السِّرَّ بكتمانٍ ولا ... يَبْدُوَنْ منك إذا استُودِعتَ سِرّ

فاذا ضِقتَ به ذَرْعًا فلا ... تجعلنْ سرَّك إلا عند حُرّ

وقيل لأعرابى استُودِعَ سرًّا فكتمه : أفهِمتَ ؟ قال : لا ، بل نسيتُ

وأخبرنى أحمد بن عبيد ، قال : أخبرنى ابن الأعرابى ، قال : قيل لأعرابى : كيف كتمانك السرّ ؟ فقال : أجحدُ المُخبِر، وأحلِف للمستخبر

وقيل لأعرابى : كيف حِفظُك للسرّ ؟ فقال : انا لَحْدُه

ومما استحسنته فى كتمان السرّ قول كُثيِّر :

أَبَى دون ما تخشَوْنَ من بثّ سرّكم ... أخو ثِقةٍ سهل الخلائق أرْوَعُ (١)

ضنينٌ ببذل السرّ سَمحٌ بغيره ... أخو ثقة عَفُّ الوِصال سَمَيْدَعُ (٢)

أبَى أن يبثَّ الدهرَ ماعاش سِرَّكم ... سَليمًا وما دامت له الشمس تطلعُ

وله أيضا :

كريمٌ يُميت السر حتى كأنّه ... إذا استنطقوه عن حديثك جاهِلُهْ

رَعَى سرَّكم فى مُضمَر القلب والحشَا ... شفيقٌ عليكم لا تخاف غوائِلُهْ (٣)

وأكتُمُ نفسى بعض سِرّى تكرُّمًا ... إذا ما أضاعَ السرَّ فى الناس حامِلُهْ

وقول صاحبه أيضا :

لعمرِىَ ما استودَعتُ سِرّى وسرَّها ... سِوانا حِذارًا أن تَشِيعَ السّرائرُ

ولا خاطبتْها مُقلتاىَ بنظرة ... فتَعلَمَ نجوانا العيونُ النَّواظِرُ

---

(١) الأروع : من يعجبك بحسنه أو شجاعة ، الشهم الذكى

(٢) السميدع : السيد الكريم الشريف ، الشجاع

(٣) رعى الأمر : حفظه . الغوائل : جمع غائل : الشر

وَلَكِنْ جعلتُ اللَّحظَ بيني وبينها رسولاً فأدَّى ما تجنُّ الضَّمائرُ

ومنه قول الآخر :

ليَهْنِك منِّى أننى غيرُ مُظْهِرٍ هواكِ ولو أشرفتُ منه على نَحبي

ولو أنَّ خلقاً كاتمَ الحبَّ قلبهَ لُمتُ ولم يَعلمْ بحُبِّكُمُ قلبي

وقال آخر :

لو ان امرأً أخفَى الهوى عن ضميره لمتُّ ولم يَعْلَمْ بذاك ضميرُ

ولكن سألقَى اللهَ والقلبُ لم يَبُحْ بسرِّك والواشون عنك كثيرُ

وقال العبّاس بن الأحنف :

أيا مَن سروري به شِقوةٌ ومَنْ صَفْوُ عيشي به أكْدَرُ

تجنَّيْتَ تَطلب ما أستحقُّ به الهَجْرَ هيهاتَ لا يُقْدَرُ

وماذا يضُرُّكَ من شُهرَتي إذا كان سرُّك لا يُشْهَرُ

أمنِّي يُخاف انتشارُ الحديثِ وحَظِّيَ في صَوْنه أكْثَرُ

ولو لم يكنْ فيه بُقْيَا عليك نظرتُ لنفسي كما تَنْظُرُ

وأنشدني لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ومؤتمنٍ بالحزم في كل أمرهِ وأسرارُه منه بحيث المقاتلُ

فلا سرُّه عن ساحة الصدرِ نازحٌ ولا هُوَ عن سرٍّ تعدَّاهُ سائلُ (١)

ولغيره في مثله :

فَلَنَقْلُ الجبالِ أهْوَنُ مِنْ بَثِّ حديث حَنَتْ عليه الضُّلوعُ (٢)

فلك الله أنَّني لكَ راعٍ ما بدا كوكبٌ وَبَرْقٌ لَمُوعُ

---

(١) الساحة : الناحية . النازح : البعيد جدا . (٢) بث : أذاع ، نشر

وأنشدنى أحمد بن عبد الله ، قال أنشدنى ابن الكلبى لابن أمية :

وإنّى على السرّ الذى هُوَ داخِلٌ … إذا باح أصحابُ الهوَى لَضَمُومُ
وإنّىَ ما استَوْدَعْتِ يا أُمّ مالكٍ … على قِدَمٍ مِنْ عَهدِنا لَكَتُومُ

وقال أبو الطيب : الضّموم : المُمسك ، وكذلك الزِّميت أيضا .

وقال آخر :

وحاجةٍ دون أخرَى قد شَجِيتُ بها … خلفتُها لِلّذِى أخفَيْتُ عُنوَانَا
إنى كأنى أرى مَنْ لا حَياءَ لهُ … ولا أمانةَ وَسْطَ النّاس عُرْيَانَا

وأنشدنى أحمد بن يحيى بن الحطيم :

وإن ضيّع الأحرارُ سِرًّا فإنّنى … كَتُومٌ لأسرار العشير أمِينُ
يكون له عندى إذا ما ضَمِنْتُهُ … مكانٌ بسوداءِ الفؤادِ مَكِينُ

وقال بشّار بن بُرْد المرعَّث :

أَبكِى الذين أذاقونى مودّتَهُمْ … حتى إذا أيقظونى فى الهوى رَقَدُوا
لأخرجنَّ من الدُّنيا وسِرُّهُمُ … بين الجوانحِ لم يَعلَمْ بِهِ أحَدُ

وأحسن والله الذى يقول :

يأبَى لِىَ الذمَّ أخلاقٌ ومَكرُمَةٌ … منّى وأُذْنٌ عنِ الفحشاء صَمّاءُ
والنّجمُ أقرَبُ من سرّى إذا اشتَمَلَتْ … منّى على السرّ أضلاعٌ وأحشاءُ

والذى قيل فى ذلك كثير جدا ، تطول به الخُطب ، ويتّسع فيه القول ، وليس قصدنا فى كتابنا هذا المعنى ، وإنما تقدمنا بذكر ما شرحناه ، ونعتِ ما وصفناه ، لأنّه لابدّ للظريف من استعمال كل ما ذكرناه من حدود الأدب وشرائع المروّة .

واعلم أنّ مذهبنا فى هذا الكتاب إلى معنى صفة الظرف ، وما يجب على

الظريف استعماله ، وذكر ما يجب تركه ، وما اخترعنا فى كتابنا هـذا علماً من عند أنفسنا ، يجب لنا به الامتحان ، ولا يلحقنا فيه عَيْبُ مَن عاب إن عاب ، ولا على انه لا يَطلب لفظَه ، ولا يُمتنع عند معايبهم إلّا مَعيب .

وأنشدنى أحمد بن يحيى قال : أنشدنى ابن السكّيت :

رُبَّ غريبٍ ناصحِ الجَيْبِ وابنِ أبٍ متَّهـمِ الغَيْبِ[1]

وَرُبَّ عيّـابٍ له منظرٌ مشتمِلٌ منـه على العَيْبِ

ولكنّا ألّفناه وجمعناه من أقاويل جماعة من الظرفاء والمتظرفات ، وأهل الأدب والمروات، سمعناهم ورأيناهم يتكلمون به ويستعملونه ، فأحببنا أن نجمع ذلك ونجعله لهوًا لمن أراد سماعه ، وعلماً لمن أراد اتّباعه ، وهَدْيًا لمن أراد رُشده ، ومناراً لمن أراد قصده ، وطِيباً لمن أراد شمّه ، وأدبًا لمن أراد فهمه .

وكتابنا هذا روضة تتنزّه فيها العقول ، وعقود جُوهر زينتها الفصول ، اذ لم نخله من أخبار طريفة ، وأشعار ظريفة . وأشـياءٍ نمتْ الينا من زى ظرفاء الناس ، فى الطعام والشراب والعطر واللباس ، ومذهبهم فيما اجتنبوه من ذميم الأفعال ، واستحسنوه من جميل الشِّيَم والأخلاق ، وسأشرح ذلك وأُبيّنه بابًا بابًا ، لتقف عليه إن شاء الله .

١٤ — باب سنن الظرف

اعلم أنّ عماد الظرف عند الظّرفاء ، وأهل المعرفة والأدباء : حفظُ الجوار ، والوفاءُ بالذمار ، والأنفةُ من العـار ، وطلبُ السلامة من الأوزار ؛ ولن يكون الظريف ظريفا حتى تجتمع فيـه خصال أربع : الفصاحةُ والبلاغةُ ، والعفـة والنزاهة .

---

(١) الجيب : القلب والصدر ، يقال : ناصح الجيب ، أى صادق أمين

وسألت بعض الظرفاء عن الظرف : فقال : التودُّدُ الى الاخوان ، وكفُّ الأذى عن الجيران .

وقال آخر : الظّرف ظَلَفُ[1] النفس ، وسخاءُ الكفِّ ، وعفّةُ الفرج .

وأخبرني أحمد بن عُبيد ، قال : قال الأصمعي ، وابن الأعرابي : لا يكون الظّرف إلّا في اللّسان ، يقال : فلان ظريف ، أي هو بليغ جيّدُ المنطق ، ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا كان اللّصُّ ظريفا لم يقطَعْ ، أي لأنه يكون له لسان فيحتج به فيدفع عن نفسه .

قال وروى عن محمد بن سيرين أنه قال : الظرف مشتق من الفطنة .

وقال غيره : الظرفُ حُسْن الوجه والهيئة .

وقال بعض المشيخة : الظّريفُ الذي قد تأدب وأخذ من كل العلوم فصار وعاءً لها ، فهو ظرف .

وقال أحمد بن عُبيد معنـاه : أنه يعى أدبا وعلماً ، كما يعى ظرف الشيء مايكون فيه ، ولذلك معنى : اذا كان اللّصّ ظريفا لم يقطَعْ ، إذا كان واعيا للعلم لم يسرق إلا بتأول ، كما فعل الشعبي وقد دخل بيت المال فأخذ منه دراهم ، وَإنما أراد به التأول لما له فيه من الحق .

وسألت بعض متظرفات القصور عن الظرف ، فقالت : من كان فصيحا عفيفاً ، كان عندنا متكاملا ظريفاً ، ومن كان غنيا عاهرا ، كان ناقصا فاجرا .

وقال بعض الأدباء : الظرف ظَلَفُ النفس ، ورقّةُ الطبع ، وصدقَ اللّهجة ، وكتمانُ السرِّ .

وسألت بعض الظرفاء فقال : الظرف في أربع خصال : الحياء والكَرَم ، والعِفّة والوَرَع .

---

(١) ظلف نفسه عن الشيء : كف عنه

وأنشدنى أبو عبد الله الواسطى لنفسه فى هذا المعنى :

ليس الظريفُ بكاملٍ فى ظرفهِ حتّى يكون عن الحرامِ عفيفا
فاذا تورَّع عن محَارِمِ رَبه فهناكَ يدعوهُ الأنامُ ظريفا

ومثله لبعض المتأدبين :

إنْ أكُن طَامحَ اللّحاظ فانّى والّذى يَمْلِكُ العِبادَ عَفيفُ
ليس ظَرفُ الظريف بالنفس لكنْ كلُّ ذى عِفةٍ فذاكَ ظريف

وخبِّرتُ أنّ عبد الملك بن مروان وجد على بعض عماله فقيّده وحبسه فى داره ، فأشرفت عليه ابنة لعبد الملك ، فنظر اليها ، فأنشأت تقول :

أيها الرَّامِىُ بالطَّرْ فِ وفى الطرف الحُتُوف[1]
إنْ تُرِدْ وصْلَا فقَدْ أمْ كَنَكَ الظّبْىُ الألوفُ

فأجابها الفتى فقال :

إنْ تَرَيْنِى زَانِىَ العَيْ نَيْنِ فالفرج عفيفُ
ليس إلّا النظَرُ الفا تنُ وَالشّعْرُ الظريف

فأجابته الجارية :

قَدْ أردناكَ على أنْ تَعْتَنِقْ ظَبْيًا ألوفا
فتَأبَيْتَ فَلَا زِلْ تَ لقَيْدَيْكَ حَليفا

فذاع الشعر ، وبلغ عبد الملك ، فدعا به فزوجه اياها ، ودفعها اليه واجتاز عبد الله بن عبد الرحمن ، الذى كان يُعرف بالقَسّ لعبادته ،

(١) الحتوف : جمع حتف ، وهو الموت ، يقال : مات حتف أنفه ، أو حتف فيه، أى مات غير قتل ولاضرب، بل على فراشه

بسَلَّامة المغنية، التي صارت إلى يزيد بن عبد الملك، فسمعها وهي تُغَنِّي، فوقف يستمع غناءها، فأدخله مولاها عليها، فوقعت في قلبه ووقع بقلبها، فقالت له يوما، وقد خلا مجلسُهما: أنا والله أحبّك، فقال: وأنا والله أحبُّكِ، قالت، فأنا والله أشتهي أن أضع فمي على فمك، وألصق صدري بصدرك، وأضمَّك إليّ وتضمّني إليك؛ قال: وأنا أشتهي ذلك، قالت: فما يمنعك من ذلك؛ فوالله ان الموضع لخال وما بقربنا أحد؛ فقال: ويحكِ، إني سمعتُ الله يقول: (الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المُتَّقِينَ)، فأنا أكره أن تكون خلّتي لك في الدنيا منقطعةً في الآخرة، ثمَّ وثب فانصرف.

وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام جارية تدخل وتخرج، وكان له مؤذِّن شاب، فكان إذا نظر اليها قال لها: أنا والله أحبك؛ فلما طال ذلك عليها أتت عليا عليه السلام فأخبرته، فقال لها إذا قال لك ذلك: فقولي: أنا والله أحبك فمه[1]، فأعاد عليها الفتى قوله، فقالت له: وأنا والله أحبّك فمهْ، فقال: تصبرين ونصبر حتى يوفِّينا من يوفِّي[2] الصابرين أجْرَهم بغير حِساب، فأعلمت علياً عليه السلام، فدعا به فزوَّجه منها؛ ودفعها اليه.

وأنشدني عبد الله الواسطي لنفسه في هذا المعنى:

كم قد ظَفِرْت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوفُ الله والحَذَرُ

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتَّحديث والنَّظرُ

أهوى المِلَاحَ وأهوى أنْ أجالسَهمْ ... وليس لي في حرامٍ منهمُ وطرُ[3]

كذلك الحبُّ لا إتيان مَعصِيَةٍ ... لا خَيْرَ في لَذةٍ مِنْ بعدها سَقَرُ[4]

---

(١) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى انكفف

(٢) وفى الرجل حقه: أعطاه إياه تاما

(٣) الوطر: الحاجة والبغية

(٤) سقر: علم لجهنم. والكلمة ممنوعة من الصرف

ومثل ذلك قول الآخر :

تَفنَى اللَّذاذة مِمَّن نال صفوَتَها ... من الحرام ويبقى الأثم والعارُ

تبقى عواقب سَوْءٍ من مغَبَّتها ... لا خَيْر فى لَذَّةٍ من بعدها النارُ

ومما أستحسنُه فى العِفة أيضا : ماأنشدنيه أحمـــد بن يحيى ثعلب لبعض نساء العرب :

وبِتْنَا خِلافَ الحىِّ لانحن منهمُ ... ولا نحن بالأعــداء مُختلطانِ

وبِتْنَا يَقِينا ساقِطَ الطَّلِّ والنَّدى ... مِن اللَّيل بُرْدَا يُمْنَةٍ عَطِرَانِ

نَذود بذِكْرِ الله عنَّا مِنَ الصِّبى ... إذا كاد قَلْبانا بنا يَرِدانِ

ونَصْدُرُعن رِىِّ العفاف وربما ... نَقَعْنا غليلَ النفس بالرشَفانِ

وأنشدنى حمدأبن يحيى بن ثعلب :

أحبُّك لامن ريبةٍ كان بيننـا ... ولا نَسَبٍ بينى وبينك شابكِ

أحبُّكِ إنْ خُبِّرْتُ أنكِ فارِكٌ ... لعَـمْرِىَ انى مُولَعٌ بالفوارِكِ

أحب فتاةً أن تُشاغِبَ زوجَها ... وإنْ لم أنلْ مِن وصلها غيرَ ذلكِ

قال أبو الطيب : الفارك : المبْغضة لزوجها ، يقال : قدفَرِكَتْ المرأة زوجَها تَفْـرُكُهُ اذا أبغضته ، وهى فارِكٌ ، والرجل مَفْروكٌ .

ومثله قول الُحسَيْن بن مُطَيْر :

أحبُّك يا سَلْمَى على غير رِيبَـةٍ ... وما خَيْر حُبٍّ لا تَعِفُّ سَرَائِرُهْ

ومنه أيضا قول الآخر :

أتأذنونَ لِصَبٍّ فى زيارتِكُمْ ... فعندكم شَهَوَات السمع والبصَرِ

لا يَفعل السُّوء إن طال الجلوس به ... عَفّ الضمير ولكن فاسِق النَّظَرِ

وقال محمود الوراق :

إنِّى أحبك حُبًّا لا لفاحِشَةٍ　　والحبُّ ليس به فى الله من بَاسِ[1]

وأنشدنى بعض الأدباء ، قال أنشدنى أعرابى ببلاد نجد :

ويَوْمٍ كإِبهام الْحُبارَى قطعتُه　　بِقَمْعَةٍ والقوم فيهِمْ تحرُّق

اذا ما هممنا صدّ زِىٌّ نفوسِنا　　كما صدَّ عن بعد التهمّم يوسُفُ

قال أبو الطيب قوله : كإِبهام الحبارى : يريد نهاية ما يكون من القصر .

وأنشدنى آخر :

ما الحبُّ إلّا قُبَلٌ　　وغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ

أوْ كتُبٌ فيها رُقًى　　أنفَذُ مِن نَفْثِ العُقَدْ[2]

ما الحبُّ إلّا هكذا　　إنْ نُكِحَ الحبُّ فَسَدْ

مَن لم يكن ذا عِفَّةٍ　　فإنّما يبغى الوَلَدْ

ومن ذلك قول بُثينة لجميل ، وقد قال لها : هل لك يا بثينة أن نحقق قول الناس فينا ؟ فقالت له : مَهْ ، دَعْ حبَّنا مكانه ، إن الحب اذا نكح فسد .

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : والله يا بثينة ما أرى فيك شيئا مما كان يقول جميل ! قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه كان يرنو إلىّ بعينين ليستا فى رأسك ، قال : وكيف صادفتيه فى عفته ؟ قالت : كما وصف نفسه ، حيث يقول :

لا والذى تَسْجدُ الجباه له　　مالى بما دون ثوبها خَبَرُ

ولا بفيها ولا هَمَمْت به　　ما كان إلا الحديثُ والنَّظَرُ

---

(١) البأس : الحرج　　(٢) نفث فلانا : سحره

وقيل لأعرابى : هل زنيتَ قط . قال معاذ الله انما هما اثنتان : إمّا حرة آنفُ لها من فسادها ، وإمّا أمة آنف لنفسى من فسادى اياها .

وروى عن ابن سهل بن سعد الشاعر قال : دخلتُ على جميل بن معمر العُذرىّ وهو عليل ، وإنى لأرى آثار الموت على وجهه ، فقال : ياابن سهل أتقول إنَّ رجلا يلقى الله لم يسفك دما حراما ، ولم يشرب خمرا ، ولم يأت بفاحشة ، أترجو له الجنة ؟ قلت : أى والله ، فمن هو ؟ قال : إنى لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل ، قلت : بعد زيارتك بثينة وما تُحُدِّث به عنكما ؟ فقال : والله إنى لفى آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة ولا نالتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ان كنتُ حدّثت نفسى فيها بريبة [1] قطّ ، قال : فما انقضى يومه حتّى مات .

وقال الأصمعى : كان عمر بن أبى ربيعة وابن أبى عتيق جالسَين بفناء الكعبة ، فمرت بهما امرأة من ربيعة . وقيل من آل أبى سفيان ، فدعا عمر بكَتِفٍ فكتب فيها :

ألِمَّا بذات الخال فاستطلعا لنا ... على العهد باقٍ ودُّها أمْ تَصرَّما [2]

وقولا لها إن النوَى أجْنَبِيَّةٌ ... بنا وبكم قد خِفْت أن تَتَتَمَّما [3]

فقال له ابن أبى عتيق : ما تريد الى امرأة مسْلِمةٍ محرمة تكتب اليها بمثل هذا ؟ فقال : أتُرَى ما سيَّرت فى النَّاس من الشعر ، وربِّ هذه البنيةِ ماقبلَ منها وما دَبرَ ما قوَّلت امرأةً قط ما لم تقله ، ولا طالعت فرج حرامٍ قط

وقيل لكثيرعَزَّةَ : هل نلتَ من عَزَّة شيئًا طول مدَّتك ؟ فقال : لا والله

(١) الريبة . الشك والتهمة (٢) العهد : الوفاء . تصرم : تقطع وانقطع

(٣) النوى : البعد . أجنبية : بعيدة شاقة . تتتما : يصير هواها تيميا

الا أنه ربما كان يشتد بي الأمر فآخذ يدها فأضعها على جبيني . فأجد لذلك راحة .

وقال أعرابي ، وخلا بامرأة كان يتعشقها : مازال القمر يُرينيها فلما غاب أرتنيه . قيل : فما كان بينكما؟ قال : أقصى ما أحل الله وأدنى ما حرم الله عز وجل ، اشارةٌ في غير باس ، ودنو في غير مِساس ، وأنشأ يقول :

ولَربَّ لَذةِ ليلةٍ قد نِلتُها   وحرامها بحلالها مدفوع

قال اعرابي من فزارة : عشقت جارية من الحي ، فادتها سنين كثيرة . والله ما حدّثت نفسي بريبة قط ، سوى أن خلوت بها فرأيت بياض كفها في سواد الليل ، فوضعت كفي على كفها ، فقالت : مَه ، لا تفسِد ما صلح . فارفضّ [1] جبيني عَرَقًا ولم أعُدْ .

(واعلم) أن الظرف ليس بمستَغنَى عنه ، ولا هو مما يُخَلّ منه ، ولا يُعفّ فيه صاحبه ، ولا يفنّد عليه طالبُه ، بل هو أنبل ما استعمله العلماء ، وصبا اليه الأدباء ، وتزينوا به عند أودائهم [2] ، وتحلّوا به عند أخلائهم [3] وربّما تكلّفه قوم ليس من أهله فظرف ، وعاناه فلطف ، وأنه من المطبوعين أحسن منه من المتكلّفين ، وللمتكلف علامات تظهر في حركاته ، وتبين في لحظاته ، لا يسترها بتصنعه ، ولا تتغيب بتستره ، وان المطبوع على الظّرف ليَشهَدُ له القلب عند معاينته بحلاوته ، وتَسكن النفس عند لقائه الى مجالسته ، وتصبو الى محادثته ، وترتاح الى مشاهدته ، وهو بيّنٌ في شمائله [4] ظاهرٌ في خلائقه [5]

---

(١) ارفض : سال وترشش .
(٢) الأوداء : جمع الوديد وهو المحب
(٣) الأخلاء : جمع الخليل وهو الصديق المختص
(٤) الشمائل : جمع الشمال والشميلة . أى الطبع
(٥) الخلائق : جمع الخليقة وهى الطبيعة

بيّن فى منطقه . غيرُ مستترٍ عند صمته ، دلائله واضحة فى مشيته وزيه ولفظه، يُستدل عليه بظاهر حركة الملاحة دون اختبار باطن الحلاوة ، ألا ترى أن من زيهم التقزز والنظافة والملاحة واللطافة واظهار البزة وطيب الرائحه ، فالنفوس اليهم تائقة[١] ، والقلوب وامقة[٢] ، والعيون رامقة[٣] ، والأرواح عاشقة ، وان من زيهم الوقار والخشوع ، والسكون والخضوع ، والتصنع بالأخلاق الوضية ، والشيم السنية ، والمذاهب الجميلة ، والهمم الجليلة ، ومما يُستدل به على كمال أدبهم ، ويعرف به رجحان هممهم : كثرة استعمالهم الهوى ، وطول معاناتهم الجوى[٤] ، وهو من أحسن مذاهبهم ، وأجل مناقبهم ، ولسنا نقول إن الهوى ليس بفرض على ذوى العقل ، كما قال ذو التقصير والجهل ، بل هو من أوكدِ الفرض عليهم ، وأثبتِ الحجة للمتفرس الناظر اليهم على حُسْنِ تركيب الطباع والغرائز ، وصفاء جواهر الهمم والنحائز[٥] إذ هو عند ذوى العلوم والأحكام ، من أجمل مذاهب الأدباء والكرام ، وقال محمود الوراق فى ذلك ، إذ كان الحب عنده كذلك :

ألم تعلمْ فــداك أبى وأُمى ... بأَن الحبَّ من شِيَمِ الْكرامِ

وليس يخلو أديب من هوًى ، ولا يعرى من ضَنًى ، لأن الهوى كما وصفته العلماء ، وكما قال فيه الحكماء : إنه هو أول باب تفتق به الأذهان ، وينفسح به الجَنان ، وله سَوْرة[٦] فى القلب ، يحيا بها اللبّ ، وقد يُشجع الجبانَ ويسخّى البخيل ، ويطلق لسانَ العى ، ويقوى حزم العاجز ، ليأنس به

(١) تائقة : مشتاقة (٢) وامقة : محبة
(٣) رمقه : أطال النظر إليه
(٤) الجوى : شدة الوجد من حزن أو عشق
(٥) النحائز : جمع النحيزة أى الطبيعة ، يقال : فلان كريم النحيزة
(٦) السورة : الحدة والشدة

الجليس، و يمتنع به الأنيس ، ويذلّ له العزيزُ ، ويَخضع له المتجبّر ، ويَبرز له كلّ محتجب ، وينقاد له كل ممتنع ، وهو أمير مطاع ، وقائد متَّبَع ، وليس بأديب عندهم من خرج من حد الهوى ، وقد قال الأحوص بن محمد الأنصارى :

إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فكُنْ حَجَرًا من يابس الصَّخرِ جَلْمَدَا
هل العيشُ إلا ما تَـلذّ وتَشتهى وإنْ لَامَ فيه ذو الشنان وَفَنَّدَا[1]

واجتاز رجل بمجنون بنى عامر ، وهو يخوض سور الحوض ، فقال له : ما بك يافتى؟ ولم يعرفه ، فأنشأ يقول :

بِىَ اليأسُ أو دَاءُ الهُيَام أصابَنِى فإيَّاكَ عَنِّى لا يكن بك ما بِيَا

قال أبو الطيب : الهيام : داءٌ يأخذ الابل وتشرب الماء ولا تَرْوَى ، ويقال للابل التى يصيبها ذلك : الهيم : قال الله جل ثناؤه : « فَشارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ » ، فعرفه ، فقال : أعاشق أنت؟ قال : نعم ، وأنشأ يقول :

إذا أنت لم تَعشَقْ فَتُصبِحَ هائِمًا ولم تك معشوقاً فأنت حِمَارُ

وقال :

الحبّ أوّلُ ما يكون لجاجةً تأتى به وتَسُوقُه الأَقْدارُ

وروينا عن الهزنادىّ ، عن هشام ، عن ابن سيرين قال : كانوا لا يرون بالعشق بأسًا فى غير رِيبة .

وقيل لبعض البصريّين : إنّ ابنك قد عشق ، فقال : وما بأس به ، إنه إذا عشق : نظُف ، وظرُف ، ولطُف .

وقيل لبعض العرب : متى يكون الفتى بليغا؟ قال : إذا وصف هوى حبًّا.

---

(١) الشنآن : البغض مع عداوة وسوء خلق

وأنشدنى بعض الأدباء :

وما النّاس إلا العاشقون ذَوُو الهوى ... وما خـــيرَ فيمَنْ لايحبّ ويَعْشَقُ

وقال آخر :

وَما تَلِفَتْ إلّا مِنَ العِشْـقِ مُهْجَتِى ... وَهَلْ طَابَ عيشٌ لامرىءٍ غيرِ عَاشِقِ

وقال آخر :

وما خـيرُ فى الدُّنيا اذا أنت لم تَزُرْ ... حبيبًـــا ولم يَطرب إليك حَبِيبُ

وقال آخر :

وما سَرَّنى أنّى خلىٌّ من الهوى ... ولا أنّ لى ما بين شَرْقٍ إلى غرْبَ

وأعلم أنّ أول علامات الهوى على ذى الأدب : نحولُ الجسم ، وطولُ السّقم[1] ، واصفرارُ اللّون ، وقلّةُ النّوم ، وخشوع النظر ، وادمان الفكر ، وسرعةُ الدموع . واظهـارُ الخشوع ، وكثرة الأنين ، واعلان الحنين ، وانسكابُ العبرات ، وتتابُعُ الزفرات ؛ ولن يَخفى المحِبّ وإن تســـتّر ، ولا ينكتم هواه وإن تصبّر ، ولن يَغْنَى ادعاءُ أنه قد قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى نائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة . وقـــد قال الأحوص الأنصاريّ :

ماعالجَ النّاسُ مثلَ الحبّ مِن سَقَمٍ ... ولا بَرَى مثلُهُ عَظْمًا ولا جَسَدَا

مَا يَلبَث الحبّ أن تبدو شواهِدُه ... من المُحبّ وَإن لم يُبْـــدِهِ أبَدَا

وقال آخر :

ما يعرف الحزن إلا كلُّ مَنْ عَشِقَا ... وليس من قال إنّى عاشِقٌ صَدقَا

للعاشـــقين نُحُولٌ يُعْرَفون بهِ ... مِن طُول ماحالفوا الأحزان وَالأرَقَا

---

(١) السقم : المرض

وحدثت عن الزبير بن بكار ، قال : رأيت رجلا بناحية الثغر عليه أثر ذلة وخضوع ، واستكانة وخشوع ، كان يكثر التنفس ، ويخفى السكوت ويبدى الأنين ، وحركات المحب لا تخفى فى شمائله . ولا يسترها بتصاونه . فسألته فى بعض أيامه وقد خلوت به عن حاله ، فكان جوابه ، وقد تحدرت الدموع من عينيه :

أنا فى أمرى رشاد بين غزو وجهاد
بدنى يغزو عدوى والهوى يغزو فؤادى

وركبت سكينة ابنة الحسين بن على ذات ليلة فى جواريها ، فمرت بعروة ابن أذينة الليثى وهو فى فناء قصر ابن عيينة ، فقالت لجواريها : من الشيخ ؟ فقالوا عروة . فعدلت اليه ، فقالت : يا أبا عامر : أنت تزعم أنك لم تعشق قط ، وأنت تقول :

قالت وأبثثتها وجدى فبحت به قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؛ فقلت لها: غطى هواك وما ألقى على بصرى ؟

كل من ترى حولى من جوارى أحرار ان كان خرج هذا الكلام من قلب سليم قط .

فهذان قد كتما هواهما ، فنمت شواهد بجواهما ، لأن من اغتمس (١) فى بحر الهوى ، نمت عليه شواهد الضنى (٢)

فأما أهل الدعاوى الباطلة ، الذين ليست أجسامهم بناحلة ، ولا ألوانهم بحائلة ، ولا عقولهم بذاهلة ، فهم عند ذوى الفراسة يكذبون . وعند ذوى الظرف لصحتهم يوبخون

وقد روى أن العباس بن الأحنف قال : بينا بالطواف إذا بثلاث

(١) اغتمس الماء : غاض فيه (٢) الضنى : المرض والهزال

جوار أتراب[1] فلما أبصرنني قلن ، هذا العبّاس ، وَدنتْ إلىّ إحداهنّ ، فقالت : ياعباس أنت القائل :

ماذا لَقيتُ من الهوى وَعذابِهِ   طلعتْ عَلَيَّ بليّـــةٌ من بابه ؟

قلت : نعم، قالت كذبتَ يا ابن الفاعلة ، لو كنتَ كذلك كنتَ كأَنا ، ثم كشفت عن أشاجع[2] مُعَرَّاة مِن اللحم ، وأنشأت تقول :

ولمَّا شكوتُ الحبّ قالت كذبتَنى   فَمالى أرى الأعضاءَ منك كواسيا

فلا حُبَّ حتى يَلصَق الجلدُ بالحشى   وتَخرَس حتى لا تُجيبَ المُنادِيا[3]

ودخل ابراهيم بن المهدىّ على أمير المؤمنين ، وكان أنجل[4] البطن ، كثير اللحم والشحم ، فقال له المأمون : بالله ياعمّ عشقتَ قط ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأنا الساعة عاشق ! قال : وأنت على هذه الجثّة ، والشحم الكثير ؟ ثم أنشأ المأمون يقول :

وَجْـــهُ الذى يَعْشَقَ معروفٌ   لأنه أصـــفرُ منحـــوفُ

ليس كمن أمسَى له جثّـــةٌ   كأَنه للذبح معـــلوفُ

فأجابه ابراهيم بن المهدىّ :

وقائــلٍ لستَ بالمُحِبِّ ولوْ   كنتَ مُحِبًّـــا لذُبْتَ مِن زَمَنِ

فقلتُ قلبى مُكاتِم بَدَنى   حُبى فالحبُّ فيـــه مُختزَنِ

أحَبَّ قلبى وما درى بدنى   ولو درى ما أقام فى السِّـــمَنِ

---

(١) الأتراب : جمع الترب ، وهو الصديق . أو من ولد معه

(٢) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف ، أو هى عروق ظاهر الكف ، واحدها أشجع

(٣) الحشى : مادون الحجاب مما فى البطن من كبد وطحال وكرش ..الخ والجمع احشاء

(٤) الأنجل : الواسع الطويل العريض ، والجمع نجل ونجال

هذان أيضا قد ادّعيا المحبة ففضحهما شاهِدُ النظر ، ولم يَجزْ ادعاؤهما على ذى المعرفة والبصر . وقول ابراهيم : أحب قلبى ومادرى بدنى ، محال لا يعلق القلب فيَسلم الجسم ، ولكنّه لاستحيائه قد احتجّ بحجة ضعيفة ، وأنشدنى بعض المشيخة فى مثل ذلك :

وقائلةٍ ما بالُ جِسْمِكَ سالماً ۝ وَعَهدِى بأجسام المحبّين تَسْقَمُ
فقلتُ لها قلبِي لجِسْمِىَ لم يَبُحْ ۝ بحبٍّ فجسمى بالهوى ليس يَعْلَمُ

فالعرب تمدح بالضُّمر ، وتذم بالسِّمن ، وتنسب أهل النحول إلى الأدب والمعرفة . وأهل السمن إلى الفدامة[1] وقلة الفهم .

وللفلاسفة والأطباء فى ذلك قول يثبت ماادعت العرب ، وزعموا أن من غلب عليه البَلغَم عظُم جسمه، وكثر شحمه ولحمه، وقل فهمه ، وَطال سُباته، وانعقد لسانه، لغلبة البلغم على فمه ، واحتواء الرطوبة على لبّه ؛ وَمن كان أغلب مزاجاته المِرّة خف جسمه وَقل لحمه ، وَذاب شحمُه ، وَحسُن ذهنُه ، وَصحّ فهمه ، لأن النّحول علامةُ المتفرّسين ، ودلالة المتوسمين[2] لا يكاد أن تخطىء فيه الفراسة ، وَلا تكذب فيه العيافة ، لما أخبرتُك من غلبة أحد المزاجَيْن على صاحبه ، وَابتناء قراره فى مركبه ، وَربّما أعجب السِّمن ، وَخاب الهزال ، ولا يكون ذلك إلا فى الفرد الشاذ من الرجال .

ومن أمثال العرب فى ذلك : البطنة[3] تُذْهِب الفِطْنة .

وروى أن جميل بن معمر العُذْرى صحبه رجل من عُذْرَة وكان بطيناً أكولا ، فجعل يشكو اليه هوى ابنة عمّ له ، فأنشأ جميل يقول :

وقد رابنى من جعفرٍ أنّ جعفراً ۝ مُلحٌّ على قُرصٍ وَيشكو هوى جُمْلِ
فلو كنتَ عذرىَّ الهوى لم تكن كذا ۝ بطيناً وأنساكَ الهوى كثرة الأكل

(١) الفدامة : الحمق (٢) توسم الشىء : تفرسه ، وتعرفه
(٣) البطنة : الامتلاء المفرط من الاكل

ومَن عَشِقَ عندهم ، فلم ينحلْ جسمُه ، ولم يطلْ سقمُه ، ويتبيَّن الخشوع فى حركته ، والذُّلُ فى نغمته ، نسبوه إلى فساد الطبع ، ونقصان اللبّ ، وبُعْدِ الفهم ، وموت القلب ؛ ومن ادّعى المحبّـة ، فلم ينحل ولم يسهر ، ولم يخشع ، ولم يذلّ ولم يخضع ، ولم يَحمل نفسه على الأمور المُتعِبة والشدائد الفظيعة ، ويركب فيهـا المراكب الوَعِرة ، ويتقدّم على الأشياء المهولة ، والأهوال المخوفة ، التى يلاقى فيها الموت ، ويعاين فيها الفوت ، ويباشر فيها الهلـكة ، ويُغرِّر فيها بالمهجة ، ويصبر على حتفه . ويخاطر بنفسه ، ويرد الموارد التى يلاقى فيها الموت ، ويَشرف منها على مَهول الأمر الذى فيه تلفُه وحَيْنُـه ، وحتى يعصى فى هواه الأقاربَ ، ويعالج فيه العجائب ، فيكون كما قال العَرجىّ :

كم قد عَصَيْتُ إليك من متنصحٍ دانى القرابة أو وعيـد أعادى

وتَنُوفَةٍ أرْمى بنفسى عَرْضَهـا شَوْقاً إليكِ بلا هِدايةِ هادِى[1]

وكما قال سُوَيْد بن أبى كاهل :

كم جَشِمْنا دون سـلمَى مَهْمَهاً نازحَ الغَوْرِ اذا الآلُ لَمَعْ[2]

وكذاك الشَّوقُ ما أشجعَهُ يركبُ الهوْلَ ويَعْصى مَن وَزَعْ[3]

فليس بعاشق عنـدهم ، ولا يثبت له اسمُ الهوى ، ولا يلحق بالظّرفاء ، ولا يُعدُّ فى الأدباء ؛ لأن الهوى عندهم فى النّحول والذهول ، والضَّنَى والعنَاء ، والأرَق والقَـلَق ، والسهر والفِـكر ، والذُّلّ والخضوع ، وادمان البكاء ، وقلة العزاء ، وكثرة الأنين ، وطول الحنين ؛ وليس بعاشق من خرج عن

(١) التنوفة : البرية لا ماء فيها ولا أنيس .

(٢) جشم الأمر : تكلفه على مشقة . المهمه : المفازة البعيدة ، أو البلد المقفر . النازح : البعيد جدا . الغور : ما انحدر واطمأن من الأرض . الآل : السراب وهو ما يشاهد فى النهار من اشتداد الحر كأنه ماء .

(٣) وزعه : كفه ومنعه .

هذه الصفات ، وانتقل من هذه الحالات ، أو وُسِم [١] بغير هذه العلامات ، وعُرف بغير هذه الدلالات ، أنشدنى بعض الأدباء :

علامةُ من كان الهوى فى فؤاده ... اذا ما لَقِى أحبابَه يتحيَّرا
ويصفرّ لونُ الوجه بعد احمراره ... فإن حركوه للكلام تشوّرا [٢]

أنشدنى أبو الحسن بن الرُّومىّ :

أرى ماءً وبى عطشٌ شديدٌ ... ولكنْ لا سبيل الى الوُرُود [٣]
أما يَكفيكِ أنَّكِ تملكينى ... وأنّ الخلق كلُّهمُ عَبيدِى
وأنكِ لو قطعتِ يدى ورجلى ... لقلتُ من الهوى أحسنتِ زِيدِى

وحُدِّثتُ عن ابن مخارق عن أبيه قال : كنّا عند المأمون يوما ، فقام فدخل الى حُرَمه ، وخرج وعيناه تذرفان ، فقال لى : يا مخارق تغنَّ لى بهذين البيتين :

سلامٌ على مَنْ لم يُطِقْ عند بَيْنِهِ ... سلاماً فأومَى بالبنان المخضَّبِ [٤]
فما اسطعتُ الا بالبكاء جوابَهُ ... وذلك جَهْدُ المستهام المعذَّبِ

فحفظتُهما وتغنَّيْتُ بهما ، فجعل يبكى ، وينتحب فى بكائه ويزفر ، ثم قال لنا : أتدرون ما قصّتى ؟ قلت : أمير المؤمنين أعلم ، وإن شاء أعلمنا ! قال : إنِّى دخلتُ الى بعض المقاصير ، فرأيت جارية لى كنت أجد بها وجدا [٥] شديدا ، وهى للموت ، فسلمت عليها ، فلم تطق ردّ السلام ، فأشارت بأصبعها ، فغلبتنى العبرة [٦] ، وأرهقتنى الزفرة [٧] ، فخرجت من عندها ، فحضرنى هذان

---

(١) وسمه : كواه وجعل له علامة يعرف بها
(٢) تشور : أومأ — (٣) ورد الماء : صار إليه وبلغه .
(٤) البين : الفرقة . — (٥) الوجد : المحبة .
(٦) العبرة : الدمعة ، أو الحزن بلا بكاء .
(٧) الزفرة : التنفس مع مد النفس .

البيتان من باب قصرها إلى باب مجلسى ، ثم أمر برفع الشراب ، فما رأيتُ يوما أكدر منه .

وأُنْشِدْتُ للمعتصم فى بعض جواريه :

أيا مُنْقِذ الْغَرْقى أجِرْنى من التى ... بها نهلَتْ روحى سقاماً وَعَلَّت[1]

لقــد بخلتْ حتّى لوَ أنى سألتها ... قذى العيْن من سافى التُّراب لضنَّت[2]

وأُنْشِدْتُ للمتوكل فى جارية له :

أمازحُهــا فتغضبُ ثم تَرْضى ... وكلُّ فعـالها حسنٌ جميـلُ

فإنْ تغضبْ فأحسن ذات دلٍّ ... وإنْ ترْضى فليس لها عديلُ

حدَّثنى أبو العباس بن الفضل الرَّبعىّ قال : حدثنى على بن الجهم قال : حُمَّ المتوكل يوما ، وكان ذلك بعقب شرّ وقع بينــه وبين قبيحة . فرماها بمخدّة فغضبت واحتجبت ، فحُمَّ بعقب ذلك ، ودخلنا عليه ، وإذا الفتح قائم فى يده قارورة فيها الماء ، ويحيى بن ماسَوَيْه ينظر اليها ، فقـال : ليس أرى إلّا ما أحبّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنشدك أبياتا ؟ فقـال لى : أنشِدْ ، فأنشدته :

تنكر حال علّتىَ الطبيبُ ... فقال : أرى بجسْمك ما يُريبُ

جسستُ العرْق منك فدلَّ عندى ... على داءٍ له شــأنٌ عجيبُ

فما هــذا الذى بك هات قُلِّى ... فكان جوابهُ منّى النَّحيبُ

لجسْمى بالحبيب بُلى سقاماً ... وَقلْبى يا طبيبُ هو الكئيبُ

فحــرَّك رأسَه ودنا إلىَّ ... وقال : الحبُّ ليس له طبيبُ

---

(١) نهل : شرب أول الشرب . علّه : سقاه سقيا بعد سقى .

(٢) القذى : ما يقع فى العين من تبنة ونحوها . سفى التراب : تذرى وتبدد

فأعجبنى تظرُّفه علىّ فقلت : بلى اذا رَضِىَ الحبيبُ
فقال: هو الشّفاءُ فلاتوانَ فقلت : أجلْ ولكنْ لا تُجيبُ
ألا هلْ مُسْعِدٌ يبكى لشجْوِى فإنِّى هاهُنا أبدا غريب

فضحك ، وذعا بالشراب وشرب ، وشربنا معه ، ووجّه إلى قبيحة . فوقع الصلح بينهما ، وخرجتْ عندها رقعة بخطّ فضل الشاعرة :

لأصبرنّ على ما بى من المَضضِ حتّى أموتَ ولا يشعُرُ بِىَ النّاس
ولا يُقالُ شكا من كان يَعشقُهُ إِنّ الشّكاة لِمَنْ يهوى هى الياسُ
ولا أبوح بسرٍّ كُنْتُ أكتُمُه عند الجليسِ اذا مادارتِ الكاسُ

وأما من عَشق من الشّعراء ، فما يحصرهم عددٌ ولا يحصيهم أحد .
وقد عشق أكثر العرب ، بل كلُّهم قد عشق ، فمن المذكورين منهم المشتهرين بالصّبْوة والغزل ، فَقيْس مجنون بنى عامر عاشقُ ليلى ، وقيس بن ذَريح عشق لُبْنَى ، وتَوْبة بن الُحميِّر عشق لَيْلَى الأَخْيلِيّة ، وكُثَيِّر عشق عَزّة ، وجَميل بن مَعْمَر عشق بُثَيْنَة ، والمؤمَّل عشق الذَّلفاء ، ومُرقِّش عشق أسماء ، ومُرقِّش الأصغر عشق فاطمة بنت المنذر ، وعُرْوة بن حِزام عشق عُفْراء ، وعمرو بن عَجْلان عشق هِند ، وعلىّ بن أُدَيم عشق مَنْهَلة ، والمُهذَّب عشق لَذّة ، وذو الرُّمّة عشق مَيَّة ، وقابوس عشق مُنْيَة ، والُمخبَّل السّعْدِىّ عشق المَيْلاء ، وحاتم طَيّ عشق ماوية ، ووضّاح اليمن عشق أمّ البنين ، والغَمْر بن ضرار عشق جُمل ، والنمرِ بن تَوْلَب عشق حَمْزة ، وبَدر عشق نُعْم : وشُبَيْل عشق فَالُونَ ، وبِشر عشق هِنْدَ ، وعمرو عشق دَعْدَ ، وعمر بن أبى ربيعة عشق الثُّرَيّا ، والأحوص عشق سَلّامة ، وأسعد بن عمرو عشق ليلى بنت صيفىّ ، ونُصَيب عشق زينب ، وسُحيم عبد بنى الحسحاس عشق عُميرة ،

وعبيد الله بن قيس عشق كثيرة ، وأبو العتاهية عشق عُتْبة ، والعباس بن الأحنف عشق فوز . وأبو الشّيص عشق أمَامة .

فهؤلاء قليل من كثير ممّن عشق ، وإنّما اقتصرنا على ذكر بعضهم دون بعض ، ليقلّ به الخطاب ، ويحسن به الكتاب ، ولكلّ واحد منهم سبب فى حبه ، وحديث فى عشقه ، يطول شرحه ، ويكثر وصفه .

ونحن مُفردون لأهل العشق كتابا نذكر فيه أخبار المتيّمين ، ومُلَح المتعشّقين ، ، وأشعار المتغزّلين ، مع جُملة من صفات الهوى فى كتاب المقتفى إن شاء الله تعالى .

وقد شُهر أيضا بالصّبوة والغزل جماعة من شعراء العرب ، منهم أبو كثير الهُذَلىّ ، وأبو صخر الهذلىّ ، وأبو دهْبَل الجُمحِىّ ، ورِبْسان العُذرىّ ، والصِّمّة بن عبد الله القُشيْرىّ ، وابن أذينة ، وابن الدُّمينة ، وابن الطّثْريّة ، وابن ميّادة ، والحُسين بن مُطير ، إلى آخرين لا يحصيهم العدد ، ولا يبلغهم الأمد ، وقد ضُرب فى عُرْوة بعشقه المثَلُ ، لأنه كان أطولهم صبوةً ، وأكثرهم فى العشق كثرة .

أنشدنى أحمد بن يحيى ، لأبى وَجْزة السعدىّ[1] :

وفى عُرْوَةَ العُذْرىّ ، إنْ مُتُّ أسْوةٌ　　وعمرو بن عَجْلان الذِى قَتَلَتْ هِنْدُ[2]

وبى مِثْلُ ما ماتا به غير أنّنى　　إلى أَجَلٍ لم يأتنِى وقتُه بَعْـدُ

هَلِ الحبُّ إلا عَبْرةٌ بعـد زَفْرَةٍ　　وَحرٌّ على الأحشاء ليس له بَرْدُ

وفيضُ دموعِ العين بالليل كلّما　　بدَا علَمٌ مِن أرضكم لم يَكُنْ يَبدُو[3]

(١) يروى هذا الشعر لقيس بن ذريح .

(٢) يروى . وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند
ويقال : إنه طلق زوجته هندا وندم فمات أسفا عليها .

(٣) يروى : وفيض دموع تستهل إذا بدا　　لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وقال كُثيِّر :

وأصبحتُ مما أحدثَ الدهرُ خاشعاً ... وكنتُ لريْبِ الدّهر لا أتخشَّعُ

وعُرْوةُ لم يَلقَ الّذى قد لقيتهُ ... بعفراء ، والنّهْدِىُّ ما أتفجَّعُ

وقال جرير :

هل أنتِ شافِيَةٌ قلباً يَهيم بكُمْ ... لم يلقَ عُرْوةُ من عَفْراء ما وجدا

وقال أيضا :

بالعَنْبريّة والنَّحيت أوانسٌ ... قُدْن الهوى بتخلُّبٍ وعِذَامِ[1]

هل لا نَهيتُك إذْ قَتلنَ مُرَقِّشاً ... أمَّا صنعن بعُروة بن حزامِ

وقال الأحوص الأنصاريّ :

لا شَكَّ أنّ الذى بى سوف يقْتُلُنى ... إنْ كان أهْلَكَ حُبٌّ قبله أحداً

أحببْتُها فوتغتُ النـاس كلُّهُم ... يا ربّ لا تشفنى من حبها أبداً[2]

لوْ قاس عُروةُ والنّهدىُّ وجْدهُما ... لـكان وجدى بسُعْدى فوق ماوجداً

وقال أيضا :

إذا جئتُ قالوا قد أتى وتهامسُوا ... كأَنْ لم يجدْ فيما مضى أحدٌ وَجْدى

فعروة سنّ الحبَّ قبـــلى إذ شقى ... بعفراء ، والنّهدىُّ مات عـلى هنْدِ

وقال جميل بن معمر :

وما وجدتْ وجدى بها أمٌّ واحِدِ ... ولا وجد النَّهدِىُّ وجدى على هِنْدِ

ولا وجد العُذْرِىُّ عروةُ إذْ قضَى ... كوَجدى وَلا مَنْ كان قبلى ولا بَعْدِى

على أنَّ من قدماتَ صادف راحة ... وما لفؤادى من رَوَاحٍ ولا رُشْدِ[3]

---

(١) اختلبه : خدعه بلطف الكلام . العذام : اللوم . (٢) وتغ : ساء خلقه .

(٣) الرواح : وجدان السرور الحادث من اليقين . الرشد : الهداية والاستقامة .

وقال مروان بن أبي حَفْصة :

أرْدَيْنَ عُرْوَةَ والمرقَّشَ قبلَهُ　　وأخا بني نَهْدٍ تركن قَتِيلاَ

ولقد تركن أبا ذُؤَيْبٍ هائماً　　ولقد قتلن كُثَيِّرًا وجَمِيــــلا

وتركن لابن أبي ربيعَةَ مَنْطِقاً　　فيهنّ أصْبَحَ سائراً مَحْمُولاَ

وأنشدنى عمرو بن قَنان لنفسه :

إن الأولَى ماتوا على دين الهَوَى　　وَجَدُوا المَنِيَّةَ مَنْهَلاً مَعْسُولاَ

قيسٌ وعمرٌو والمرقّشُ قبلهمْ　　كانوا لتنزيلِ الهوى تأْويلاَ

نَدَبُوا الطُّلولَ لأهلها لا أنهُمْ　　عَشِقُوا مَغَانِيَ أرْبُعٍ وطُلولاَ

ولبعض المتأدبين :

يا عَذُولِيَ قد هَوِيتُ فَكُفًّا　　إنّنى بالهوى المُميت رَضِيتُ

مَاتَ قَيْسٌ وعروةٌ وجميلُ　　وأرانى بمَوْتِهِمْ سأموتُ

وقال جميل بن معمر :

قدْ مات قبلِى أخو نَهْدٍ وصاحبُهُ　　مُرَقِّشٌ واشتفَى من عروةَ الكَمَدُ

وكُلُّهمْ كان فى عِشْقٍ مَنِيَّتُهُ　　وقد وجدت بها فوق الذى وَجدوا

إنْ لم تُنِلْنى بمعروفٍ تجودُ به　　أو يَدفع اللهُ عنّى الواحدُ الصَّمَدُ

وقد أحسنت والله امرأة من خَثْعَم إذ تقول :

فأُقسمُ أنّى قد وجدت بجَحْوَشٍ　　كما وجدتْ عفراءُ بابن حِزَامِ

فما أنا إلّا مِثْلُها غَيْرَ أننى　　معلقةٌ نفسى ليوم حِمَامِ

وأحسن الذى يقول :

عَجِبْتُ لعُرْوَة العُذرىِّ أضحى　　أحاديثاً لقومٍ بَعْدَ قومِ

وعروةُ مات مَوْتاً مستريحاً　　وكيف يَمُوتُ فى كل يومِ

وبلغنا أنّ منهم من عشق صُورةً فى حَمّام ، وخيالا فى منام ، وكفاً فى حائط ، ومثالا فى ثوب ، والعشق ألوان وأنواع ، وضروب وفنون ، وأمره غريب ، وقال بعض الشعراء :

أبيت كأنّى للكواكب عاشقٌ ... فأكثر همّى أن تزولَ الكواكب

عجبتُ لما يَلقى من العِشقِ أهلهُ ... وفيما يُلاقى العاشقون عجائبُ

وبلغ العشق من عروة بن حزام أنْ أفرده ببلائه ، وعذّبه بدائه، وآنسه بانفراده ، وشرّده عن بلاده .

وحُكى عن ابن أبى عتيق قال : بينا أنا أسيرُ فى أرض بنى عُذرة ، إذا أنا ببيتِ حريرٍ ، فدنوتُ منه ، فاذا عجوز تمرّض شاباً ، وقد نهكته العِلّة ، وبانت عليه الذِّلة ، فسألتها عن خبره ؛ فقالت : هذا عروة بن حزام ، فدنوت منه ، فسمعتُه يقول :

مَنْ كان من أمّهاتى باكياً لغَدٍ ... فاليوم إنّى أرانى اليوم مقبُوضا

تَسَمّعيه فإنّى غير سامِعِهِ ... اذا علوتُ رقابَ القوم معْرُوضا

فقلت : أنت عروة بن حزام ؟ قال : نعم ، أنا الذى أقول :

جَعَلْتُ لعرّاف اليمامة حُكمَهُ ... وعَرّافِ نجدٍ إنْ هما شَفَيانِي

فقالا : نعمْ تُشْفَى من الداء كُلّه ، ... وقاما مع العُوّادِ يَبْتَدِرانِ

فما تَرَكا من سَلْوَةٍ يعلمانها ... ولا شَربةٍ إلا بهـا سَقَيانِي

فقالا : شَفَاكَ الله ، واللهِ مالنـا ... بما حَمَلتْ منـك الضّلوع يَدانِ

فَلَهْفِى على عَفراءَ لَهْفاً كأنه ... على النّحر والأحشاء حَدُّ سِنانِ

فعَفراءُ أحظى النّاسِ عندي مَوَدّةً ... وعفراءُ عنّى المُعْرِضُ المُتَوانِي

ثم خفق خفقةً ، فتوهمتُ أنها غشية، فتنحّيت عنه ، ودنت العجوز منه ، فما برحتُ حتى سمعت الصيحة ، فاذا هو قد فارق الدنيا .

وبلغ العشقُ أيضا من مجنون بني عامر أن أخرجه إلى الوسواس والهَيَمَان[1] ، وذهاب العقل وكثرة الهذيان ، وهبوط الأودية وصعود الجبال ، والوطء على العوسج وحرارة الرمال ، وتمزيق الثياب ، واللعب بالتراب ، والرمى بالأحجار ، والتفرد بالصحارى ، والاستيحاش من الناس والاستئناس بالوحش ، حتى كان لا يعقل عقلا ، فاذا ذُكِرَتْ لَيْلَى ثاب اليه عقله ، وأفاق من غشيته ، وتجلت عنه غمرته[2] ، وحدثهم عنها أصحّ الرجال عقلا ، وأخلصهم ذهنا ، لا ينكرون من حديثه شيئا ، فاذا قطع ذكرها رجع إلى وسواسه وهذيانه ، وتماديه فى ذهاب عقله .

وقد حكى عنه فى أول ابتداء وسواسه أنه قيل لأبيه : لو أخرجت قيسا أيام الموسم ، وأمرته بأن يتعلّق بأستار الكعبة ، ويقول : اللهُمّ أرحنى من حبّ ليلى ، لعلّ الله كان يُريحه من ذلك ، ففعل ، فلمّا طاف بالبيت أمره فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : قل اللهمّ أرحنى من حبّ ليلى ، فقال : اللهمّ زدنى لِليلى حبًّا إلى حبها وأرنى وجهها فى خير وعافية ، فضربه أبوه ، فأنشأ يقول :

ذَكَرْتُكِ والحجيجُ له ضجيجٌ ... بمكّةَ والقلوبُ لها وَجيبُ[3]

فقلتُ ونحن فى بلدٍ حرامٍ ... به لله أخلصَت القلوبُ

أتوبُ اليك يا رحمنُ مما ... عملتُ فقد تظاهرَت الذنوبُ

---

(١) هام على وجهه هيانا : ذهب لا يدرى أين يتوجه .

(٢) غمرة الشيء : شدته . (٣) وجب القلب : رجف وخفق .

وأما مِنْ هوى ليْلى وترْكى زيارَتها فإنى لا أتوب
وكيف وعندها قلبى رَهينٌ أتوبُ اليك منها أو أنيبُ

وقال أيضا :

دعا المحْرمون الله يَسْتغفرونه بمكّة شعثًا كىْ تُمحّى ذُنُوبها
وقلتُ لربٍّ النّاس أوّلُ سألتى لِنفسىَ ليْلى ثم أنتَ حَسيبها
فإنْ أُعط ليْلى فى حياتى لا يَتُبْ إلى اللّه عبدٌ توبةً لا أتوبُها

وقال أيضا :

فلوْ أنّ مابى بالحصى فلقَ الحصَى وبالريح لم يسْمعْ لهنّ هُبوبُ
ولو أننى أستغفر اللّه كلّما ذكرْتُكِ لم يُكْتبْ علىّ ذُنُوبُ

وبات فى بعض ليالى حَجّه تحت شجرة ، فانتبه بنوح حمامة ، فأنشأ يقول :

لقد هَتَفَتْ فى جنْح ليلٍ حمامةٌ على فَنَنٍ تدعو وإنّى لَنائمُ[1]
فقلتُ اعتذاراً عند ذاك وإنّنى لقلبىَ فيما قد رأيتُ لَلائِمُ
أأزعمُ أنّى عاشقٌ ذو صبابةٍ بليْلى ولا أبكى ويبكى الحمائمُ
كذبتُ وبيْتِ اللهِ لو كنتُ عاشقاً لَما سبقتنى بالبكاء الحمائمُ

وسمع هاتفاً من الليل وهو ينادى : يا لَيْلى . فخر مغشيًّا عليه ، ثمّ أفاق وهو يقول :

وداعٍ دعا إذْ نحنُ بالخَيْفِ من مِنًى فهيّج أحزان الفؤاد وما يَدْرِى
دعا باسم لَيلى أسْخَنَ اللّه عينَه وليلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قَفْرِ[2]
عرضتُ على قلبى العَزاءَ فقال لى: مِنَ الآنَ فاجزعْ لا أعِزُّكَ من صَبْرِ

(١) الفنن : الغصن المستقيم. (٢) أسخن عينه وبعينه : أنزل به ما يبكيه .

إذا بانَ مَنْ تهوى وأسلمك النّوى ... فَفُرقةُ من تهوى أحرُّ من الجمرِ[1]

وقال أيضا :

فَلَبَّيْكَ مِنْ داعٍ دَعَا ولوَ أنّهُ ... صَدًى بين أحجارٍ لظلَّ يُجيبُها

وقد أحسن إذ حكم على صَدًى فى رمسه باجابة لدعوتها ، والمبادرة الى تلبيتها ؛ وهكذا فلتكن غلبة العشق ، وصدق الهوى . ومثل ذلك قوله أيضا :

لمسْتُ ثيابي إن قدرتُ ثيابها ... ولم يَنْهنى عن مسّهنّ حَرامُها

ولو شَدَتْنى حين تحضر مِيتَتِى ... جلا سكراتِ الموت عنى كلامُها

ومثل ذلك قول الآخر :

ولو كلّمتنا بين زمزمَ والصّفا ... وبين حطيم البيت أضْحى كلامُها[2]

ولو مكثتْ بعد التّطوُّع ساعةً ... بمكّة ولاّها الصّلاةَ إمامُها

ولو نطقتْ والموت يجرى ظلامُه ... لجلّى ظلامَ الموتِ عنّى ابتسامُها[3]

ومثله قول جميل بن معمر :

حلفت يمينًا يا بُثينة صادقًا ... فإن كنتُ فيها كاذبًا لعَميتُ

حلفتُ لها بالبُدْن تُدْمى نحُورها ... لقد شقيَتْ نفسى بكُم وعنيت[4]

فلو أنّ جِلدًا غير جلدِكِ مَسّنى ... وباشرنى دون الشّعار شريت[5]

---

(١) بان عنه : انقطع عنه وفارقه . النوى : البعد .

(٢) حطيم البيت : حطيم مكة ، وهو مابين الركن والباب ، وقيل : هو الحجر المخرج منها ، سمى به لأن البيت رفع وترك هو محطوما ، وقيل لأن العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب فيبقى حتى حطم بطول الزمان ، فيكون فعيلا بمعنى فاعل .

(٣) جلى الأمر عنه : كشفه عنه

(٤) البدن (بضم النون وسكونها): جمع بدنة وهى الناقة أوالبقرة تنحر بمكة ، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها .

(٥) الشعار : ما يمس الجسد من اللباس . شرى الرجل : غضب .

ولو أنّ داع منك يدعو جنازتى وكنتُ على أيدِى الرجال حَييت

ومثله قول الأعشى :

تَهدى بها فى الحىِّ قد سُربلتْ صفراءَ مثـــل المهرة الضّامِر

لو أسندتْ ميْتـــا الى نحْرها عاش ولمْ يُنقل إلى قابر

حتّى يقول النّاسُ ممّـا رأَوْا ياعجَبَـــا للميّت النّـاشرِ

قد حَجَمَ الثّدْىُ على نحرها فى مُشرِقٍ ذى بَهْجة زاهر

ومثله قول المجنون أيضا :

ولوكنتُ أعمَى أَخبطُ الأرض بالعصا أصمَّ فنادتنى أجبْتُ المُنـــاديا

وأشهد عنـــد الله أنّى أحِبُّها فهذا لهـا عندى فما عندها لِيـا

قال : وسرق هذا المعنى جميل بن عبد اللّه بن معمر ، فقال :

ألا ليتنى أعْمَى أصمُّ تقودنى بُثينةُ لا يَخْفى علىَّ كلامُها

فهؤلاء قد زعموا أنّ كلام النساء يجلو العمَى ، ويُسْمِع الصُّمّ ، ويُحيي الميّت ، ويدفع المْوات ، وينشر القبور من قبل أوان النّشور .

وقد قال بعض الأعراب : إنّ من كلام النســاء ، ما يقوم مقام المـاء ، فيَرْوِى من الظماء .

وقال آخر : حلاوة نغم النساء فى الآذان . ألذُّ من موقع المـاء العذب من العطشان .

وقال القُطامىّ فى مثل ذلك :

وفى الجدور غَمامات برقن لنـا حتّى تصيدنَنا من كلّ مُصطاد

قتلننا بحديثٍ ليس يعلـمُه من يتّقينَ ولا مكروهُه بادى

وهُنّ ينبذنَ من قولٍ يُصِبنَ به　　مواقع الماء من ذى الغلة الصّادى [1]

وعمر بن أبى ربيعة يقول فى سُكَينة بنت الحسين بن علىّ رضى الله عنهما :

أسُكين ما ماءُ الفُرات وبَرْدُهُ　　منّى على ظمأ وحُبّ شراب

بأحبّ منك وإن نأيتِ وقلّ ما　　ترعى النساء أمانةَ الغُيّاب

ولبعض المتأدّبين فى مثله :

والله ما شربةٌ من ماء غاديةٍ　　اذا ظَمِئْتُ وكَرْبُ الموت يغشانى

ألذُّ من شربة من فيك أسمعها　　تلك الشفاءُ لقلب الهائم العانى

ورُوى أنّ عمر بن أبى ربيعة قال : أتتنى امرأتان فى أيام غزلى ، فجعلتْ احداهما تُسرّ إلىّ سرًّا ، والأخرى تعضّنى ، فما شعرتُ بعضة هذه من لذة سرار هذه .

ودخل كُثَيّر على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا كثيّر حدّثنى ببعض أخبار جميل ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لقيتُ جميلا ذات يوم ، فقال : هل لك فى المسير معى نحو بُثينة ؟ قلت : نعم ، فسايرته ، حتّى دنا من موضعها ، فقال : تصير اليها فتُعلمها بمكانى ، فمضيت فأعلمتها ، فأقبلت فى نسوة من الحىّ ، فلما رأينه انصرفن عنها ، وتنحيت عنهما ، فلم يزالا من أوّل الليل إلى أن رهقهما الصبح قائمَيْن فى أقدامها ، فلمّا عزما على الافتراق قالتْ : أدنُ منى يا جميل ، فدنا منها ، فأسرّت إليه سرًّا ، فخرّ مغشيًا عليه ، فما أيقظه الاحرُّ الشّمس ، فأفاق وأنشأ يقول :

فما ماءُ مُزْنٍ من جبالٍ مُنيفةٍ　　ولا ما أكنّت فى معادنها النَّحْل

---

(١) الغلة : العطش الشديد . صدى : عطش شديدا .

بأشهى من القول الذى قلتِ بعدما   تمكّن فى حَيْزُوم ناقتىَ الرَّحْلُ[1]

وقال جرير أيضا :

ولقد رمينَك يوم رُحن بأَعْيُنٍ   يقتلن مَن خَلَلِ السُّتور سواجى[2]

وبِمنطقٍ شَغَفَ الفؤادَ كأنَّه   عَسَلٌ يجُدْنَ به بغير مِزَاجِ

وقال الفرزدق :

إذا هُنَّ ساقِطْنَ الحديثَ كأنَّه   جَنَى النَّحْلِ أو أبكارُ كَرْمٍ تُقَطَّفُ[3]

تراهنّ من فَرْطِ الحياءِ كأنَّها   مراضُ سُلالٍ أو هَوَالِكُ نُزَّفُ

وليس يمكن أن يكون ذلك عندهم كذلك .

وقد رُوى عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم — من وجوه شتّى بأحاديث صحّت عن الثقات ، ونقلت عن الرُّواة — : إنّ حبّك للشىء يُعْمِى ويُصِمّ .

وليس بعجب ما قال المجنون وأشباهه من غلبة العشق عليهم ، وقد قال غيره أعظمَ ممّا قاله وأقطع وأجلّ ، ولقد رأينا وسمعنا وخبرنا أنّ منهم من قتل نفسه غَرَقًا وذبحا وخنقا ، كلُّ ذلك أسفًا وحَسْرَةً وتلهُّفا .

فمن ذلك ما حُكى عن شيخ حضر مجلس العُتبىّ ، فأخبرهم أنّه حضر مجلسا فيه قينة وفتى ، وكان الفتى ، يهوى القينة ، وكانت القينة تهوى ابنة الشيخ ، وابنة الشيخ تهوى الفتى ، فغنت القينة :

---

(١) الحيزوم : الصدر ، وقيل : وسطه . الرحل : ما يحمل على ظهر البعير كالسرج

(٢) الخلل : المنفرج بين الشيئين . السواجى : جمع ساجية ، وعين ساجية : فاترة النظر ، أى ساكنة لينة .

(٣) ساقطة الحديث : تكلم الواحد وسكت الآخر بالتناوب . أبكار كرم : عنى الكرم البكر الذى لم يحمل قبل ذلك .

علامـةُ ذُلِّ الهوى على العاشقين البُكَا
ولا سِيَّما عاشـــق إذا لم يَجِدْ مُشْتَكَى

فقال لها الفتى . أحسنتِ واللهِ ياستّى ، أتأذنين لى أن أموت ؟ قالت : مُتْ راشدا ، فوضع رأسه على الوسادة ، وغمّض عينيه ، فحركناه ، فوجدناه ميّتاً ؛ قال الشيخ : فخرجنا متعجّبين من ذلك ، وصرتُ إلى منزلى ، فأعلمتُهم ما كان من قصة الفتى ، ونظرتُ إلى ابنتى وقد حاضرت ، فدخلتْ مجلسا لى ، فدخلتُ وراءها ، فاذا هى متوسّدة على مثال ما كان عليه الفتى ؛ فحركتُها فاذا هى ميتة ، فغدونا بجنازتها ، وغدوا بجنازة الفتى ، فاذا بجنازة ثالثة ، فسألنا عنها ، فاذا هى جنازة القينة ، وبلغها موت ابنتى ، فصنعت مثل ذلك فماتت ، فدفنّا ثلاثة بموت واحد فى موضع واحد ؛ وهذا من عجيب ما سُمع به فى هذا الامر .

ومن ذلك ما أخبرنى أبو العَيْنَاء قال : حدثنى عمرو بن بَحر الجاحظ قال : ذُكِرْتُ لأمير المؤمنين المتوكّل لتأديب ولده ، فلما نظر إلىّ استبشع منظرى ، وأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفنى ، فخرجتُ فلقيتُ محمد بن ابراهيم ، وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام ، فعرض علىّ الانحدار معه ، وقرّبتْ حرّاقته[1] ، ودعا بطعامه وشرابه ، ونصب ستارته ، وأمر بالغناء ، فاندفعت عوّادة له تتغنّى :

كلَّ يوم قطيعةٌ وعتابُ يَنْقَضِى دَهْرُنا ونحن غِضَاب
ليت شعْرى أنا خُصِصْتُ بهذا دونَ ذا الخَلْقِ أَمْ كذا الأحباب؟

---

(١) الحراقة : السفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو .

ثم سكتت ، وأمر طنبورية فغنّت :

وَارْحَمَتَا للعاشقينَا ما إن أرى لهمُ معِينَا

كم يُهجَرون ويظلَمو ن ويقطَعون فيصبرونَا

وتراهمُ ممّا بهم بين البريّة خاشِعينَا

يتجلّدون ويُظهرو ن تجلداً للشامتينا

قالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت : يصنعون هكذا ، وضربت بيدها على الستارة فهتكتها و برزت كأنها فِلقة قمر ، فزجت بنفسها إلى الماء ، قال : وعلى رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال ، وبيده مذبة ، فلما رآها وما صنعت ألقاها من يده ، وأتى إلى حيث رمت بنفسها ، فنظر إليها وهى تمور بين الماء فأنشأ يقول :

أنتِ التى غرّقتنى بعد القضا لو تعلمينا

وزج نفسه فى أثرها ، فأدار الملاّح الحراقة فاذا بهما معتنقين ، ثم غاصا ولم يريا ، فهال ذلك محمدا واستفظعه . وقال للجاحظ : ياعمرو لتحدّثنى بحديث يسكن عنى فعل هذين ، وإلا ألحقتك بهما ! قال الجاحظ : فحضرنى خبر سليمان بن عبد الملك . و قد قعد للمظالم ، وعُرضت عليه القصص فمرت به قصّة فيها : إن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ان يخرج إلىّ فلانة ، يعنى جارية من جواريه ، حتى تغنينى ثلاثة اصوات فَعَل ، فاغتاظ من ذلك سليمان وأمر من يخرج اليه فيأتيه براسه ، ثم اتبع الرسول برسول آخر فأمر ان يدخل الرجل إليه ، فأدخل ، فلما مثل الرجل بين يديه ، قال له : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحلمك ، والاتـكال على عفوك ، فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بنى امية ، ثم امر فأخرجت الجارية ومعها عودها ثم قال له : اختر ، قال له : قل لها تغنىْ بقول قيس بن الملوّح :

تَعلّقَ روحي روحَها قبل خَلقِها ... ومن بعدما كُنَّا نِطَافاً وفى المهدِ[1]

فعاش كما عشنا فأصبح نامِياً ... وليس وإن مُتْنا بمنقَضِب العَهْدِ[2]

ولٰكنَّه باقٍ على كلّ حالةٍ ... وسائرُنا فى ظُلمة القبر واللَّحْدِ

يكاد فضيض الماء يَخدِشُ جِلدَها ... اذا اغتسلت بالماء من رِقّة الجِلْدِ[3]

وإنى لمشتاقٌ إلى ريح جَيْبِها ... كما اشتاق إدريسٌ إلى جنَّة الخُلْدِ

فغنّته ، فقال سليمان : قل ، قال : تأمر لى برطل ، فأمر له برطل فشربه ، ثم قال : تغنّىْ بقول جميل :

عَلِقتُ الهوى منها وَليدًا فلم يزَل ... إلى اليوم يَنمى حُبُّها ويزيدُ

وأفنيتُ عمرى فى انتظار نوالها ... وأبليتُ فيها الدَّهرَ وهو جديدُ

فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حُبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ

إذا قلتُ ما بى يا بُثَيْنَةُ قاتِلى ... مِنَ الحبِّ قالت ثابتٌ ويزيدُ

ثم قال : تغنّىْ بقول قيس بن ذَرِيح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس لودام وُدّنا ... ولكنَّما الدنيا متاعُ غُرُورِ

وكُنَّا جميعاً قبل أن يَظهر النَّوى ... بأنعَمِ حالَىْ غِبْطةٍ وسُرُورِ

فما بَرِحَ الواشون حتَّى بَدَتْ لنا ... بُطُونُ الهوى مقلوبةً لِظُهورِ

فتغنّت ، فقال له : قل ، قال : تأمر لى برطل ، فما استتمه حتى وثب إلى أعلى قبة سليمان ، ثم زجّ بنفسه على دماغه فمات ، فقال سليمان : إنّا لله وإنا إليه راجعون ، أتُراه توهّم الجاهل أننى أُخرِجُ اليه جاريتى وأرُدّها الى مِلكى؟

---

(٢) النطاف : جمع النطفة : ماء الرجل أو المرأة .

(١) انقضب : انقطع .

(٣) الفضيض : ما انتشر من الماء عند صبه .

خذوا بيدها فانطلقوا بها الى أهله ، إن كان له أهل ، والا فبيعوها وتصدّقوا بها عنه ، فلمّا انطلقوا بها نظرت الى حفرة فى دار سليمان ، قد أُعِدّت للمطر ، فجذبت نفسها وأنشأت تقول:

مَنْ مات عِشقًا فَلْيَمُتْ هكذا لا خيرَ فى العشق بلا مَوْت

وزجّت بنفسها فى الحفرة على دماغها فماتت ، فسُرِّىَ عن محمد ، وأحسن صلة الجاحظ .

١٥ — باب من مات من شدة الفقر وتضعضعت أعضاؤه من شدّة الوجد

حُكى لنا عن اسحاق بن ابراهيم ، عن الهيثم بن عدىّ ، عن هشام بن حسّان قال : حدّثنا رجل من بنى تميم قال : خرجتُ فى طلب ناقة لى ، فوردتُ على ماء من مياه طىّء ، فاذا بعسكرين أحدهما قريب من الآخر ، وإذا فى أحد العسكرين شابٌّ مدْنَف قد نهكته العِلّة ، فهو كالشنّ البالى ، فدنوتُ لأعرف خبره ، فسمعته وهو يقول:

ألا ما لِلْمَليحـــة لا تَعُودُ أَبُخْلٌ بالمليحة أم صدودُ
مرضتُ فعـــادنى أهلى جميعًا فما لكِ لا نَرَى فيمن يعودُ
فَقَدْتُكِ بينهم فَتَلِفتُ شوقًا وفقدُ الإِلْف يا أملى شديدُ
فلو كنتِ السَّقيمَةَ كُنْتُ أسْعَى اليكِ ولم يُنَهْنِهْنِى الوَعيدُ[1]

قال فسمعتُ كلامه ، فبادرت نحوه ، وبدرنها النساء فتعكفن بها ، فأحَسَّ بها ، فوثب مبادرا نحوها ، فحبسه الرجال ، فجعلت تجذب نفسها من النساء ، ويجذب نفسه من الرجال ، حتى التقيا فاعتنقا وبكيا ، ثم شهقا فخرا ميّتين ،

(١) نهنهه عن الشىء : كفه عنه وزجره .

فخرج شيخ من بعض الأخبية ، فوقف عليهما ، فاسترجع ، ثم قال : رحمكما الله ، أما والله لقد كنتُ لم أجمع بينكما فى حياتكما لأجمعنّ بينكما بعد موتكما ، فأمر بهما فكُفِّنا فى كفن واحد ، ودُفِنا فى قبر واحد ، فسألتُ عنهما ، فقال : هذه بنتى وهذا ابن أخى ، بلغ بهما الحبّ ماترى .

ومن ذلك أيضا ما حُكى عن اسحاق الرافقىّ قال : كنتَ فى مجلس بالرَّقة فى عدة من الظرفاء ، وجماعة من القيان ، ومعنا فتى كأَهْيَأ من رأيت من الفتيان ، وعليه أثرُ ذِلَّةِ الهوى ، يُدِيم الأنين والبكاء ، فتغنّت إحداهنّ :

إِنِّى لأُبْغِضُ كلَّ مُضْطَبِرٍ عن إلفه فى الوصل والهَجْرِ
الصَّبْرُ يَحْسُنُ فى مَواطِنِه ما للفتى المحزونِ والصَّبْرِ

فنظر اليها الفتى وتبادرت عبراته ، ثم وثب على قدميه ووضع يده على رأسه وقال :

غدا يَكثُر الباكون منّا ومنكمُ وتزداد دارى من ديارِكُمُ بُعدا

ثمّ رمى بنفسه فسقط مجدّلا من قامته ، فوثبنا اليه فحملناه ميتا .

ومن ذلك ما حكى عن جميل بن معمر العذرى أنه دخل على عبدالملك بن مروان ، فقال له : ياجميل حدّثنى ببعض أحاديث عُذْرَةَ ، فانه يبلغنى أنّهم أصحاب أدب وغزل ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ، إن آل بُثينة انتجعوا الحىّ ، وقطعوا بلدا آخر ، فخرجت أُريدهم ، فغلطت الطريق ، وجنّنى الليل ، ولاحتْ لى نار ، فقصدتها حتى دنتْ ، ووردت على راعٍ فى أصل جبل قد ألجأ غنمه الى كهف فى الجبل ، فسلّمتُ فردّ علىّ السلام ، وقال : أحْسِبك قد ضللتَ الطريق ، قلت : قدكان ذاك فأرشدنيه ، قال : بل انزل حتى تريح ظهرك وتبيت ليلتك ، فاذا أصبحت وقفتك على الطريق ، فنزلت ، فرحّب بى وأكرمنى ، وعمد الى شاة فذبحها ، وأجّجَ نارا وجعل يشوى ويُلْقِى بين يدىّ ، ويحدّثنى

فى خلال ذلك ، ثم قام بإزار كان معه فقطع به جانب الخباء ، ومهد لى جانبا ، وترك جانبًا خاليًا . فلمّا كان فى الليل سمعته يبكى ويشكو الى شخص كان معه ، فأرقت له ليلتى ، فلمّا أصبحتُ طلبت الأذن فأبى ، وقال : الضيافة ثلاث ، فأقمتُ عنده ، وسألته عن إسمه ونسبته وحاله ، فانتسب لى ، فاذا هو من بنى عذرة وأشرافهم ، فقلت : يا هذا وما الذى أحلّك هذا الموضع ؟ فأخبرنى أنه يهوى ابنة عمّ له وتهواه ، وأنّه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجها منه لِقلّة ذات يده ، وأنّه زوّجها رجلا من بنى كلاب ، فخرج بها عن الحىّ فأسكنها فى موضعه ذلك ، وأنّه تنكر ورضى أن يكون راعياً له لتأتيه ابنة عمه ، فتراه ويراها ؛ وجعل يشكو إلىّ صبابته بها وشدة عشقه لها ؛ حتى إذا جنّنا الليل وحان وقت مجيئها جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقّع لها ، فأبطأت عن الوقت وغلبه الشوق ، فوثب قائما وأنشأ يقول :

ما بالُ مَيّةَ لا تأتى لِعادتِها ... أهاجَها طَرَبٌ أم صدّها شُغُلُ
لكنّ قَلبِيَ لا يُلهِيهِ غَيرُهمُ ... حتّى المَماتِ ولا لى غيرُهمْ أمَلُ
لو تَعلَمِينَ الّذِى بى من فِراقِكُمُ ... لما اعتَلَلْتِ وَلا طابَتْ لَكِ العِلَلُ
رُوحى فداؤُكِ قد هيّجتِ لى سَقَمًا ... تكاد من حَرّهِ الأعضاء تنفَصِلُ
لو أنّ عادِيَهُ منّى على جَبَلٍ ... لزَال وانهدّ من أركانه الجَبَلُ

ثم قال : يا أخا بنى عذرة ، مكانَك حتى أعود إليك ، فإنى أتوهّم أن أمرا عرض لابنة عمّى ؛ ثمّ مضى فغاب عن بصرى ؛ فلم يلبث أن أقبل وعلى يديه شىء محمول ، وقد علا شهيقه ونحيبُه ، فقال : يا أخا بنى عذرة ، هذه بنت عمى أرادت أن تأتينى فاعترضها السّبعُ فأكلها ، ثم وضعها عن يده ، وقال : على رِسْلك حتى أعود إليك ، ومضى فأبطأ حتى يَئِستُ من رجوعه ،

ثم أقبل ورأس الأسد على يده ، فوضعه وجعل ينكتُ على أسنانه ، وهو يقول :

ألا أيُّها اللَّيْثُ المُخِيلُ بنفسه هُبِلْتَ لقد جرَّتْ يداك لنا حزْنا[1]

وغادرْتَني فَرْداً وقد كنتُ آلِفاً وصيَّرْتَ بطنَ الأرض ثم لنا سِجْنَا

ثم قال : يا أخا بنى عُذرة ، إنك ستراني بين يديك ميتاً ، فإذا أنا متُّ ، فاعمد إلىّ وإلى بنت عمى فادرُجْنا فى كفن واحد ، واحفرْ لنا جدثا واحدا وادفنّا فيه ، واكتب على قبرى هذين البيتين :

كُنّا على ظَهْرِها والعَيْشُ فى مَهَلٍ والشَّمْلُ يجمَعُنَا والدارُ والوَطَنُ

ففرّق الدهرُ بالتّشَتيت أُلْفَتنَا فَصَارَ يجمعنا فى بَطْنِها الْـكَفَنُ

ورُدَّ الغنمَ على صاحبها ، واعلِمه بقصتنا ، ثم عَمَد إلى خِنَاق فطرحه فى عنقه ، فناشدته الله ألّا يفعل ، فأبى ، وجعل يخْنُق نفسه حتى سقَط بين يدىّ ميتا ؛ فلما أصبحتَ كفّنْته وابنة عمه كما أمرنى ، ودفنتهما فى قبر واحد ، وكتبتُ البيتين على قبرهما ، ورددتُ الغنم على زوجها وأعلمتُه بقصّته ، فجعل يأكل كفّيه أسفاً ألّا يكون جمع بينهما فى حياتهما ؛ فهذا وما أشبهه كثير جداً .

وروى عن محمد بن جعفر بن الزُبير قال : كنّا عند عروة بن الزبير ، وعنده رجل من بنى عُذرة ، فقال له عروة : يا عُذرىّ بلغنى أن فيكم رِقّةً وغزلا ، فأخبرنى ببعض ذلك ، قال : لقد خلّفتَ فى الحى ثمانين مريضا دَنفا عشقا ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم .

---

(١) هبلت : فقدت ، هلكت .

١٦ — باب من وصف الحب
وما فيه من شدَّة المرارة والكرب

واعلم أن الحب — مع ما فيه من المرارة والنكد ، وطول الحسرات والكمد — مستعذَبٌ عند أربابه . مستحسن عند أصحابه ، حلوٌ لا تَعْدِله حلاوة ولا تعدله مرارة ، قال الكميْت بن زيد :

الحبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ سائلْ بذلك من تَطَاعَمَ أوْذُقِ
ما ذاق بُؤْسَ معيشةٍ ونعيمَها فيماً مَضَى أحدٌ إذا لم يَعْشَقِ

وقال آخر :

يا أيها الدَّنِفُ المعذّب بالهوى إنِّى بأحوالِ الهوى لَعَلِيمُ
الحبُّ صاحِبُه يَبِيتُ مسهَّدًا ويطير عنه فؤادُه ويَهِيمُ
الحبُّ داءٌ قد تضمَّن فى الحشا بين الجوانح والضلوع مُقِيمُ
الحبُّ لا يَخْفَى وإن أخفيتَهُ إن البكاءَ على المُحِبِّ نَمُومُ
الحب فيه حلاوةٌ ومرارةٌ والحبُّ فيه شقاوةٌ ونَعِيمُ
الحبُّ أهْوَنُ ما يكون مبرِّحٌ والحبُّ أصغرُ ما يكون عظِيمُ[1]

أنشدنى أحمد بن يحيى ثعلب :

سَلْنى عن الحبِّ يا مَنْ ليس يعرفهُ ما أطْيَبَ الحبَّ لولا أنه نَكِدُ[2]
طَعْمَانِ حُلْوٌ وَمُرٌّ ليس يَعْدِلُهُ فى حَلْق ذائقِهِ مُرٌّ ولا شَهْدُ

وأنشدنى ابراهيم بن محمد الواسطى لنفسه :

سَلْنِى عن الحب فإنِّى به أعلمُ ذى وَطْءٍ على نَعْل

---

(١) برح به الأمر : أتعبه وآذاه أذى شديدا . (٢) النكد : الشديد العسر .

طعمانِ ضِـــدَّانِ، فُمستعذَبٌ ... وآخَرٌ أشْرَى مِنَ القَتْلِ[1]

ولبعض المتأدبين أيضا فى مثله :

سَلْنِي عن الحبِّ يا مَنْ ليس يعلَمُهُ ... عندى مِنَ الحبِّ إِنْ ساءَ لَتُمُ الخَبَرَ

أنا الذى بالهوى ما زِلتُ مشتهرًا ... لاقيت فيه الذى لم يَلقَهُ بَشَرُ

الحبُّ أولُه عــذبٌ مذاقتُهُ ... لكنْ آخِرَه التنغيصُ والكَدَرُ

كَمْ تَيَّمَ الحبُّ أقوامًا وذَلَّلَهُمْ ... وكم يَدٍ للهوى قدوارتِ الحُفَرُ

أنشدنى ابن أبى الرعْد :

مَنْ كان لم يَدْرِ ما حبٌّ وصَفْتُ له ... إن كان فى غَفْلَةٍ أو كان لم يَجِدِ

الحبُّ أولُه عذبٌ وآخِرُهُ ... مثلُ الحَزازة بين القلب والكَبِدِ[2]

أنشدنى الوليد بن عُبَيْد البحترىّ لأبى العتاهية .

أخلاى بى شَجْوٌ وليس بكم شَجْو ... وكلُّ امرىءٍ مما بصاحبه خلو

أذاب الهوى جسمى ولحمى وقوّتى ... فلم يَبْقَ إلا الرُّوح والجسد النّضْو[3]

رأيتَ الهوى جمْرَ الغضَى ، غيرَ أنّه ... على كل حال عنــد صاحبه حلْو

وما مِنْ محبٍّ نال مِمَّن يحبُّه ... هوًى صادقًا إلاّ سَيَدْخلُه زَهْو

قال وأنشدنى ابن أبى الدُّنيا :

الحبُّ يترك من أحبَّ مدلَّهًا ... حَيْرَانَ أو يَقْضى عليه فيُسْرِع[4]

الحبُّ أهونُه ثقيــلٌ فادحٌ ... يُهْوِى الجليدَ من الرِّجالِ فَيَصْرَع[5]

---

(١) أشرى : أشد .

(٢) الحزازة : داء يظهر فى الجسد فينتشر ويتسع ، وهو القوباء .

(٣) النضو : المهزول . (٤) دلهه : حيره وأدهشه .

(٥) الجليد : ذو القوة والصبر والصلابة .

١٧ — باب ما فى معرفة الهوى

وما كان اسمه فى البادية أوّلا

واعلم أنّ الهوى عندهم هو الهَوان الصُّراح ، والبلاء المُتاح ، لأنه يهين الكريم ، ويُذل العزيز ، ويُدَلّهُ العاقل ، ويحطّ منزلة الشريف .

وسُئلتْ أعرابية عن الهوى ، فقالت : الهوى هو الهَوان ، وانما غُلِط باسمه ، واشتُقّ من طبعه ، ولن يعرف ما أقول ، إلا من أبكتْه المنازل والطلول ، وأنشأت تقول :

ليت الهوى لذوى الهوى لم يُخْلَقِ ... بل ليت قلبى بالهوى لم يَعْلَقِ

إنَّ الذى عَلِقَ الهوى بفؤاده ... كمنوَّطٍ دون النساء مُعَلَّقِ

لا يستطيع نزولَه لِشَقائِهِ ... لكنْ اليه كلُّ هَمٍّ يرْتقِى

إن الهوى لَهُوَ الهوانُ بعينِهِ ... ما ذاقَ طعْمَ الذُّلّ مَنْ لم يَعْشَقِ

وأُنْشِدْتُ لغيرها أيضا :

إن الهوانَ هو الهوى نُقِصَ اسْمُهُ ... فاذا هَوِيتَ لقد لَقِيتَ هَوانَا

وإذا هويتَ لقد تعبَّدَك الهوى ... فاخْضَعْ لحبِّك كائنًا من كانَا

أنشدنا أبو عبد الله الواسطىّ لنفسه :

لم يَدْرِ ما بؤسُ الحياة ولينُها ... إلاّ الذين مِنَ الهوى بمكان

كم مِنْ عزيزٍ قد ألمَّ به الهوى ... فأقرَّ بعد كرامةٍ بهوان

ليس الهوى إلا الهوانُ ونونُه ... نُقِصَتْ كفِعْل الزُّور والبُهْتان

لِينُ الحياة اذا نظرتَ وبؤسها ... بين الوصال وغُصَّةِ الهِجْران

ما العشق عندى باختيارٍ إنّما ... ذاك البلاءُ يتاحُ للإنسان

قال وأنشدنى أبو العَيْناء :

وما كَيِّسٌ فى الناس يُحْمَدُ رَأْيهُ   فَيُوجَد إلا وهْو فى الحبِّ أحْمَق[1]

وما من فتًى ما ذاقَ بُؤْسَ معيشةٍ   من الدَّهر إلاّ ذاقها حين يَعْشَق

١٨ — باب ما سُئل عنه أهل الصدق

من تمام خَلات العشق

قال الأصمعىّ لأبى وائل الأضاخى : ما تقول فى العشق ؟ فقال : إن لم يكن عُصَارَةَ من الشّجر ، فهو ضربٌ من الجنون ، وأنشأ يقول :

بقلبيَ شىءٌ لست أعرف وَصْفَه   على انه ما كان فَهْوَ شَـديدُ

تمرُّ به الأيّام تَسْحَبُ ذَيْلها   فَتَبْلَى به الأيّامُ وَهْو جَدِيد

لعمرى إنّ بذلك ما وجب لهم الدعاء ، فصار مفترضًا على الأدباء ، كالفرض اللازب ، والحقِّ الواجب ، الجليل الخَطب ، وفادح الأمر .

أخبرنى أحمد بن عبيد قال : أخبرنى الأصمعىّ قال : رأيت أبا السّائب المخزومىّ متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول : اللهمّ ارحم العاشقين ، واعطف عليهم قلوب المعشوقين ، بالرأفة والرحمة يا أرحم الراحمين ، فقلت : يا أبا السائب ، أفى هذا المقام تقول هذا المقال ؟ فقال : اليك عنى ، الدعاء لهم أفضل من حَجّة بعمرة ، ثم أنشأ يقول :

ياهَجْرُ كفَّ عن الهوى وَدع الهوى   للعاشقين يَطيب يا هَجْر

ماذا تريد من الذين جُفونُهُمْ   قَرْحَى وحَشْو صدورهمْ جَمْر[2]

---

(١) الكيس : الظريف ، الفطن .

(٢) القرحة : الجراحة المتقادمة التى اجتمع فيها القيح .

وَسوابقُ الْعَبَرَاتِ فوق خدودِهِمْ ... هَطْلاً تلوح كأنَّها القَطْرُ[1]
صَرْعَى على جِسْر الهوى لِشقائِهِمْ ... بنُفُوسِهِمْ يتلاعبُ الدَّهْرُ

قال : وخُبِّرتُ عن الأصمعى أيضا أنه قال : رأيت جارية وهى تقول : اللهم مالِكَ يوم القضاء ، وخالِقَ الأرض والسماء ، ارحم أهل الهوى واستنقذْهم من عظيم البلاء ، واعطف عليهم قلوبَ أودَّائهم بالصفاء ، فانك سميعُ النَّجْوَى ، قريبٌ لمن دعا ، ثم أنشأت تقول :

يا رَبِّ إنك ذُو مَنٍّ ومَغْفِرَةٍ ... بيِّتْ بعافيـةٍ منك المُحِبِّينا
الذاكِرين الهوى من بعدما سَهِرُوا ... حتَّى يَظَلُّوا على الأيدى مُكِبِّينا

فقلت : ياهذه أتغنين وأنت فى الطواف ؟ فقالت : إليك عنِّى ، لا يُرهِقك الحب ؛ فقلتُ لها : وما الحب ؟ وأنا به أعرف منها ، فقالت : جَلَّ أن يخفى ، ودَق عن أن يُرى ؛ له كمون ككمون النار فى الحجر ، إن قدحتَه أوراك ، وإن تركته توارى ؛ قال : فتبعتها حتى عرفت منزلها ، فلما كان من الغد جاء مطر شديد ، فمررت ببابها وهى قاعدة مع أتراب لها زُهْرٍ[2] يقلن لها : لقد أضرَّ بنا المطر ، ولولا ذلك لخرجنا إلى الطواف ، فأنشأت تقول :

قالوا أضرَّ بنا السحاب بقطْره ... لمَّـا رأوْه لعَبْرَتى يَحْكِى
لا تَعجبوا ممّا ترون فإنما ... هـذا السحابُ لِرَحْمَتِى يبكِى

وزعم قوم أنَّه لا ذنب على أهل الهوى ولا وِزر ، وأن خطاياهم تمَحَّص عنهم بطول بلائهم ، وكثرة زفراتهم ، وما لقوا من الشقاء بأودَّائهم

وأخبرنى أحمد بن يحيى ، عن عبد الله بن شبيب ، عن رجل ذكره ، قال :

---

(١) الهطل : المطر الضعيف الدائم . القطر : المطر .

(٢) زهر : مشرقات اللون أو الوجه .

كنت عند مالك بن أنس ، فأتاه شابٌ فقال : إنى قد قلت أبياتًا ذكرتك فيها فاسمعها ، قال : لا حاجة لى فيها ، فقال لى : أُحِبّ أن تفعل ، قال : هات ، فقال :

سَلوا مَالِكَ المفتىّ عن اللهو والصِّبَى ... وحُبِّ الحِسان المُغْنِجات الفَوَارِكِ

يخبّركمْ أنّى مُصيبٌ وإنّما ... أُسَلِّى هُمومَ النفسَ عنى بذلكِ

فهل فى محِبٍّ يكتم الحبّ والهوى ... أثامٌ وهل فى ضَمّةِ المتهالِكِ ؟

فَسرّىَ[1] عن مالك وقال : لا إن شاء الله ، وكان ظنّ أنّه هجاه .

أخبرنى أحمد بن يحي ثعلب ، عن عبدالله بن شبيب ، عن شيخ من عاملة، قال : مرّ ابن مَرْجانة الشاعر بسعيد بن المسيّب فقال : هذا ابن مرجانة ؟ قالوا : نعم ، قال : هذا الذى يقول :

سألت سعيد بن المسيّبِ مفتيَ الْ ... مدينة هل فى حبِّ دهماءَ من وزر؟[2]

فقال سعيـــد بن المسيّب إنّما ... تُلام على ما تستطيع من الأَمْرِ

والله ما سألنى إنسان عن شىء من هذا ، ولو سألنى لأجبت .

قال : وسئل شَريك بن عبد الله القاضى عن العشّاق ، فقال : أشدّهم حبّا أعظمهم أجرا .

وأنشدنى محمد بن يحي لِمُسْلم :

فو الله ما أدرى ، وإنّى لسائلٌ ... بمكّةَ أهْلَ العلم : هل فى الهوى وزْر؟

وهل فى اكتحال العَينِ بالعين ريبةٌ ... إذا ما التقى الإلفان ، لاَ بلْ به أجْر

وأنشدنى ابراهيم الازدىّ لنفسه :

---

(١) سرى عنه : زال عنه الغضب أو الهم .

(٢) دهماء : اشتد سوادها حتى ذهب البياض . الوزر : الاثم .

ما العشق فى الأحرار مستنكرٌ   وما على العاشق من وزر

قال وأنشدنى الجماش :

إذا قبّل الانسانُ إنسان يشتهى   ثناياه لم يأثمْ وكان له أجرا

فان زاد زاد اللهُ فى حَسناتهِ   مثاقيل يمحو اللهُ عنه بها وِزرا

وقال سائب راوية كثير : حضرتُ مع كثيرَ عندابن أبى عتيق ، فانشدنا أبيات ابن قيس الرُّقيّات التى يقول فيها :

خَبِّرونى : هل على رَجلٍ   عاشقٍ فى قُبلةٍ حرجُ ؟

فقال كثيّر : لا إن شاء الله ، ونهض

وأنشدنى علىّ بن العباس بن الرومىّ :

أيها العاشقُ المعذَّبُ اصبِرْ   فخطيّاتُ ذى الهوى مغفورَهْ

زَفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ   من غزاةٍ وحَجّةٍ مبرورَهْ (١)

وقال المؤمّل ، وأحسن والله فى قوله :

صِفْ للأحبَّة ما لقيت من سَهَرٍ   إن الأحبَّة لا يدرون ما السَّهَرُ

حَسْبُ المحبّين فى الدنيا عذابُهمُ   واللهِ لا عذّبتُهمْ بعدها سَقَرُ

وقال الأصمعى : رأيت جارية بالطواف وهى تقول :

لن يَقْبل الله من معشوقةٍ عَمَلاً   يومًا وعاشقُها حَيْرانُ مهجورُ

وليس يأجُرها فى قتل عاشِقِها   لكنَّ عاشقها لا شكَّ مأجورُ

فقلت : يا جارية ، أفى هذا المقام ، أما حياءٌ فيردعك ! فانشأت تقول :

بيضٌ أوانِسُ ما هَمَمن بريبة   كظباءِ مكّة صَيْدُهنّ حَرَام

يُحسَبْنَ مِنْ لِينِ الكلام زوانيًا   ويصدُّهنّ عن الخنا الاسلامُ (٢)

(١) المبرور من الأفعال : ما لاشبهة فيه ولا كذب .

(٢) الخنا : الفحش .

وقد قيل أيضا : إن قتيل الهوى لا قَوَدَ له[1] ، وإن دماء أهل الهوى تبطل وتهدر

ومن ذلك ما حكى عن ابن عباس أنه أُتى بشابٍّ محول قد صار كالشنّ[2] البالى ، فقيل له : استشفِ الله لهذا المريض يا ابن عمّ رسول الله ، فقال له ابن عباس : ما علتك يا فتى ؟ فلم يُحرِ اليه جوابا ، ثم رفع رأسه ، وقال بلسان فصيح طليق :

به لوعةٌ لو تَشتكى الصُّمُّ مثلَها　　تفطّرتِ الصمُّ الصِّلابُ وخَرّتِ

وَلَوْ قَسَمَ الله الذى بى من الهوى　　على كلّ نفسٍ حظَّها ما أبلَّتِ

ثمّ خفت خفتةً ، ثمّ فتح عينيه وهو يقول :

بنا من جَوَى الحبّ المبرّح لوعةٌ　　تكاد لها نفسُ الشفيق تَذُوبُ

ولكنّما أبقَى حُشاشةَ ما ترى　　على ما به عُودٌ هناك صَلِيبُ[3]

فقال ابن عبّاس : ممن الرجل ؟ فقال : من بنى عُذرة ، ثم شهق شهقة فمات ، فقال ابن عباس لجلسائه : هل رأيتم وجها أليَقَ ، ولسانا أذلق من هذا ؟ هذا والله قتيل الهوى ، لا قَوَدَ له ولا ديةَ ، وإلى أرغب فى العافية ممّا نرى .

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب :

اذا هُنّ ساقطنَ الحديث لِذِى الهوى　　سُقوطَ حصى المُرْجان من كفّ ناظِمِ

رَمَيْنَ فأصمين القلوبَ فما ترى　　دَمًا سائلاً إلا جَوًى فى الحَيازِمِ[4]

فأىُّ دَمٍ لو تعلمينَ جَنَيْتـه　　على الحرّ جانى غير مثله غيرُ سالم

---

(١) القود : القصاص .　　(٢) الشن : القربة الخلق .

(٣) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

(٤) أصمى الصيد : رماه فقتله مكانه .

أما أنه لو كان غيرك أرقلت ... اليه القنا بالمرهفات الصوارم[1]

ولكن وبيت الله ما ظل مسلماً ... كغر الثنايا واضحات المعاصم[2]

وأنشدنى عبد الله الواسطى لنفسه

قضى الله فى القتلى قصاص دمائهم ... ولكن دماء العاشقين جبار[3]

تطل دماء العاشقين وثأرها ... لدى الحدق المرضى وذلك ثار

قال الأحوص بن محمد الأنصارى ،

ماتذكر الدهر لى سعدى وان بعدت ... إلا ترقرق ماء العين فاطردا

يا للرجال لمقتول بلا ترة ... لا يأخذون له عقلاً ولا قودا[4]

وحدثنى العنزى أبو على ، عن الزبير بن بكار ، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن جندب عن أبيه قال : خرجت مع أبى سفيان ، فلقينا نسوة ينظرن العقيق ، فيهن امرأة حسناء العين ، فقال أبى :

ألا يا عباد الله هذا أخوكم ... قتيلاً فهل فيكم به اليوم ثائر ؟

خذوا بدمى إن مت كل خريدة ... مريضة طرف العين والجفن ساحر[5]

قال : فالتفتت إلى امرأة ، فقالت : يا بنى احتسب[6] أباك واغتنم نهيبك[7]

---

(١) أرقل : أسرع .

(٢) طل الدم : هدر ، أو لم يثأر له .

(٣) جبار : الهدر ، يقال : ذهب دمه جبارا . أى لم يؤخذ بثأره .

(٤) الترة : الثأر . العقل : الدية .

(٥) الخريدة : من النساء : البكر التى لم تمسس قط . وقيل : هى الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المستترة قد جاوزت الاعصار ولم تعنس .

(٦) احتسبه : فقده كبيراً .

(٧) تناهبت الإبل الأرض : أخذت بقوائمها منها أخذاً كثيراً ، والمراد : انتهز سرعة ساقيك وفر .

فان قتيلَنا لا يُودَى[١] . وأسيرنا لا يُفْدَى[٢]

وأنشدنى أحمد بن يحيى ، لجرير بن الخَطَفَى :

هَلْ فِى الغَوَانِى لِمَنْ قَتَلْنَ من قَوَدٍ ... أو من دِيَاتٍ لِقَتْلَى الأَعْيُنِ الحُورِ

تَبيت ليلَكَ فى وَجْدٍ تُخَامِرُهُ ... كأَنَّ فى القلب أطرافَ المَسَامِيرِ

ما كنتُ أَوَّلَ محزونٍ أَضَرَّ به ... بَرْحُ الهوى وعذابٌ غيرُ تَفْتِيرِ

وقال أيضا :

اذا كَحَلْنَ عُيُونًا غيرَ مُقْرِفَةٍ ... رَيَّشْنَ نَبْلاً لأصحاب الصِّبَى صُيُدًا[٣]

ما بالُ قَتْلاكِ لا تَخْشَيْنَ طالبَهُم ... لم تَضْمَنِى دِيَةً منهم ولا قَوَدَا

وقال عمر بن لجأ :

تَرَاءَتْ كى تَكيدَكِ أُمُّ عَمْرٍو ... وكَيْدُكَ بالتَّبرُّح ما تكيد

وكيف قتلتِنِى يا أُمَّ عمرٍو ... ولا قَوَدٌ عليكِ ولا حُدُودُ

وقال أعرابى ، وما أساءَ :

أقاتلَتِى يا للرجال حبيبةٌ ... إلىَّ بلا جُرْمٍ لديها ولا ذَحْلِ

ففِيمَ دِماءُ العاشقين مُضَاعَةً ... بلا قَوَدٍ عند الحِسان ولا عَقْلِ

وأحسن والله المؤمَّل حيث يقول :

إنّى قُتِلْتُ بلا جُرْمٍ وقاتِلَتى ... يا قوم جارية فى طرفها حَوَرُ[٤]

---

(١) ودى القاتل القتيل : أعطى ديته .

(٢) فدى الرجل من الأسر : استنقذه بمال أو سواه .

(٣) المقرفة : المتهمة. ريش السهم : لزق عليه الريش .

(٤) حور العين : اشتداد بياض بياضها وسواد سوادها .

لما رَمَتْ مُهجتى قالت لجارتها ... إنّى قَتَلْتُ قتيلاً ماله خَطَرُ
قَتَلْت شاعرَ هذا الحىّ من مُضَرٍ ... فالله يعلم ماتَرضَى بذا مُضَرُ
شكوتُ مابى إلى هِندٍ فما اكترثَتْ ... يا قلبها أحديدٌ أنت أم حَجَر
إن كنت جاهلةً بالحُبّ فانطلقى ... إلى القبور ففِيمَنْ حلها عِبَرُ

وقد قيل أيضا : إن قتيل الهوى شهيدٌ على ذلك أجمع ، فالله يَعلم للأدباء وأهل العلم والظرف لموجود الأخبار ومُسْنَد الآثار

حدثنا قاسم الزُّبَيْدِىّ ، باسناد ذكره عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعشّق فعفّ فهو شهيد

وقال بشّار بن بُرد العُقيلىّ :

قُرْبُ دارِ الحبيب قرّةُ عينٍ ... وكأنّ البعاد فى القلب ثُكلُ
إنّ مَوْتَ الذى يموت مِنَ الحُـ ... ـبّ عفيفاً له على الناس فَضْل

ولبعض المتأدّبين :

ليتنى مُتُّ والهوى داءُ قلبى ... إن مَيْتَ الهوى لَمَيْتٌ شَهيدُ

ولقد أحسن جميل حيث يقول

ألا ليت شِعْرِى هل أبِيتَنَّ ليلةً ... بوادى القرَى إنّى إذاً لَسَعيدُ
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بِغَزْوَةٍ ... وأىَّ جِهادٍ غيرَهنّ أُرِيدُ
لكلٍّ حديثٍ بينهنّ بشاشةٌ ... وكلُّ قتيلٍ بينهنّ شَهِيدُ

وَمَلُحَ الحَكَمِىّ حيث يقول :

ولقد كُنّا رَوِينا ... عن سعيدٍ عن قَتَادَهْ
عَنْ سعيدِ بن المسيَّبْ ... أنّ سَعْدَ بْنَ عُبادَهْ

قال مَن مات مُحِبًّا فـلَهُ أَجرُ الشَّهادَهْ

واعلم بأنّ العشق يحسن بأهل العفّة والوفاء، ويقبح بأهل العهر والخَنا، مع أنّ الهوى قد فسُد وقلّ الوفاء، وكثرت الخيانة والغدر، واستعمل الناس فى العشق شيئا ليس من سُنّة الظرف ولا من أخلاق الظرفاء. وذلك أن أحدهم متى ظفر بحبيبه، وأصاب الغفلة من رقيبه، لم يعفّ دون طلب المغنى، فهذا فسادُ الحبّ، ودمارُ العشق، وبُطلانُ الهوى، وتكديرُ الصّفاء.

أنشدنى عبد الحميد الملطىّ :

قَدْ فَسد الحبُّ وهان الهوى وصار مَنْ يَعشق مُسْتَعْجِلَا

يريد أن يَنكح أحبابَه من قبل أن يَسهر أوْ يَنْحَلَا

ولأحمد بن أبى فَنَنٍ فى مثل ذلك :

أَنا لا أَبْدَا بغـدرٍ أبدَا فاذا ما غَدرَتْ لم أَتْرِكْ[1]

واجدًا منها بديلاً مثلَ ما وَجَدَتْ منّى بديلاً لا تَشُكْ

أترانى أقعُدُ الليْلَ لها ساهرًا أطلبُ وَصْلاً قد هَلَكْ

وَهْىَ فيما تشتهى لاهيةٌ مِتُّ إن دارَ بهذيْنِ فَلَكْ

كانَ للناس وفاءٌ مرّةً فانقضى وانحلّتِ اليومَ التّكَكْ

وحدّثنى أبو العيناء قال : حدثنى الجاحظ قال : كتب بعضُ الظرفاء الى مُلْكٍ جارية أبى جعفر :

يامُلْكُ قد صرتُ إلى خُطّةٍ وكنتُ فيها منك ذا ضَيْمِ

يلومنى الناسُ على حُبّكُمْ والناس أَوْلى فيك باللوْمِ

(١) اترك : أهمل ، أغفل .

فكتبت اليه :

إنْ تَكُنِ الغُلْمَةَ هاجَتْ بِكمْ   فَسَكِّنِ الغُلْمَةَ بالصَّوْم[1]

ليس بك الشَّوْقُ ولكنَّما   تدور من هذا على الكَوْمِ[2]

واعلم أَنّ العشق لا يكون مع الفسق ، ومتى مازج العشقَ الفسقُ ضَعُفت قُواه ، وانقصمت[3] عُراه[4] وهم لا يريدونَ غير الرَّفَثِ[5] ، ويسمّونه مَسامير الحب ، وزعموا أن أَسْبابَ الحبّ لا تتّصل إلا به ، ولا يزال مُنْحَلاً حتى يشدّها ذلك ، وينشدون :

العشق داءٌ دَوِيٌّ لا دَواءَ له   الا العِناقُ وإِفْشاءُ السَّريراتِ

وليس يلتذّ طيبُ العيش من أحدٍ   الا بِعَضِّكَ أَوْ رَشْفِ الثّنيّاتِ

وَوَضْعِكَ الصَّدْرَ فوق الصدرِ تجمعُهُ   ضَمًّا إِليك على ظَهْرِ الحَشيّاتِ

وينشدون أيضا فى مثل ذلك :

رأَيت الحبَّ ليس له دواءٌ   سِوَى وَضْعِ البُطُونِ على البُطُونِ

وإلصاق الثَّنايا بالثنايا   وأَخْذٍ بالمناكِبِ والقُرُونِ

وقد ناظرتُ بعضهم مرّةً من المِرَر ، فاحتج بخبر ابن عبّاس ، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فاحتجُّوا بظاهر الخبر ، ولم يفحصوا عن التأويل ، وهذا خلاف ما يفعل أَهل الظرف والآدب ، وغير هذا جاء عن العرب .

وقد بلغنى عن الأصمعى أنه قال : قلت لأعرابى مرّة : ما العشق فيكم ؟

(١) غلم غلمة : كان منقادا للشهوة .

(٢) الكوم : الفرج .

(٣) انقصم : انكسر .

(٤) العرى : جمع عروة : ما يوثق به .

(٥) الرفث : التكلم بالفحش .

قال: النظرة بعد النظرة ، وإن كانت القُبلة بعد القبلة، فهو الوصول الى الجنة ! فقلت : ليس العشق عندنا كذلك ؛ قال : فما هو عندكم؟ قلت : تَفرق بين رجليها وتحمل نفسك عليها ! ! فقال : بأبي أنت ، لستَ بعاشق ، إنما أنتَ طالب ولد .

١٩ — باب ماجاء فيمن تعفف فى محبته ورعى عقود عهود مودّته

وما وجدنا أحدا من العرب يفعل ذلك ، ولا صمد نحوه ، وقد كان الواحد منهم يعشق من أول دهره الى آخره ، لا يحاول فسقا ، ولا يَقرب رفثا ، ولم يكن لهم مُراد إلا فى النظّر ، ولا حظّ فى غير الاجتماع والمؤانسة ، والحديث والشعر ، كما قال الفرزدق :

وجدتُ الحبّ لا يشفيه إلا ... لِقاءٌ يقتل العَلَلُ النِّهالاَ
أُحِبُّ من النساء وهنّ شتَّى ... حديثَ النَّزْرِ والحَدَقَ الكِلالا
مواقِعَ لِلحَرامِ وكُلّ نَحْسٍ ... وتُبذِلُ ما يكونُ لها حَلالاَ

وكان الواحد منهم اذا تعلّق خُلّةً لم يفارقها حتى المَمات ، ولم يشغل قلبه بغيرها ، ولم يهمّ بالسلو عنها ، وقصر طرفُه عمن سواها ، وكذلك هى أيضا ، كانت له بتلك المنزلة ، فأَيّهما هلك صاحبه ، قتل الآخر نفسه فى أثره ، أو عاشَ حافظا لودّه ، قائما بعهده ، لا ينسى ذكره ، ولا يصل غيره ؛ فاستحسن الناسُ المللَ والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وصار أشدهم ظرفاً ، وأحسنهم إلفا ، يعشق السنين الكثيرة ، والدهور الطويلة ، ويتوهم بفعله أنّه عاشق ، فاذا فقد حبيبه يوما واحدا استبدل به سواه ، وينشدون فى ذلك:

إِفخرْ بآخِرِ مَنْ بَلِيتَ بحُبّـِهِ　　لا خيرَ فى حُبِّ الحبيبِ الأوّلِ
أتَشُكُّ فى أنّ النبيَّ محمّـــدًا　　ساد البريّةَ وهو آخِرُ مُرْسَلِ

وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف ، ولـكن قد أحسن أبو تمّام الطائىّ حيث يقول :

البَيْنُ جرّعـــنِى نَقِيعَ الحَنْظَلِ　　والبَيْنُ أثكلَنى وَإنْ لم أُثْـكَلِ (١)
ما حَسْرتى أن كِدْتُ أقضِى إنّما　　حَسَرَاتُ نفسى أنّنى لم أفْعَـلِ (٢)
نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ من الهوى　　ما الحبُّ إلاّ لِلْحَبِيبِ الأوّلِ
كم منزلٍ فى الأرض يألَفُـهُ الفتى　　وحنينه أبداً لِأَوّلِ مَنْزِلِ

على أنه ليس التنقل من حبيب أوّلٍ إلى حبيب ثانٍ بحسَنٍ ، وإنما الحبُّ ما أقام عليه القلب ، فلم يجد التخلّص منه إلى غيره ، كما قال جرير :

أخالدَ قد هَوِيتُكِ بعـــد هِنْدٍ　　فَشَيّبَنى الخوالدُ والهُنُـودُ
هَوًى بتِهامةٍ وهوى بنَجْدٍ　　فَتُبْلِينى التهائمُ والنُّجـــودُ (٣)

ولا كقوله أيضا :

أُحِبُّ ثَرَى نجدٍ وبالغَوْرِ حاجةٌ　　فغارَ الهوى يا عبدَ قيسٍ وأَنجدَا

ولا كقول الآخر :

إنى سأُبْدِى الحبَّ فيما أُبْدِى　　لى شَجَنَانِ شَجَنٌ بنَجْدِ (٤)
وشَجَنٌ لى ببلادِ الهِنْدِ

---

(١) البين : الفراق . جرعنى : سقانى بلعا . الحنظل : نبت مر . أثكلنى : أفقدنى .
(٢) كدت : قربت . أقضى : أموت .
(٣) تهامة : بلاد جنوبى الحجاز . نجد : قسم من بلاد العرب مرتفع أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام .
(٤) الشجن : الهم ، الحزن .

ولا كقول الآخر :

هوى بالغَوْر لى وهوى بنَجْدٍ   فما أدرى أأُنْجِدُ أم أغُورُ[١]
بِكلٍّ حاجةٌ وهوًى مُقِيمٌ   بقلبك قد تضَمَّنه الضَّمِيرُ
بِشَرْقِىِّ العِرَاقِ بباب عمرو   وبالغَوْرَيْنِ زينبُ والقَدُورُ

هذا والله من ألفاظ الشعر أسمج جدًّا ، وقد كذب هؤلاء وادّعوا وجدًا ، وهل يجتمع وجْدانِ فى موضع ؟ ولكن قد أحسن جميل ، حيث يقول :

وَقلتُ لِنِسْوانٍ تعرّضن دونها   إليكنَّ إنِّى غَيْرَكُنَّ أرِيدُ

وحيث قال أيضاً :

وكم من بديلٍ قد وجدنا وطُرْفةٍ   فَتَأْبَى علىَّ النفسَ تِلْكَ الطَّرائفُ

فهذا هو الصادق الهوى ، الخالص الوفاء ، لا جريرٌ وصاحبه ، ولا الذى يقول :

أرَى ذا فأهْوَاهُ وأبصر غيرَهُ   فأترك ذا ثم استَبِدُّ بذا عِشْقَا
ثمانون لى فى كلِّ يومٍ أحِبُّهم   وما فى فؤادى واحدٌ منهم يَبْقَى

فقبح الله هذا اللفظ لفظًا ، ولا أُعطِىَ قائلُه حظًّا ، فليس من شعر وَامِقٍ[٢] بل هو من فعل مُماذق[٣] . ولا والله ما التنقل من شأن الأدباء ، ولا الاستبدال من فعل الظرفاء ، وإنما الهوى ما حسُن سريرته ، وهيهات أنَّ ذوو الوداد الخالص ، والصفاء الدائم ، والحبّ اللازم ، وذوو الحفاظ ، ورعاة العهود ، والمتمسكون بالوفاء ، والراغبون فى صحيح الاخاء إليك ، فقد تنقّضت وثائق

---

(١) الغور : ما انحدر واطمأن من الأرض . والنجد : ما أشرف من الأرض وارتفع .

(٢) الوامق : المحب .   (٣) الماذق : من كان وده غير خالص .

الحب ، وانفصمت عُرَى الهوى ، وتقطعت أسباب العشق ، وتكدّر صافى المودّة ، والناس كما قال الشاعر :

قَلَّ الثِّقاتُ فما أدرى بِمَنْ أثِقُ ... لم يَبْقَ فى النَّاسِ إلا الزُّورُ والمَلَقُ

وإنَّ الغدر فى النساء طبع ، والمطل منهنَّ غريزة ، وهو فى النساء أكثر منه فى الرجال ، فقد أنشدنى بعض الأدباء :

وكُنَّا جعلنا اللهَ شاهِدَ بَيْنِنا ... وفى الله بين المسلمين شهيدُ [١]

فَخِسْتِ بعهد الله لو تعلمينه ... وفيكنَّ مَن ليست لهنَّ عُهُودُ [٢]

واعلم أنهنَّ لا عهود لهنَّ ، ولا وفاء لحبهنَّ ، ولا دوام لودّهنَّ ، وإنَّ أقبح ما روى عن غدرهنّ ، ما حدثنيه ابن أبى خيثمة ، عن شيوخه : أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل كانت عند ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فأحبها حبًّا شديداً شغلته عن تجارته ، فأمره أبو بكر فطلقها ، ثم اطّلع [٣] عليه وهو يقول :

فلم أرَ مثلى طلق اليومَ مثلَها ... ولا مثلُها فى غير جُرْمٍ تُطَلَّقُ

لها خُلُقٌ سهلٌ وحُسنٌ وَمَنْصِبٌ ... وَخَلْقٌ سَوِيٌّ ما يُعاب ومَنْطِقُ

أعاتِكَ قلبى كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إليكِ بما تخفى النفوسُ مُعلَّقُ

أعاتِكَ لا أنساكِ ما حجّ راكبٌ ... وما لاح نجمٌ فى السماءِ مُحَلِّقُ

فرقَّ عليه أبو بكر ، وأمره فراجعها ، فقال لما رجعت إليه :

أعاتِكَ قد طُلِّقْتِ مِنْ غيرِ بِغْضَةٍ ... ورُوجِعْتِ للامر الذى هو كائنُ

كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ ... على النّاس فيه أُلْفَةٌ وَتَبَايُنُ [٤]

---

(١) البين : الصداقة .
(٢) خاس بالوعد : نكث وغدر .
(٣) اطلع عليه : أتاه فجأة .
(٤) باينه : هاجره

وما زال قلبي للتفرُّق بائن فقلبي لِما قد قرّب اللهُ ساكِنُ
لِيَنْهِكِ أنّى لم أجِدْ منكِ سخطةً وأنّك قد جُلّت عليك المَحاسِنُ
وأنّكِ ممّن زيّن اللهُ أمْرَهَا وليس لِما قد زيّن اللهُ شائنُ

فلم تزل عنده حتّى قتِل يوم الطائف ، رُمى بسهم فمات ، فجزعت عليه جزعا شديدا ، وقالت ترثيه :

أآليتُ لا تنفكّ عيني حزينةً عليكَ ولا ينفكّ جلدِيَ أغبَرَا
فَللّهِ عَينًا مَنْ رأى مثلَه فَتًى أشدَّ وأحْمَى فى الهياج وأصبَرَا
إذا شَرَعَتْ فيه الأسنّة خاضَها إلى الموت حتّى يَترك الرمحَ أشقَرَا

ثم خطبها عمر بن الخطاب فزوجها ، فأولم عليها ودعا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فقال له علي بن أبي طالب : إيذنْ لى لأُدْخل رأسي إلى عاتكة أُكلّمها ، قال : افعل ، فأَدْخَل رأْسه اليها فقال ، ياعدَيّةَ نفسها ، أهكذا كان قولك :

أآليت لا تنفكّ عيْني سخينةً عليْك ولا ينفكّ جلدِيَ أغبَرَا

فبكَتْ ، فقال له عمر : ما دعاك إلى هذا يا أَبا الحسن ، فغفر الله لك ، إنّهنّ يفعلن هذا ؟ قال : أَردتُ أَنْ أُعلمها أَنها لا عهدَ لهنَّ ، فمكثت عنده حتى قُتِلَ عنها ، قتله أَبو لؤلؤة ، فقالت ترثيه :

عَيْن جُودِي بعبرةٍ ونحيب لا تَمَلّي على الأمير النَّجيبِ
فَجعَتْنى المَنون بالفارس المُعْ لَمِ يومَ الهياج والتَّأنيبِ
عِصْمةُ اللهِ والمُعِينُ على الدّهْ رِ غِيَاثُ الملهوفِ والمكروبِ
قُلْ لأهْلِ البأساءِ والضُّرِّ مُوتُوا قدْ سَقَتْهُ المنونُ أُمَّ الرقُوب

(١) سخينة : باكية .

ثم تزوّجها الزبير بن العوّام ، فمكثت عنده حتى قتل عنها ، منصرفا من الجمل بوادى السِّباع ، قتله ابن جرموز ، فرثته ، وفيه تقول :

غَدَرَ ابنُ جُرْمُوز بفارسِ بُهمَةٍ يومَ اللقاءِ وكان غيرَ مُعَرِّدِ[1]

ياعمرو لو نَبَّهتَهُ لوَجَدتَهُ لا طائشا رَعِشَ الجَنَانِ ولا اليَدِ

ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ إن قَتَلْتَ لَمُسْلِمَا حَلَّتْ عليك عقوبةُ المُتَعَمِّدِ

فخطبها علىّ بن أبى طالب ، فبعثت اليه : إنّى لأضنّ بك عن القتل ، وإنما استحيَتْ فامتنعتْ ، وقد تزوّجت باثنين من بعد قولها :

أآليتُ لا تنفكّ عينى سخينةً عليك ولا ينفكّ جلدِىَ أغبَرَا

قال : وحدّثنى أبو الفضل الرَّبَعى ، قال : حدثنى أبو ربيعة العامرىّ الكوفىّ ، قال : حدثنى على بن عمرو الأنصارى قال : دخلت المُدِلّة البكرية زوجة المغيرة ابن أبى ضِمام البكرى ، وكان يحبها حبًّا شديدًا ، على المغيرة بن أبى عَقِيل ، تخاصم فى بعض أمورها ، فلما خرجت المدلّة ، قال : أنتِ الذى يقول فيك المعذّل :

قل للمُدِلَّةِ طال ذا التعديدُ فدَعِ التعلُّلَ والمِطالَ قليلاَ

ويزيدها حَلْىُ النساءِ مَلاحَةً ويزيد ذلك بعضَهنّ خُبُولاَ ؟

قالت : نعم ، قال : فلم تزوّجتِ بعده ، أفّ لكنّ ؟ قالت : أتنصِفُ ، ما كنتُ بديًّا ، وما كنتُ بنيًّا !! فضحك منها وأمرها بالانصراف .

ورُوِىَ أن امرأة من نساء العرب تزوّجت رجلا من خَثْعَم ، فوجد كلّ واحد منهما بصاحبه وجدا شديدا ، وأنهما تحالفا ألاّ يتزوّج أحدهما بعد صاحبه ، فمات قبلها ، فتزوّجت ، فلامها بعض أهلها ، وقالوا : أين ما كنتِ

(١) البهمة : الشجاع . عرد : هرب .

تَجدين به ؟ فأنشأت تقول :

وقد كان حُبِّ ذاكَ حيًّا مبرِّحا ... وحبي لِذَا ، إذ ماتَ ذاك ، شديدُ

وكان هوايَ عند ذاكَ صبابةً ... وحبِّي لذا طُول الحياةِ يَزيدُ

فلمَّا مضى عادتْ لهذا مودّتي ... كذاكَ الهوى بعد الذّهابِ يَعُودُ

وقال صالح بن حسّان : لما احْتُضِرَ حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كانت فاطمة بنت حسن بن على جالسة عند رأسه تبكى ، فقال : ما يُبكيك؟ قالت : على فراقك ابنَ عمّ ، قال : مَهْ ما صنعتِ ، فإيّاكِ أن تنكحى عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وقد علم أن أحدًا لا يجترئ على خطبتها غيره ، قالت : ما كنت لأفعل ، وهلك وله منها عبد الله بن حسن وابراهيم ابن حسن ، فلما انقضتْ عدّتها دعت مولاةً لها يقال لها زبر ، فقالت : إيتى عبد الله بن عمرو فقولى له : أعِرْنا بَغْلَتك الشهباء برحالتها ، فإنى قد أردتُ أن أسير الى بعض أموال ولدى بالعالية ، فأتته فقال : يا زبر إلوْ كان لى إلى مولاتك سبيل ؟ ارحلوا لها البغلة ، فلما جاءت قالت : هل لقيته ؟ قالت : نعم ، قالت : فما قال لك؟ قالت : قال : لو كان لى الى مولاتك سبيل ؟ قالت : ويلك ، وأين المذهب عنه ! فرجعت زبر فدخلت عليه وأعلمته ، فأرسل اليها فخطبها فتزوّجته ، وولدت له الهيثم ومحمد ورُقَيّة وكان لها من الحسن ثلاثة ومن عبد الله ثلاثة .

ورُوِى عن سِماك بن حَرْب انه قال : كانت العرب تقول : لم تنه امرأة قطّ عن رجل إلا تزوّجته .

وقال ابن عباس : حدثنى شيخ من بنى ضبّة قال : كان رجل منّا ظريفًا شريفا احتضر ، فبينا هو يجود بنفسه وبُنَىّ له يسمّى مَعْمَر يدبّ بين يديه ، فنظر اليه وبكى . ثم التفت الى امرأته فقال ياهذه :

إنّي لأخشى أن أموت فتنكحي ... ويقذف في أيدي المراضيع مَعْمَرَ
فحالت ستور بعده ووليدة ... وأشغلهم عنه نحورٌ ومجمرُ (١)

قالتْ : ما كنت فاعلةً ، قال الشيخ : فوالله ما انقضت عنها عدّتها حتى تزوّجت بشابٍّ من الحي ، ورأيتُ مَعْمَرًا كما وصف

قال : وأنشدني بعض الشعراء :

إنّ مَنْ غرّهُ النساءُ بشيءٍ ... بعد هندٍ لجاهلٌ مغرور
كلُّ أُنثَى وإن بَدَا لك منها ... غايةُ الحُبِّ حُبُّها خيْتَعورُ (٢)

وإنّ الوفاء فيهنّ عزيز غيرُ موجود ، ووالله لئن كان كذلك ، وعُرفن بذاك ، ففي الرجال من هو أكثر منهنّ غدرًا ، وأسرع منهن خترًا ، وأسمح منهنّ تنقّلا ، وأقبح منهنّ تبدّلا

خُبّرتُ عن الأصمعي قال : كان رجل من الاعراب يُظهرُ الوجد لامرأته ، والحبّ لها ، وكانت تُظهر له مثل ذلك ، فتعاهدا ألا يتزوّج منهما الباقي بعد صاحبه ، فاخترمت (٣) المرأة قبله ، فخطب الرجل امرأة من يومه ذلك ، فقيل له : أتخطب بعد يمينك وعهدك ؟ فقال :

خطبتُ كما لو كنتُ قد مُتُّ قبلها ... لكانت بلا شكٍّ لأوّل خاطبِ
إذا غاب بَعْلٌ كان بعلٌ مكانَه ... ولا بدّ مِنْ آتٍ وآخرَ ذاهبِ

---

(١) المجمر : ما يوضع فيه النار المتقدة .

(٢) خيتعور : كل شيء يتلون ولا يدوم على حال ، والخيتعور : الغادر ، وقيل الذئب ، سمي بذلك لأنه لا عهد له ولا وفاء ، وامرأة خيتعور : لا يدوم ودها ، مشبهة بذلك ؛ ويروى البيت :

كل أنثى وإن بدا لك منها ... آية الحب حبها خيتعور

والغاية : النهاية . والآية : العلامة .

(٣) اخترمت : ماتت .

وخُبِّرت أنّ بعض ولاة العهود كانت له جارية ، فكان يُظهر الميل إليها ، والاستهتار بحبها ، وكان يقول لها : إذا أفضت الخلافة إليه أن يفضلها على نسائه ، ويقدمها فى البرّ والكرامة عليهن ، فلما بلغ من ذلك أمله ، جفاها واطّرحها وقلاها [1] ، فكتبت إليه :

أينَ ذاكَ الوُدُّ والقَبُولُ   وأين ما كنتَ لنا تقولُ ؟

فكتب إليها :

قد قال فى أشعاره لَبِيدُ   يا حبّذا الطارفُ والتّليدُ

فعلمت أنه لا حاجةَ له فيها

فهذا فى القبح يتجاوز غدر النساء ، ويعلو على كثير من جنايات الإماء ، وإنهنّ والله — على ما فيهن من الغدر والخيانة والشرّ — لربما عشقن فاشتهرن ، ووفين فأحسنّ

وإنّ من حُسن ما بلغ من وفائهنّ : ما صنعته ابنة الفَرافِصة مع عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان من قصّتها أنْ سعيد بن العاص تزوج هند ابنة الفَرافِصة بن الأحْوَص بن عمرو بن ثعلبة بن الحرث بن حِصْن بن ضمضم بن عدى بن جناب الكلبيّة ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فكتب إلى سعيد : أمّا بعدُ ، فقد بلغنى أنك تزوجت امرأة من كلب ، فاكتب الى بنسبها وجمالها ؛ فكتب اليه سعيد : أما بعْد ، أمّا نسبها فهى ابنة الفَرافِصة بن الأحوص ، وأما جمالها فبيضاء مديدة ، والسلام . فكتب إليه عثمان : إن كانت لها أخت فزوّجنيها ، فبعث سعيد إلى أبيها يخطب إليه إحدى بناته على عثمان ، فقال الفَرافصة لابن له يُدْعَى ضَبًّا ، وكان قد أسلم وأبوه نصرانى : يا بُنىّ زوّجْ

---

(١) اطرحها : أبعدها . قلاها : أبغضها .

عثمان بن عفان أختك ، فزوّجه ، فلمّا أراد حملها ، قال لها أبوها : أى بُنية ، إنك ستَقْدَمين على نساء قريش ، وهنّ أقدر على الطيب منك ، فاحفظى عنى اثنتين ، تكحلى وتطيبى بالماء ، حتى تكون ريحك كريح الشباب المطهّرين ؛ فلما حُمِلَتْ شقّ عليها الغُربة ، واشتاقت إلى أهلها ، فقالت :

ألستَ ترى يا ضَبُّ بالله أنّنى مُصاحِبَة نحو المدينة أرْكُبا

إذا قطعوا خَرْقًا تَخِبُّ رِكابُها كما زعزعت ريحٌ يراعًا مقصَّبا

لقد كان فى أبناء حِصْنِ بن ضَمْضَم لك الويلُ ما يُغْنِى الخباءَ المُطَنَّبا[1]

فلمّا قدمت على عثمان بن عفّان ، قعد على سرير ، وألقى لها سريرا حياله ، فجلست عليه ، ورفع العمامة عن رأسه فبدا الصلع ، فقال : يا ابنة الفرافصة لا يهولنَّك ما ترين من الصلع ، فانّ من ورائه ما تحبّين ، قالت : إنى لمِنْ نسوة أحبُّ بعولتهنّ إليهنّ الكهول البيض السادة ، فقال : إمّا أن تقومين إلى ، وإمّا أن أقوم إليك ، فقالت : ما تجشّمتُ من كراهة جنبات السّماوة أبعدُ ممّا بينى وبينك ، ثم قامت اليه فجلست إلى جانبه ، فمسح رأسها ، ودعا بالبركة ، وقال : اطرحى عنك خمارك ، فطرحته ، ثم قال : اخلعى درعك فخلعته ، ثم قال : حُلّى ازارك ، فقالت : ذاك إليك ، فحلّه ، فكانت من أحظى نسائه عنده ؛ فلمّا كان يوم الدار أهوى رجل إلى عثمان بالسيف ، فألقت نفسها عليه ، فضرب عجيزتها ، وكانت من أعظم النساء عجيزة ، فقالت: أشهد أنك فاسق ، لم تأتِ غضبا لله ولا لرسوله ، فأهوى إليها بالسيف ليضربها ، فاتّقته بيدها فقطع أصبعَين من أصابعها ، فلما قُتل عثمان ، قالت فيه ترثيه :

ألا إنّ خير الناس بعد نبيّه قتيلُ التُّجوبِىّ الذى جاء من مِصْرِ

---

(١) طنب البيت : شيده بالأطناب ، والأطناب جمع طنب ، وهو حبل طويل يشد به سرادق البيت .

ومالِيَ لا أبكي وتَبكي قَرابتي وقد ذهبتْ عنّا فضولُ أبي عَمْرِو

فبعث معاوية بعد ذلك يخطبها ، فنزعت ثنيّتَيها العليا ، وقالت : أذات عَروس هذا فهذا الله حسنٌ من وفاء النساء

وقد تقدّم ذكر جماعة من أهل الوفاء اللاتى قتلن أنفسهنّ أثر متعشّقيهنّ ، أغنى عن كثير من أخبارهن

وقد رُوى أيضا عن أبى حدرد الأسلميّ قال : نشأ فينا غلام يقال له عبد الله بن علقمة ، فعلق جارية منا يقال لها حُبيشة ، لم تكن من فَخْذه[1] وكان يتحدّث إليها كثيراً ، فخرج ذات يوم من عندها فنظر إلى ظبية على رابية ، فالتفت إلى أمّه وهو يقول :

يا أُمّيَ خَبّريني ، غير كاذبةٍ وما يريد مَسُولُ الخُبْرِ بالكَذِبِ
حُبَيْشُ أحسن ، أم ظَبْيٌ برابيةٍ لا بل حُبَيْشَةُ من ظبيٍ ومن ذَهَبِ

ثم انصرف من عندها مرة أخرى ، فأصابته السماء ، فأنشأ يقول :

وما أدرى اذا أبصرتُ يومًا أصَوْبُ القَطْرِ أحسنُ أم حُبَيْشُ[2]
حُبَيْشَةُ والذى خلَقَ الهدايا على أنْ ليس عند حُبَيْشَ عَيْشُ

فلمّا سَمِعَ بذلك قومه ، قالوا لأمّه : هذا غلام يتيمٌ لا مال عنده ، وآل تلك يرغبون عنكم ، فانظرى له بعض نساء قومه ، لعلّه يسلَى عنها ، فزوّجته جارية ذات جمال وكمال ، وزيّنتها بأحسن زينة ، وأقامتها بين يديه ، فلما نظر اليها قال : مرعًى ولا كالسعدان ، فذهبت كلمته مثلا ، والسعدان نبتٌ يرعاه ابل الملوك . فعلموا أنه لا ينصرف عن هواها ، فتواعدوا حُبيشة ، وقالوا : إذا جاء فأعرضى عنه وتجهّميه[3] بالكلام رجاءَ أن ينصرف بعض الانصراف . فلما

(١) الفخذ : حى الرجل . (٢) الصوب والقطر : المطر
(٣) تجهمه : استقبله بوجه عبوس

رآها لم تستطع أن تفعل ما أُمِرَتْ به ، غيرَ أنّها جعلت تنظر اليه وتبكى ، فعلم بقصتها ، فانصرف وهو يقول :

وما كان حُبِّي عن تَوال بَذَلْتُه فليس بمُسْليهِ التَّجهُّم والهَجْرُ
سِوَى أن دائى منكِ داءُ مودَّةٍ قديمًا ولم يُمْزَجْ كما مُزِجَ الخَمْرُ
وما أنسَ مِلأشياءِ لا أنسَ دَمْعَهَا ونَظْرَتَهَا حتّى يُغَيِّبنى القَبْرُ

ثم مكثا على حالها وطول وجدهما إلى أن وافتهما خيل خالد بن الوليد يوم الغُمَيْصاء ، فأُخِذا فيمن أُخِذَ من الأسرى ، فأُوثِقا رباطا ، وهذا حديث مشتهر قد رواه محمد بن حُمَيد الخراسانىّ عن سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحاق ، وحكاه المدائنى عن يعقوب بن عتبه بن المغيرة الثقفى ، عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن أبى حدرد الأسلمى ، عن أبيه قال : كنت يوم الغميصاء ، وهو يوم بنى جَذِيمة ، فى خيل خالد بن الوليد المخزومىّ ، حين وجّهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل وأسر ، فقال لى فتى منهم ، وقد جُمعت يداه إلى عنقه ، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه : يافتى ، هل أنتَ آخذٌ بزمام ناقتى فقائدى الى هؤلاء النسوة فأقضِى اليهنّ حاجة ، ثم ترى بعد ذلك ما بدا لك ؟ قلت : يسير ما سألت ، فألحقتُه بهنّ ، فوقف عليهن فقال : اسْلمى حُبيش على نفاد العيش .

قالت : وأنت فاسْلَم سعيت سقاك ربّى الغيث ، ثم قالت : وأنت فُحيِّيت عَشْرًا وسَبْعًا وترًا وثمانياً تَتْرَى[1] فقال الفتى :

أرَيْتكِ إذ طالبتُكم فوجدتُكم بحَلْيَةَ أو ألْفَيْتُكم بالخوانق
ألم يك حقًّا أن يُنَوَّلَ عاشقٌ يُكَلِّفُ إدلاجَ السُّرَى والودائقِ[2]

(١) تترى ، أصلها وترى ، ومعناها مجىء الواحد بعد الآخر .

(٢) أدلج : سار من أول الليل أو فى آخره . السرى : السير ليلا . الودائق : جمع الوديقة : شدة الحر .

فلا ذَنْبَ لى قد قلتُ إذ نحن جيرةٌ أثيبى بوُدٍّ قبل إحدى الصَّفائق[١]

أثيبى بوُدٍّ قبل أن يَشْحَطَ النَّوى وَيَنْأى عدوٌّ بالحبِّ المُفَارِق[٢]

فإِنِّى َ ما ضَيَّعْتُ سِرَّ أمانةٍ ولا راقَ عينى بعد وجهك رائقُ

على أنَّ ما نال العشيرَة شاغلٌ عن الوُدِّ إلاّ أن يكون التَّوامُقُ[٣]

ثم بَكى وبكت ، ثم أنشأ يقول :

فإن يقتلونى يا حُبَيْشُ فلم يَدَعْ هواكِ لهم مِنِّى سِوَى غُلَّةِ الصَّدْرِ

وأنت التى أنحلتِ جِلدِى على دَمِى وعَظْمى وأسْبَلْتِ الدموعَ على النَّحْرِ

ثم انصرفتُ به فضربت عنقه ، فنظرتْ إليه فأقبلت حتَّى أكبَّت عليه .

وقد فعلت مثل ذلك عفراء بنت عِقال بعروةِ بن حزام لما بلغها موته ، استأذنت من زوجها فى زيارة قبره ، فخرجت فى نسوة لها حتَّى وردت قبره ، فلما رأته من بعيد صرخت ثمّ دنت فرمت بنفسها عن راحلتها ، ثم جعلت تبكى وتشهق إلى أن خمد صوتها، فدنوا منها فوجدوها ميتة، فدفنت الى جانبه.

وروى الأصمعىّ أيضا قال : خرجت أريد بعض أحياء العرب فجنّنى الليل[٤] ، وبتُّ فى جَبَّان ، وتوسّدتُ قبرًا : فسمعتُ فى الليل من القبر قائلا يقول :

أنعَمَ الله بالخَيالَيْنِ عينًا وبِمَسْرَاكِ يا سُعادُ إلَيْنا

وَحْشَةً ما لَقِيتُ من خَلَلِ القبْـ ـرِ عَسَى أنْ أراكِ أوْ أنْ تَرَيْنا

فأرقت له ليلتى ، فلما أصبحت دخلتُ الحىّ ، فاذا بجنازة قد أُقبِل بها ،

(١) الصفائق والصوافق : الحوادث .

(٢) شحط المكان : بعد .

(٣) توامق الرجلان : تحابا .

(٤) جن الليل : أظلم .

فسألتُ عنها فقيل : هذه سعادُ كانتْ تحب ابن عم لها ، وانهما تعاقدا على الوفاء ، فهلك قبلها ، فلم تزل تبكى عليه ، فها هى قد لحقت به ، فتبعتهُم حتى دُفنتْ إلى جانب القبر الذى بتُّ عنده ، واذا هو قبر ابن عمها ، فخبّرتهم بما سمعتُ وانصرفت .

ورُوى أن مالك بن عمرو الغسانى تَزوّج ابنــة عمّ للنعمان بن بشير الأنصارى ، فأحبّ كل واحد منهما صاحبه . وكان شجاعا بطلا مقداما ، فعهدت اليه ألا يباشر حربا ، ثم أنّهُ غدا فلقى العدوّ فطُعن ، فقال وهو يجود بنفسه :

ألا ليتَ شعرى عن غزال تركتُهُ ... اذا ما أَتَتْه مِيتَتِى كيف يَصْنَعُ
أَيَلبَسُ أثوابَ الحِدادِ تفجُّعًا ... على مالكٍ أم فيه للبَعْلِ مَطْمَعُ [١]
فَلَوْ أنّنى كنتُ المؤَخَّرَ بعده ... لَمَا بَرِحَتْ نفسى عليه تقَطَّع

فلما أتاها خبره استمسك لسانُها حولا ، فقال رهطها وعشيرتها : ألَوْ زوَّجتموها غيره ، لعلّها تسلَى وتُفيق ؟ فزوّجوها رجلا من أبناء الملوك ، فساق اليها هدية عظيمة القدر ، فلما كان ليلة بنائه بها أخذت بعضادتَى الباب [٢] ، ثم أَنشأت تقول :

يقول رجالٌ : زَوِّجُوهَا لعلّها ... تُفيقُ وتَرْضَى بعــده بحَليلِ
فأضمرتُ فى النَّفس الّتى ليس بعدهُ ... رجاءٌ لها والصِّدْقُ أفضلُ قِيلِ
أَبعد ابن عمرٍو سيِّدِ القوم مالكٍ ... أُزَفُّ الى زوجٍ بِعَضْبٍ كَليلِ [٣]

---

(١) تفجع : توجع .
(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .
(٣) العضب : السيف . الكليل : الذى لا يقطع .

وخبّرنى أصحابُه أنّ مالكاً خفيفٌ على العِلاّتِ غيرُ ثقيلِ[١]
وخبّرنى أصحابُه أنّ مالكاً ضَروبٌ بِماضِى الشَّفرَتينِ صقيل[٢]
وخبّرنى أصحابُه أنّ مالكاً جوادٌ بما فى الرَّحْل غيرُ بخيل
وخبّرنى أصحابُه أنّ مالكاً ثَوَى وتُنادِى صَحْبُهُ بِرَحيلِ
فما كان يَشْرِينى خَليلى بخُلَّةٍ وما كنتُ أشرِى مالكاً بخليلِ

فقال لها بعلها : ارجعى الى أهلك ، ولك كلّ ما سُقتُ إليك ، مثلك فليتزوّج الرجال .

ومن حُسْنِ وفائهنّ أيضا ، ما رواه الهيثم بن عَدِىّ ، فإنّه كان فى بنى عامر بن صعصعة امرأة تُوُفِّىَ عنها زوجها . ولها ابنا عمّ ، فصاروا إلى بعض شيوخهم ، فقالا له : فلانة جارية شابّة ، والقالة[٣] إلى مثلها سريعة ، فوجّهْ اليها فلتحضر ، وأعرضْ عليها أيّنا أهوى اليها ، حتّى يتزوجْها ، فوجّه الشيخ اليها فأتته ، فعرض عليها مقالتهما . فأطرقت مليًّا تنكت الأرض حتى حفرت فيها حفيرة وملأتها من دموعها ، وكان زوجها دُفن بمقبرة تُدعى بحَوْضَى ، فالتفت الى ابنى عمّها وأنشأت تقول :

فإن تسألانى عن هواىَ فإنّه رَهينٌ بحَوْضَى أيُّها الفتيَانِ
وإن تسألانى عن هواىَ فإنّه رهينٌ له بالحُبِّ يا رَجُلَانِ
وإنّى لأستَحْيِيهِ والموتَ دوننا كما كنتُ أستحييه حين يَرَانِى
أهابُكَ إجلَالاً وإن كنتَ فى الثرى لوجهك يومًا أنْ يَسُوءَكَ مكانى

(١) العلات : الحالات والشؤون المختلفة .
(٢) الشفرة : حد السيف .
(٣) القالة : ما يبتدعه الناس كذبا .

وقامت فانصرفت ، فقال : قد رأيتما وسمعتما ، فانصرفا وقد يئسا ، ثم لقياها يوما فى المقابر وعليها مُصبَّغات[١] وحُلِىٌّ وحُلَلٌ ، فقال أحدهما لصاحبه : ماترى فى أىّ زىٍّ خرجت ، والله ماأراها الامتعرّضةً[٢] للرجال ، هلمّ فلننظر ما تصنع ، فقربا منها ، فأتت القبر فالتزمته ، ثم أنشأت تقول :

يا صاحبَ القبر يامَن كان يُؤنسُنى ... وكان يُحسِنُ فى الدنيا مُوَاتاتِى
أزُورُ قَبْرَكَ فى حَلْىٍ وفى حُلَلٍ ... كأننى لستُ من أهل المُصيبات
أتيتُ ما كنتَ من قُرْبى تُحِبُّ وما ... قد كان يُلهيك فى ألوانِ لذّاتِى
وَمَنْ يَرَانِى يرى عَبْرَى مُفَجَّعَةً ... طويلةَ الحُزنِ فى زُوَّارِ أمْواتِ

ثمّ شهقت فماتت .

ومثل هذا وأشباهه من الوفاء قليل فى النساء ، وهو من وفائهنّ عَجَبٌ ، والغدر عليهنّ أغلب ، إذ على ذلك طُبِعَ خُلُقُهنّ ، وعليه جُبِلت بِنْيَتُهنّ ، وسأصف لك جملةً من مكرهنّ ، لتقف به على غدرهنّ إن شاء الله ولا قوّة إلّا بالله

آخر الجزء الأول من كتاب الموشّى

من أجزاء أبى الطيب بن الوشاء

والحمد لله كثيرا وصلواته على محمد نبيه وآله وسلامه

وحسبى الله ونعم الوكيل

(يتلوه الجزء الثانى من كتاب الموشّى)

---

(١) مصبغات : أثواب ملونة .

(٢) تعرض للشىء : تصدى له وطلبه .

الجزء الثاني

من كتاب الموشى

تأليف

أبي الطيب محمد بن اسحق بن يحيي الوشاء

رحمة الله عليـــه



لا إلهَ إلا اللهَ وحده ، لا شريكَ له ، الحمد لله ربّ العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى

(أمّا بعد) فإنّه قد ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أشياء من عُيون فُنون الأدب ، يرغب فيها ذوو الحِجَى ، وينتهى اليها ذوو النُّهَى ، وقد مضى من الجدّ عدّة أبواب ،فيها مَقنع لذوى الألباب ، ولابد من خلطها بشىء من الهزل ، إذ فى ذلك تَرويحٌ لقلوب ذوى العقل ، وآخِرَ ما ذكرنا فى الجزء الأول ذكرَ الوَفِيّات من النساء ، وأنا أُتبعه فى هذا الجزء بباب ذكر ذوات الغدر من الاماء ، ثم أصِلهُ بما يتّصل ، وأفصله من حيث ينفصل ، إن شاء الله وبه القوة .

٢٠ – باب صفة ذمّ القيان

ونفوذ حيلتهن فى الفتيان

إعلَمْ أنّه لم يُبتل أحد من أهل المروءات والأدب ، وأهل التظرّف والأرب ، ولا امتُحِنَ سَراة [١] الفتيان ببليّة ، هى أعظم من هوى القيان [٢] ، لأنّ حبّهنّ حبٌّ كَذُوب ، وعشقهنّ عشقٌ مَشُوب [٣] ، وهواهنّ منسوب إلى الملل ، ليس بثابت ولا متّصل ، وإنّما هو لطمع وعَرَض [٤] ، وهنّ سريعاتُ الغرض ، يُستدلّ على ذلك بأفعالهن الردية ، وأخلاقهنّ السّيئة ، وأنهنّ لن

---

(١) السراة : جمع السرى : صاحب الشرف والمروءة والسخاء

(٢) القيان : جمع القينة : الأمة ، المغنية ، الماشطة

(٣) المشوب : المخلوط

(٤) العرض : المتاع ، العطاء

يقصدن إلا أهل النَّشَب [١] ، ويصدفن [٢] عن ذوى الحَسَب ، وأنّ محبتهن تظهر ما ظهرت علاماتُ اليسار والمال ، وتنتقل عند الافلاس والاقلال ، وليس إظهارهنّ للمحبّة ممّا ينعقد عليه منهنّ ذوو الآداب . ولا مما ينخدع به لهنّ ذوو الالباب ، وكلّ ذلك منهنّ غرور ، وخداع وزور ، ولا مَرجع له ولا محصول ، وإنما أمرُهنّ عند ذوى الجهالة مجهول ، وما رأيتُ لكثير من الادباء الذين سلكوا سبيل التشبيب بالنساء ، رغبةً فى تعشّق الاماء ، وقد أنشدنى بعض الظرفاء :

ليس عِشْقُ الاماءِ من شَكْلِ مثلى إنما يَعْشَقُ الاماءِ العَبيــدُ
صِلْ إذا ما وصلتَ حُرّةَ قَوْمٍ قــد حماها آباؤها والجدُودُ

ومن أدلّ الاشياء على خبث سرائر الاماء ، أنّ الواحدة منهنْ إذا رأت فى مجلسٍ فتى له غنىً وكثرةُ مال ، ويسار وحُسْنُ حال ، مالت إليه لتخدعه ، وأقبلت عليه لتصرعه ، ومنحته نَظَرها ، وأبدته بَصَرها ، وغمزته بطرفها ، وأشارت إليه بكفّها ، وغنّت على كاساته ، ومالت إلى مرضاته ، وشربت من فضلة كأسه ، وأومأت إلى تقبيل رأسه ، حتى توقِع المسكين فى حبالها ، وتُرهقه باحتيالها ، وتُعلّق قلبهَ بحبها ، وتُطمعه فى قُربها ، وتحويه بلُطف تملّقها ، وتستبيه [٣] ببديع تقنُّعها ، وبالمكر والخداع ، وتطلّبها للاجتماع ، وتباكيها لفرقته ، وتحازنها عند رَوْحته ، ثم تُرْسِل إليه بالرُّسُل ، وتُعاديه بالخَتَل [٤] وتُخبره عن سَهَرها ، وتُنبئُه عن فِكْرها ، وتشكو إليه القَلق ، وتخبره بالارَق .

(١) النشب : العقار
(٢) صدف عن الشىء : ارتد وانصرف
(٣) تستبيه : تأسره
(٤) الختل : الخداع

وتبعث إليه بخاتمها ، وفضلةٍ من شَعرها ، وقلامةٍ من ظُفرها ، وشظيَّةٍ من مضرابها ، وقِطعة من مسواكها ، ولُبانٍ قد جعلته عِوَضًا من قُبلتها ، ومُضغةٍ لتخبره عن نكهتها ، وكتابٍ قد نمَّقته بظَرفها ، وطيَّبته بكفها ، وسحَّته بوترٍ من عُودها ، ونقَّطت عليه قَطَراتٍ من دمعها ، وختمته بغالية قد عُدِّل بالعنبر مَتْنُها ، واستمسك تحت الخاتم عَجْنُها ، وطبعت عليه بفصٍّ قد نقشت عليه بعضَ مُداعَبتِها ، وتمثَّلت عليه ببعض مجاناتها [1] ، وضمَّنت الكتاب شَكْوَى شوقٍ مريض ، وصفةَ شوقٍ مُمرَّضٍ ، تسأله المؤاتاة على حبها ، والإعانة على كَرْبها ، وأن يبعث بطلب زيارتها ، لتقرَّ بالنظر إليه عينُها ، ويتفرج [2] عنها حزنُها ، فَيَطْمَعَ الغمر [3] في قُربها ، ولا يشكُّ في الكلام في إخلاص حبها ، فيميلَ إليها بوده ، وتُصْفِيهِ بمكنون حبِّه ، حتى إذا حوَت عقله ، وصارت شغله ، واستمالت لُبَّه ، وسلبت قلبه ، واستمكنت من قربه ، ووثقت بصحيح حبِّه ، وعلمت أنه غريقٌ في بحر البليَّة ، أخذت في طلب الهدايا السريَّة ، وتشهَّت الثياب العَدَنية ، والأُزُرَ النَّيسَابُورية ، والأشقاق الأنجاجيَّة ، والأردنية الرشيديَّة ، والعمائم السُّوسِيَّة ، والتكك الإبْرِيسَمِيَّة ، والخِفاف الرُّنانيَّة ، والنِّعال الكُنْبايتيَّة ، والحِلَق المحشوية ، والعصائب المرصعة ، والدستِينَجَات المفصَّلة ، وخواتيم الياقوت المُثْمِنة ، وتمارضت من غير سَقَم ، وشكت من غير ألَم ، وفصدت من غير عِلَّة وداء ، وتعالجت من غير حاجة منها إلى الدواء ، لتجيئها هدايا ذوى الوَجد ، في المرض والفَصْد ، من القُمُص

(١) مجن : مزح وقل حياء
(٢) تفرج الغم : تكشف
(٣) الغمر : من لم يجرب الأمور ، الجاهل

المعنبَرة ، والغلائل الممسّكة ، والأردية المرشوشة ، والخلالخ المعجونة ، وَمَخانق الكافور المنظومة ، ومَراسل القَرَنفُل المجمَّرة ، والمسك الأذفر ، والعنبر الأشهب والعود المندى . والنَدّ الخزائنى ، والماوَرْد الجورى ، والحملان الحَوْليّة ، والجداء الرُضّع ، والبَط الصّينى ؛ والفَرَاريج الكَسْكَرية ، والدجاج الفائق ، والفراخ المسمّنة، وَالنبانيج المنَضدة بأنواع الرّياحين ، والفاكهة يَتْبعها صنوفٌ من الشراب ، من المعسّل والدُّوشاب، والمطبوخ والمشَمّس ، ونبيذ السُّكَر، والقِشْمِش ، ثم الدَّنانيرا لُجدَد الشّهرية ، والدراهمَ المسيّفة الدّاريّة ، فى خرائط الديباج الابريسميّة ، ومناديل الوَشْى الأنجميّة ، فلا تزال فى هدايا متواترة ، وألطاف متتابعةٍ ، وفى خلال ذلك العيدان العَرْعَر الموْزُونة ، والمضارب المدهونة ، والأوتار الصينية ، حتى اذا نفد اليسار ، وذهب الإكثار ، وأتلف المال ، وجاء الاقلال ، وأحسّت بالافلاس ، وتفريغِ الأكياس ، أظهرت المَلَلَ ، وأعلنت البَدَل ، وتبرّمت بكلامه ، وضجرت بسلامه ، وطلبت عليه العِلَل ، وتفقّدت منه الزلل . وتتبّعت عليه سقطاته ، وتيمّمت عثراته ، وأخذت فى الجفاء والعتاب ، والقلَى والابعاد ، وصرفت عنها هواه ، ومالت الى سواه ، ونفرت بعد القُرْب ، وأبغضته بعد الحبّ ، فحينئذ يدرك المغرورَ النَّدم ، ويلحقه الأسف ، حين لاتُغنى عنه الحيلة ، ولا يُجدى عليه اللّهف ، ويقع بين لَيْتَ وَلَوْ وهيهات ، ولات حينَ مناص ، ولا يقدر على استئناف ما سلف من الأيام ، بعد الإشراف على ورود حِياضِ الحمام .

وقد أنشدنى بعض الأدباء لبعض المحدثين :

صَحَوْتُ فأبصرتُ الغوايةَ من رُشْدى　　　وأيقنتُ أنّى كنتُ جُرْتُ عن القَصْدِ

فَلَا يَعْشَقَنْ مَن كان يَعْشَقُ قَينةً ... فما هو منها فى سعيدٍ ولا سَعْد
تَوَدُّكَ ما دامت هداياك جَمَّةً ... وَتَرْفِذكَ عِشقاً ما غَنيتَ أخا رِفْدِ[1]
اذا ما رأت فى مجلس مَنْ تَخَالُهُ ... غَنِيًّا حبَتْهُ بالتحيَّة والودِّ[2]
وَغَنَّتْ على أقداحه كلَّ ما اشتهى ... وقالت له ماذا تُرِيدُ أنا أفدِى
وتُومِى إليه إشرَبِ الرِّطْلَ واسقِنى ... فقد حُزْتَ قلبى واشتملتَ على وُدِّى
فَيَمْتَلِىَ المغرورُ عند مَقالِهَا ... سُرُورًا يرى أنَّ المقالَ على جدٍّ
فإنْ جاء وقتُ الانصراف تَحَازَنَتْ ... لِفُرْقَتِهِ حتَّى يقوم على وَعْدِ
وَيَغْدَو اليه فى الفِراش رَسُولُهَا ... تُسائِلُهُ ما كان حالُكَ من بعْدِى
وياليت شعرى كيف بتَّ فإنَّنى ... رَعَيْت نجوم الليل كَفِّى على خَدِّى
فلا يجد المغرورُ مِن دَفْعِ جَذْرِها ... سُرُورًا بتعجيل الزيارة من بُدِّ
وتُسْرِعُ فى إتيَانِهِ لِيَظُنَّها ... حَبَتْهُ بتعجيل المجىء على عَمْدِ
فإنْ هِىَ جاءت عانَقَتْهُ وقبَّلتْ ... يَدَيْهِ وأبدَتْ فَرْحَةً قَلَّ ما تُجْدِى
وتَخْدُمه عَمْدًا فإنْ قَال إنّه ... لَيحزُنُنى أنْ تَصْنَعِى هَكَذَا عِنْدِى
تقول له ذا البيتُ بَيْتِى وإنَّما ... أُؤَمِّلُ أنْ يَبْتاعَنِى سَيِّدِى وَحدِى
فَتُصْبِحُ عَيْنِى بالوِصال قَرِيرَةً ... وآمَنُ مِنْ سَوْمِ التَّفرُّقِ وَالبُعْدِ[3]
فَذا دَأْبُها حَتّى يعودَ مِنَ الهَوَى ... سقيمَ فُؤَادٍ ما يُعِيدُ ولا يُبْدِى
فتفصِدُ لا مِن حاجة لِفِصادِها ... ولكنْ لِتَكْلِيفِ الهدِيّةِ فى الفَصْدِ

(١) أرفده : أعطاه ، والرفد : العطاء والمعونة .
(٢) حباه بكذا : أعطاه إياه .
(٣) السوم : الذل .

فمن بين خلخالٍ يُصاغُ وخاتمٍ ومن دُمْلجٍ يُهدَى على أثَرِ العِقْدِ
ومِنْ ثوْبِ خَزٍّ بعد وَشْيٍ ومُلْحَمٍ ومن مُصْمَتٍ يُشْرَى على أثَرِ الْبَرْدِ
ويالك من مِسْكٍ ذَكِيٍّ وعنبرٍ وعُودٍ وكافورٍ نقيٍّ ومن نَدٍّ
فذا فِعْلُها حتَّى إذا عاد مُفْلِسًا تجنَّتْ وأبدَتْ جانبَ الهَجْرِ والصَّدِّ
فقولا لِمَنْ يَهْوَى القِيانَ تَفَهَّمُوا مَقَالِى فإنِّى قد نصحتُ لَكم جَهْدِى

وأنشدنى بعض المحدّثين لنفسه :

يا صاح إنَّ القيان للغُمْرِ الْـ ـغِرِّ شِبَاكٌ يَصِدْنَ بالْمَلَقِ[١]
يهوين هـذا ويشتكين لِذا وَجْدًا ويَرْمُقْن ذاك بالحَدَقِ
حتّى إذا ما اقتنَصْنَ ذا حُمُقٍ مُسْتَهْتَرًا واستمالَ للوَمَقِ
نَفَضْنَهُ واستلَخْنَ جِلْدَتَهُ سَلْخًا بطِيبِ الدَّلَالِ والْفَنَقِ[٢]
وصار كالآس فى غَضارَتِهِ صِفْرًا بلا طارِف من الوَرَقِ
نَاوَلْنَهُ المِسْحَ ثم قُلْنَ لهُ جِئْنا بهِ فى البَيَاضِ كاليَقَقِ[٣]

وأنشدنى بعض الكتاب لفضل الشاعرة :

يا حَسَنَ الوجهِ سَيِّءَ الأدبِ شِبْتَ وأنت الغُلَامُ باللَّعِبِ
ياوَيْكَ إنَّ القيان كالشَّرَكِ الْـ ـمَنْصُوبِ بين الغُرُورِ والعَطَبِ[٤]

---

(١) الغمر : من لم يجرب الأمور . الغر : الشاب الذى لا خبرة له .

(٢) الفنق : التأنق والتنعم .

(٣) المسح : الكساء من شعر ، أو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا وقهرا للجسد . اليقق : القطن ، أو جمار النخل أى شحمه الأبيض . ويقال : أبيض يقق أى شديد البياض .

(٤) ويك : كلمة مركبة من وى وكاف الخطاب و تقال للزجر . ويكنى بها عن الويل . تقول : ويك استمع قولى . والأصل ويلك .

لا يتصدّين للفقير ولا يرمقن إلا معادن الذهبِ
يلحظن هذا وذا وذاك وذا لحظ محبٍّ بطرفِ مكتسبِ
بينا تشكّى إليك إذ خرجت من زفرات الشكوى إلى الطلبِ

وأنشدنى أحمد بن غزال لنفسه :

إذا تعرّضت للقيانِ فمثّلِ الفقر بالعيانِ
واعزم على فلسةٍ أسافا أمضّ من طعنة السنانِ
كم من تراثٍ ومن تليدٍ وطارفٍ وادّخار تانِ
أتلفه متلفٌ عليهم بالجذر والبذل والتوانى (١)
ما زال يصبو إلى خلوبٍ تغنى به فوق كلّ غانٍ (٢)
إتّخذته عشيق مالٍ أضحت تهاواه باللسانِ (٣)
حتى إذا اختلّ ثم حسّت بفقدِ فعلاته الحسانِ
غنته صوتاً لها عتيدًا مصرّحًا ليس بالمعانى (٤)
قد نفد الكيس فاسل عنّى واشتق إذا اشتقت بالأمانى

وأنشدنى أيضا :

ومسمعةٍ غنّت فقلت بمهجتى إليها لألهو والمزاح بسيطُ
فقالت على اسم الله ثق بمودّتى وصافٍ كما صافى الخليط خليطُ
فأعرضت عنها وانقبضت كأنّما علتنى لديها نعسةٌ وغطيطُ
فقالت وقد أحجلتها لتغرّنى ورقّة فهمى بالقيان محيطُ

---

(١) الجذر : عدد مضروب فى نفسه . فالعشرة جذر المائة ، لأنك إذا ضربت عشرة فى عشرة حصل مائة .

(٢) الخلوب : التى تخدع بلطيف الكلام . (٣) هاواه : داراه

(٤) العتيد : الحاضر المهيأ .

أراكَ نشيطًا للسَّماع تحبُّه ... ولستَ إلى غير السَّماع نشيط

فقلتُ تُرانى وَيْكِ أعشَقُ قَينَةً ... لها كلَّ يومٍ صاحبٌ وربيطُ

إذاخرجتْ من مجلسٍ وتبدَّلتْ ... سِواه بديلاً أوْلون نبيطُ [١]

وإنذُكِرُوا قالتومَنكانحائكٌ ... وآخرُ منكودُ المعاشَ يَخيطُ

لَعَمرك ما تَهوَيْنَ إلّا دراهماً ... ومِن دونها حَزمٌ علىَّ سَليطُ

وإنّى وربِّ البيتِ، واللهُ راحِمٌ ... أُفكِّرُ فيه هل هواه قَميطُ [٢]

بعَيْنِى ليَنْجُ قبل يَنفُضَ رِيشَه ... وقبل يراه الناسُ وهو سقيطُ

هواناهوًى يزوِى عن المرءِ نعمةً ... وَيُترَكُ رَبُّ القوم وَهو حطيطُ

فَيعشَقُنا مَن فى يديه بِضاعةٌ ... سفيفٌ إذا بان الرّجا وَشريط

وَقال أيضا فى قصيدة له :

حتّى إذا وَلَّتِ الدّارَهُم عَنّتْـ ... ـهُ وقد أزمعتْ على الإنقطاعِ

أسْلُ عنّى فلستُ أصلحُ للضِّيـ ... ـقِ وَلا يَحْسُنُ الهوى بالجِياعِ

عندهـا يأكلُ المفرّط كفَيْـ ... ـهِ وَيأوِى إلى أخسِّ البِقاعِ

وأنشد للحكمىّ فى مثل ذلك :

قولا لمن يَعشَقُهُ قينةٌ ... يَنتَفُ حُزنًا قبل إفلاسِهِ

قـد نَوَى فى كفِّها نِيَّةٌ ... مُسْرِعَةٌ فى قَلعِ أضراسِـهِ

تُـواصِلُ العاشِقَ حتى إذا ... ما أخَـذَ العشقُ بأنفاسِـهِ

وَلّتْ بغَـدرٍ وقُرُونُ الفَتَى ... تهتزُّ بالـكَشحِ على رَاسِهِ

---

(١) النبيط : جمع نبط : قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين ، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم ، ومنه يقال : كلمة نبطية أى عامية .

(٢) القميط : التام الكامل

ومن أحسن ما قيل فى ذلك قول الشاعر :

مَا لِلأَحِبَّةِ فى التخشع عارُ فاخشعْ وإن حافُوا عليك وَجارُوا
سقيًا ورَعيا للذين تحمّلوا ونأوا وماشُدّتْ لهم أكوارُ[1]
لكنهم غدَروا بعهدك فى الهوى وأخو القطيعة جائرٌ غدّارُ
ما إنْ يُبالوا إن جفوكَ وعرّجوا نحوَ المدينة أوطَنوا أو ساروا
لا بل أشدُّهما عليك مُصيبةً أن يفعلوا بك اذْهُمُ حُضّارُ
لا تغضبنّ على القيانِ ولا على زَهْو القيان فانهنّ تجار
قَدّمْ لهن مَلاهيًا ومَضاربا وَملاويًا يَحْظَى بها الزُّوّار
إن كنتَ صاحبَ لُطفةٍ وهَديةٍ فلكَ الهوَى منهنّ والايثار
أوكنت صاحبَ كيف أنتَ ومرحباً فارحَلْ فَعَيشُكَ عندهنّ بوارُ
ما بُدَّ من شىءٍ وإلّا لَمْ يَكُنْ لك ثَمَّ إقبالٌ ولا إدبارُ
لو كنتَ يُوسُفَ فى الجمال فإنّه ما مثلُهُ فى حُسْنِهِ دَيّارُ
ثمّ امتنعتَ من الهديّة أنكروا منك الذى لا يُنكرُ الأحرارُ
عندى من القَيْنات خُبرٌ بيّنٌ ومنَ الهديّةِ مُسْنَدٌ آثارُ
زار ابنُ أحمَرَ ذاتَ يوم قينةً فى فِتيَةٍ لهمْ ندًى وَوَقارُ
حتّى إذا غنّتْهُمُ وسقتْهُمُ وتجاوبَتْ فى كفّها الأوتارُ
قالت لأوّلهمْ أما لك ضَيْعَةٌ فأجابها إنّى فتًى سِمسارُ
قالت فأهْدِ لنا إزارًا مُعْلَماً فأبو فُلانٍ ما عليه إزارُ

---

(١) سقيا لفلان : دعاء له ، والتقدير : سقاه الله سقيا . رعيا : اسم من راعى بمعنى حفظ . أكوار : جمع كور : رحل البعير .

ثمّ انثنت لسؤال آخر منهم أصدق ، فقال مجيبها : عطّار
قالت فليس يهمّنا ما زرتنا أدهاننا والقسط والأظفار [1]
وإذا ابن أحمر قد أعدّ جوابها جدر السؤال كأنّه قسطار [2]
ثم انثنت لسؤاله فأجابها لا سوق لى لكنّنى حفّار
فإذا هممت بحفر قبرك فابعثى بقضيّب كى أعرف المقدار
فتلجلجت خجلا وطاطت رأسها وأصابها عند الجواب حصار
وكذا القيان ولا أقول جماعة فالنّاس فى أخلاقهم أطوار

ولابن أحمر أيضا :

عذّبنى ذو الجلال بالنّار إن هام قلبى بذات أسوار
ولا تعشقت قينة أبدا حتّى تراكى رهين أحجار
كم من غنىّ تركن ذا عدم أورثنه الذلّ بعد إكثار
سلبن منه الفؤاد بالنّظر الـ رطب وغنج وغمز أبصار
وبالتّشاجى أتلفن مهجته وحسن لحن وقرع أوتار [3]
حتّى إذا ما مضت دراهمه وصار ذا فكرة وتسهار
ناولنه المسح ثم قلن له يبضه بالنّهر نهر بشّار
فلا تغرّنك قينة أبدا ودع وصال القيان فى النّار
فليس فى الغدر عندهنّ إذا هوين أوشئن ذاك من عار

---

(١) القسط : عود يتداوى به . الأظفار : أقطاع تشبه الأظفار عطرة الرائحة .
(٢) القسطار : الناقد العارف .
(٣) التشاجى . الحزن .

وأحسن ابن الجهم حيث يقول :

فأطلق يدًا فى بيتـه بتفضُّلٍ — وَعَدِّ عن المولى وماشئتَ فافعلِ
أشرْ بيدٍ واغمزْ بطرفٍ ولا تَخَفْ — رقيباً إذا ما كنتَ غَيْرَ مُبَخَّلِ
وَوَلِّ عن المِصباح وألحَ وذُمَّه — فإن خَمدَ المصباحُ فادْنُ وَقبِّلِ
وسلْ غيرَ ممنوعٍ وقلْ غيرَ مُسْكَتٍ — ونَمْ غيرَ مذعورٍ وقُمْ غيرَ مُعْجَلِ
لك البيت ما دامت هداياك جَمّةً — وكنت مَليًّا بالشَّرابِ المعسَّلِ
تُصَانُ لك الأبصار عن كلِّ نَظْرَةٍ — ويصْغَى إليكمْ بالحديث المقلقَلِ

واعلم أنه لا وفاءَ لهنّ، ولا حفاظَ عندهن، ولا يَدُمْنَ على وُدٍّ، ولا يفين لِعاشقٍ بعهدٍ، وهواهنّ مشتركٌ، وحُبُّهنّ مقتسَمٌ، وقد أنشدنى بعض الأدباء :

استخبرا زينبَ عن قولها — فى رَجُلٍ يَعْبُدُ رَبَّينِ
أذاك منـه حَسَنٌ جائزٌ — أمْ ليس يَرْضَى اللهُ دِينَينِ
حَسْبُكِ يا زينبُ من هُجنةٍ — يَستَرزقُ الدَّهر على اثنينِ[1]
فلا تُرِيدى جَمْعَ هـذا وذا — فالغِـمْدُ لا يجمع سَيْفَيْنِ[2]
وأنشدى الأمرَ إلى واحدٍ — ولا تكونى ذات بَعْلَيْنِ
لا يَحْمِلِ المنـبَرُ رِدفاً ولا — يَصْلحُ مِلكاً بين إثنينِ[3]
وعادَة السُّوءِ اذا استحكمتْ — على امرىءٍ شَرٌّ من الدَّيْنِ
لستُ وإن كان الهوى غالبي — أقنَعُ بالشَّيْنِ على الشَّيْنِ

(١) الهجنة من الكلام : العيب والقبح ، أو ما يعيبه الانسان
(٢) الغمد : جفن السيف
(٣) الردف : التابع ، أو الراكب خلف الراكب

يُحلبُ غيرى وأكون الذى يَرْضَى من العَنْزِ بقَرْنين

وأحسن أبو ذُؤَيب حيث يقول :

تريدين كَيْما تجمعينى وخالِدًا وهل يجمَعُ السيفانِ ويحَكِ فى غِمدِ

وكنت كَرِقْراقِ السَّرابِ إذا جرى بقومٍ وقد باتَ المطىُّ بهم تَخْدِى (١)

وقال آخر :

ألا ياعاشِقَ القينات جهــلًا أردتَ بأن تكون أبا البُغولِ

أتَرْضى للهوى من ليس يرضى على ضيق الهوى ألفَىْ خَليلِ

وليس هوى القيانْ بمحمود عندى ، ولا عند ذوى الأدب ، وأهل النُّهَى والأرب ، ولا لأكثرهم ميلٌ اليه ، ولا حرصٌ عليه ، وإن كان قد أنشدنى صديق لى قوله فيهنّ :

زَعَمُوا خُلّةَ القِيانِ غُرورُ كلُّ زَعْــمٍ من المقالة زُورُ

قَسَماً للقِيان بالعهــد أوْفَى من جَوارٍ تضمُّهنّ الخُدورُ

إنّمـا زَخْرَفَ المفاليس هـذا حين قلّتْ صِحاحُهم والكسورُ

أهلُ هذا الزمان أطرَى من الآ سِ وكلٌّ مُمَوَّهٌ مَسْــتورُ

واحتجّ فى ذلك بأنّ هوى القيان — على ما فيهنّ من العيوب — أسرَعُ إلى النفوس ، وأوقعُ فى القلوب ، وأعلقُ بالأرواح ، وأخلقُ للنجاح ، وهنّ أقرب أملا ، وأقلُّ عَلَلا . والظفر بهنّ أسرع من الظفر بربات الخدور ، والمحتجبات وراء الستور ، وأنّهنّ مزورات ، وأولئك معدومات .

(١) الرقراق : ما يتلألأ . أخدى اخداء : مشى قليلا قليلا .

وزعم مِن طلبِ القينة الجَدْوُ لمولاها من عشقها، وكثرةِ مؤنتها عليه، وطلبها لما لديه، ومسألتها الهدايا واللطفَ، والبرَّ والتُّحَف، إنما هو من رغبتها فى هواه، وميلها إلى رضاه، ولأنها تؤثره على العالمين، وتشتهى قربه دون سائر المحبِّين. لأنه إذا وافى جَدْوَها من عند عشيقها، مع تتابُع ألطافه، وكثرة برّه وإسلافه، رغب المولى فى صفائه، وطمع فى استصفائه، فأخلاها معه الأيام الكثيرة، والليالى المتتابعة.

فهذه جملة من القيان لمن عشق، ورغبة فيمن ومق، وليس ذاك عندنا كذلك، وإنّما هى حِيلة ممّن احتجّ لهن بالوفاء، وهن معروفات بالغدر والجفاء، ولو كان ذلك كما زعموا لم تتغيّر له عند اختلاله، ولا قلَتْه عند إقلاله، بل كان يكون منها عند ذلك الاسعاف على هواه، والمواساة فى نفسها فى الحياة. ولكن هو كما قال المؤمّل بن أميل:

والغانيات كذاك هنّ غوادرٌ أبدًا حبال وصالهنّ تَجذَّمُ[1]
يَخلُبن بالنظَر الفتى ويَعِدْنَهُ نَيلاً ودون عِداتهن الأنجُمَ

وكما قال بشّار بن بُرد:

فوالله ما أدرى وكلُّ مُصيبةٍ بأىِّ مَكيداتِ النّساءِ أُكادُ
غُرُورُ مَواعيدٍ كأنَّ جَداءها جَدًا بارقاتٍ مُزْنُهنّ جَمادُ[2]

ومع ذلك فلا نفاقَ للشيوخ عندهنّ، ولا لذوى القبح والعدم مطمع لديهنّ. على أنهنّ يحتملن القبح والشيب مع اليسار، ويكرهنهما مع الفقر والإقتار، فاذا اجتمع القبح والشَّيب مع الافلاس فى أىّ انسان كان من الناس، فليس عندهنّ مطلب، ولا لديهنّ سبب، ولذلك قال العطوىّ:

---

(١) جذمه: قطعه بسرعة فانقطع

(٢) الجداء: النفع والعطاء. والجدا: المطر العام. المزن: السحاب أو ذو الماء منه.

تاهتْ عليّ بحُسْنها وجمالِها ... وتقول لى : ياشيخُ أنت مُخَادِعُ

شيخٌ وإفلاسٌ وقُبحٌ ظَاهِرٌ ... أطَمِعتَ فينا أخلفتْك مَطَامِعُ

فأجَبْتُها : الإفلاسُ يُذْهِبه الغِنَى ... والشَّيبُ يُذْهِبُه الخِضَابُ النَّاصِعُ

قالت : فقُبْحُ الوجه فيه حِيلَةٌ ... والقُبْحُ ليس له دواءٌ نافِعُ

يا صِدْقَها ما كان أوْضَحَ حُجَّتِي ... لو كان يَدفع قبحَ وجهى دَافِعُ

وقال بعض الأعراب :

طويلاتُ أعناقٍ سِباطٌ أكفُّها ... رقيقاتُ أوساطٍ نِبالُ المآكِمِ (١)

تأزّرْنَ رمـلاً وارتَدَيْنَ بُحلةٍ ... مِنَ الرّوضِ رَيّا زَهْرهاجِدُّ نَاعِمِ

وتصرِفُ ودّى نحوهنّ صبابةً ... ويصرِفن عنّىِ الوجهَ نحوالدراهِمِ

ومثل ذلك مارُوى عن نُصَيْب أنهقال : لقيتْنى بالطّواف امرأةدحداحة (٢) مزّاحة ، فقالت : أأنت نُصيب ؟ فقلت : نعم ، قالت : ألست القائل :

إذا البيضُ لايأتينَ فى الحُبِّ رِقَّةً ... يُعابُ ولا يأخذن فى الودّ دِرْهمَا

وإذْ هُنّ يُدْنِينَ الـكريمَ بُودِّهِ ... لهنّ ويَرفضن الدقيقَ المُلَوَّمَا

قالت : لا أراك تـكتسب إلّا درهمك ، فاعضض ببظر أمّك ، من أين نمتشط إحدانا إذَنْ ؟

وأنشدنى بعض الأدباء :

---

(١) السباط :الرخصة اللينة . المآكم: جمع المأكمة: لحمة على رأس الورك . وهى العجزة ، وهما إثنتان أولحمتان ، وقيل المأكمان والمأكمتان : اللحمتان اللتان على رؤوس الوركين . وقيل : هما بخصتان مشرفتان على الحرقفتين وهما رؤوس أعالى الوركين عن يمين وشمال ، وقيل : هما لحمتان وصلتا بين العجز والمتنين .

(٢) دحداحة : قصيرة

وإذا قلت لهـــا جُودى لِمَنْ قد براه الحبُّ قالت لى أجَلْ[1]
أنت صَرَّافٌ فآتيـك له أم بكفيك نُقودٌ تحتمَـلْ
قلتُ ما تهوَين إلا مُوسِرًا ذا هِبات وعطـــاءٍ وحُلَلْ
فأجابتنى بصـــوت مسمَعٍ كُفَّ عنَّا أنتَ واللهِ مُقِلْ
أيها النّاسُ ألا أُخبِرُكُمْ ليس للحُبِّ مع الفقرِ عَمَلْ

ولقد أحسن أبو الشيص حيث يقول :

حَسَرَ المَشِيبُ قناعَه عن رأسه فرَمَيْنَهُ بالصَّدِّ والإِعراضِ
تِبْتَان لا تصبُو النساءُ إليهما حلْيُ المَشِيبِ وحُلّةُ الإِنفاضِ
فوعودُهُنَّ إذا وَعدْنَك باطِلٌ وبُرُوقُهنّ كواذبُ الإيماضِ

وروى عمر بن شبّة ، عن موسى بن اسماعيل المنقرىّ قال : كان المخبل السعدىّ يعشق امرأة من قومه ، فأتلف عليها كل ما يملكه ، حتى صار يبيع البَعر[2] فأتاها يوما فزبرته[3] وطردته ، فانصرف وأنشأ يقول :

إذا قلَّ مالُ المرء قلَّ صديقه وأومَتْ إليه بالعُيوب الأصابِع

وقال الأصمعىّ : عشق رجل امرأةً ، وأظهرت له مثل ذلك ، فبعثت إليه يوما تستهديه مالا ، فتعذّر عليه ، ووجّه بنصف ما طلبت ، فغضبت وهجرته ، فكتب إليها :

يا أيها الغَضبانُ أن سامنى ما مثله يَثقُـلُ على المُوسِرِ
جُدتُ بالنصف له كاملاً فقال ليس الحبُّ للمُقْتِرِ

---

(١) براه : هزله وأضعفه .
(٢) البعر : رجيع ذات الخف والظلف ، واحده بعرة .
(٣) زبرته : رمته بالحجارة .

هَبْنى غريمًا لَكَ يا مُنْيَتِى ... ما يقْبَل النّصفُ من المعْسِرِ

فكتبت إليه :

إنْ كنتَ فى حالك ذا عُسْرَةٍ ... فدَعْ طِلابَ الشّادِنِ الأحْوَرِ[1]

ما إن منحناك الذى نِلْتَه ... دون ذوى الْبَهْجَةِ من مَعْشَرِ

إلاّ لِتَقْضِى حاجتى كلَّهـا ... فى حالِ ذى العُسرة واليُسْرِ

وقال الأخطل يصف نفورهنّ عن المشيب ، وغدرهنّ بالكهول والشيب :

وإذا دَعَوْنَكَ عَمّهنّ فإنّه ... نَسَبٌ يزيدك عندهنّ خَبَالا

وإذا وَعَدْنَكَ نائلاً أخلفنَه ... ووجدتَ عند عِداتهنّ مِطالا

وقال القُطَامىّ أيضا :

وإذا دَعَوْنَكَ عَمّهنّ فلا تُجِبْ ... فهُناك لا يجد الصَّفاءُ مكانا

وإذا رَأَيْنَ من الشباب لُدُونَةَ ... فعسى حِبالُك أن تكون مِتانا[2]

وقال جرير :

رأتْ مَرَّ السِّنِينَ أخَذْنَ مِنِّى ... كما أخذ السِّرَارُ من الهِلالِ[3]

فقالت فِيمَ أنت من التَّصابِى ... مَتَى عهدُ التّشوُّقِ والدَّلالِ[4]

فما ترجو وليس هوى الغوانى ... لأصحابِ التَّنَحْنُحِ والسُّعالِ

وقال أيضا :

---

(١) الشادن : ولد الظبية .

(٢) لدن لدونة : كان لينا .

(٣) السرار : آخر ليلة فى الشهر .

(٤) التصابى : الميل إلى اللهو واللعب .

وإذا الشيوخُ تعرَّضوا لمودّةٍ قُلن التّرابَ لكلّ شيخٍ أدْرَدَا[١]

تَلقَى الفتاةُ من الشيوخ بَليّةً إنّ البليّةَ كلُّ شيخٍ أرْمَدا[٢]

وقال امرؤ القيس :

أراهنَّ لا يحببن مَنْ قلّ مالهُ ولا مَن رأين الشيبَ فيه وقَوّسا

وأنشدنى بعض الكتّاب لأبى الشِّبْل :

عَذِيرى من جوارى الحَيِّ إذ يَرغبن عن وَصْلِى

رأين الشّيب قد ألْبَسَنِى أُبّهةَ الكَهْلِ

فأعرضن وقد كُنَّ إذا قيل أبو الشِّبْلِ

تَسَاعَيْنَ فَرقّعن الكُوَى بالأعين النُّجْلِ

وأنشدتُ لغيره :

رأين الغوانى الشَّيبَ لاح بِعارضى[٣] فأعرضن عنِّى بالخدود النَّواضرِ

وكُنَّ إذا أبصرننى أو سمعن بى سَعَيْنَ فرقّعن الكُوى بالمَحَاجرِ

وهنَّ على ما فيهنَّ من سرعة الملال ، وما طُبِعن عليه من البدل ، متمكّنات من القلوب ، مُبَرَّآتٌ عند محبّتهنَّ من العيوب ، وإن من محمود مذاهب الظرفاء ، الميلَ إلى مغازلة النساء ، ومداعبة القينات ، وحبُّ النساء عندهنَّ من حسن الاختيار ، وهو أشبه بمذاهب ذوى الاخطار ، وليس هوى الغلمان عندهنَّ بمحمود ، ولا هو فى سيَرهم موجود ، وانما آثروا هوى النساء على الغلمان ، ومدحوهنّ بكلّ لسانْ ، للمليح براعتهنَّ ، وتكامل ملاحتهنَّ ،

---

(١) الأدرد : من ذهبت أسنانه .

(٢) الأرمد : من هاجت عينه .

(٣) العارض : صفحة الخد .

وعجيب شكلهنّ ، وبديع دلهنّ ، وفيهن أيضا خصال محمودة ، وملاحة موجودة ، إن عُدِمَت من الجمال ، وُجدت فى العقل ، وإن عُدِمَت من العقل ، وُجدت فى الدلال ، وروائحهنّ أذكى ، وهواهنّ للقلوب أنكى ، والعشق بهنّ ألْيَق ، وهن للرجال أوفق ، وقد قال بعض الشعراء فى ذلك وملّح :

أُحبّ النساءَ وَذِكْرَ النساءِ ... ويُعْجِب قلبي لذيذُ الغِناءِ
وهل لذّةُ العيش إلا النساءُ ... وحُسْنُ الغناءِ وشُرْبُ الطِّلاءِ

وقال الفرزدق :

مَنَعَ الحياةَ من الرجال ونَفْعَها ... حَدَقٌ تُقَلِّبها النساء مِراضُ[1]
وَكأَنَّ أفئِدَةَ الرِّجال إذا رَأَوْا ... حَدَقَ النساءِ لمثلها أغراضُ[2]

وقال دعبل بن عليّ الخزاعيّ :

أحَبُّ ذخيرةٍ وأحَبُّ عِلْقٍ ... إلىّ الغانياتُ وإن غَنِينا[3]
وكلُّ بُكاءِ رَبْعٍ أو مَشيبٍ ... نُبَكّيهِ فَهُنَّ بِهِ عُنِينا

وقال بعض الأدباء :

فلو أنّى رأيتُ النّاسَ يومًا ... وَوُلّيت الحكومة والخِصاما
لقَرّتْ عينُ مَنْ يهوى الجَوارى ... وعاقبتُ الّذى يهوى الغُلَاما
سألتُك أيُّما أحلَى حديثًا ... وأطيَبُ حين تعشَقُه الْتِزاما
أجارِيَةٌ مُنَعّمَةٌ رَداحٌ ... تريدك للغَرام بها غَراما[4]

---

(١) ونفعها : يروى : وطيبها . مراض : جمع مريضه ، وعين مريضة فيها فتور .
(٢) لمثلها : يروى : لنبلها . أغراض جمع غرض : الهدف الذى يرمى إليه .
(٣) العلق : النفيس من كل شىء .
(٤) الرداح : الضخمة العجز .

أو أمردُ منْتنُ الإبطَيْنِ مِنْه   له رُمحٌ كرُمْحِكَ حين قامَا
يريدك للـــدّراهم لا لِحبٍّ   وتلك تَذوبُ مِنْ كَلَفٍ سقَامَا

وأنشدنى علىّ بن العبّاس الرّومىّ لنفسه :

نَيْكُكَ الغلمانَ ما أمْـــكَنَكَ النّسْوانَ أفنُ
إنّمَا يمشَـــقُ فى الظّهْـــرِ إذَا أعْورَ بَطنُ

وما رأينا أحدا من العرب المتقدمين ، والشعراء المتفضلين ، صمّدوا[1] فى أشعارهم إلى غير ذكر النساء ، ولاصدّروا قصائدهم إلا بالتشبيب بوصف النساء ، هذا حسّان بن ثابت الأنصارىّ شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

يالَقَوْمٍ هَلْ يَقْتلُ المرءَ مِثْلى   وَاهنُ البَطْشِ والعظَامِ سَؤوم[2]
شأنُها العطرُ والفِراشُ وَيَعْلو   هَا لُجَيْنٌ ولُؤْلُؤٌ مَنْظوم[3]
لو يَدِبُّ الحَوْلىُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ   رِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الكُلُوم[4]

وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ينصب له منبرا فى مسجده ، ويدعو الناس الى استماع شعره ، وهو يشبّب قصائده بهذا وما أشبهه من ذكر النساء . وهذا كعب بن زهير ينشد للنبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده :

بانت سعادُ فقَلبي اليَوْمَ مَتْبول   متيّمٌ عِنْدها لم يُفْدَ مَغْلول[5]

(١) صمد : قصد
(٢) واهن البطن والعظام : ضعيفها ، ويروى بدل البطش : البطن . سؤوم : ملول .
(٣) شأنها : يروى : همها . اللجين : الفضة .
(٤) يقول : لو يدب الصغير من ولد الذر على جلدها لأثر فيه وجرحه ، وليس المراد بالحولى هنا ما أتى عليه حول وإنما جعله فى صغره كالحولى من ولد الحافر والخف ، وأندبتها : أثرت فيها ، من الندب وهو أثر الجرح . والكلوم : الجراحات
(٥) بانت : فارقت . متبول : أصيب بتبل ، وتبله الحب : أسقمه . المتيم : المعبد المذلل الذى استولى عليه الهوى فأذله ، مكبول : محتبس عندها ، والكبل : القيد .

أكْرِمْ بها خُلَّةً لو أنَّها صَدَقَتْ مَوْعودَها ولَوَ انَّ النُّصْحَ مَقبولُ

ويمدح النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى قصيدته هذه، فيقول فيها:

إنَّ الرَّسولَ لَنورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ وصارمٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسْلولُ[1]

والنبي صلى الله عليه وسلم يومئ الى الناس فى مسجده أن اسمعوا شعره، ولو كان ذِكْرُ النساء فى الشعر منكرا لكان النبي صلى الله عليه وسلم أولى مَنْ أنكره، ولو كان ذِكر غير النساء أولى بالتَّقدِمة فى الشعر من ذكرهنَّ لكان النبي صلى الله عليه وسلم أُولى مَن أمر بذلك واستقبحه، ولو كان أيضا فى الشعر ذكر النِّساء من الرفث والفحش والخنا، لكان ما قيل فى رسول الله من المديح أحقَّ بأن يُسْقَط منه ذكر القبيح، كما أُسْقِطَ ذكر الذُّكورة، ووصفُ تعشقهم من هذه الأشعار ومن نظائرها من مديح ذوى الأخطار، وما وجدتُ ذلك فى شىء من أشعار المتقدمين، وإنّما عُرِف الآن فى شعر المحدثين. وأين ظرفُ النساء وحُسْنُهنّ من غيرهن، وأين ملاحةُ سلامهنّ، وحلاوةُ كلامهنّ، ومستحسَنُ مداعبتهنّ، ومحبوبُ معاتبتهنّ، ومليحُ مراسلتهنّ، لاسيما إن شُبْنَ[2] هواهنَّ بالغيرة على محبّتهن، والتدلُّل على متعشقيهن، وصددن من غير زَلَل، وهجرنَ من غير مَلَل، وهنَّ والله فى كلّ أحوالهنَّ القاتلاتُ بأفعالهنَّ، وصالهُنَّ ختلٌ، وصدُّهنَّ قتلٌ، وهنَّ المالكاتُ للقلوب، السَّالباتُ للعقول، إذا خلون مزحن، وإن ظهرن نظرن فقتلن بلحظ عيونهنَّ، وصرعن بكسر جفونهنَّ، وأحْيَيْنَ بقولهنَّ الكاذب، ووعدهن الخائب، فلا شىءَ أحسنُ من مطلهنَّ، ولا ألذّ من

(١) الصارم: السيف القاطع.

(٢) شاب الشىء: خلطه.

خُلف وعدهنّ ، وقد استحسنت الشعراء ذلك منهنّ ، ومدحته فى كثير من الأشعار فيهنّ .

أخبرنى أحمد بن يحيى، عن الزبير بن بكّار، عن سليمان بن عيّاش السعدى، عن أبيه عن جده . قال : حدّثنى السائب راوية كثيّر ، قال : كان كثيّر رجلا مذبوبا[1] لايستقر فى مكان ، فقال لى ذات يوم : اذهب بنا إلى ابن أبى عتيق نتحدّث عنده ، فأتيناه ، فاستنشد ابن أبى عتيق كثيّرا فأنشده :

أبائنةٌ سُعدَى ، نَعَمْ سَتَبِينُ   كما أنبتَ من حبل القَرين قَرينُ
أأنْ زُمّ أجمالٌ وفارَق جيرَةٌ   وصاح غراب البيْنِ أنتَ حَزينُ
كأَنك لم تَسمع ولم تَرَ قَبلها   تفرُّقَ ألّافٍ لهن حَنـــينُ
حنينٌ إلى ألّافِهن وقد بدا   لهن من الشّكِّ الغداةَ يَقينُ

حتى اذا بلغ إلى قوله :

فأخْلفن ميعادى وخُن أمانتى   وليس لِمَن خانَ الأمانةَ دينُ

فقال ابن أبى عتيق : أوَعَلى الدين محبتهن يا ابن أبى جُمْعة ، ذلك أملحُ لهن وأدْعَى للقلوب اليهن ؛ عُبيد الله بن قيس الرقيّات أشعر منك ، حيث يقول :

حبــذا الادلالُ والغُنُجُ   والّتى فى طَرْفِها دَعَجُ
والتى إن حَدّثَتْ كَذَبَتْ   والتى فى وَصْلها خَلَجُ
وترى فى البَيْتِ صورَتَها   مثلَ ما فى البِيْعَةِ السُّرُجُ
خَــبِّرونى هل على رَجلٍ   عاشقٍ فى قُبْــلَةٍ حَرَجُ ؟

---

(١) مذبوب : كثير الحركة .

فقال : لا إن شاء الله، وانصرف.

وقال القطامى ، يستحسن ذلك من أفعالهن ، ويصف ملاحة اعتلالهن :

وأرى الغوانىَ إنما هِىَ جنةٌ شِبْهُ الرِّياحِ تُلوِّن الألوانا[١]
وإذا حَلَفْنَ فهنَّ أكذبُ حالفٍ حَلِفًا وأملحُ كاذبٍ أيمانا[٢]

وقد أحسن محمود الوراق حيث يقول :

اصْطَبِحْ كأسَ شرابٍ واغْتَبِقْ كأسَ تَصَابِى[٣]
واجْعَلِ الأيامَ قَسْمًا بين عَتْبٍ وعِتابِ
ووِصالٍ واهتجارٍ وبِعادٍ واقترابِ
واجتنابٍ فى دُنُوٍّ ودُنُوٍّ فى اجتنابِ
ورَسولٍ بكتابٍ وانتظارٍ لِجوابِ
وقُنوعٍ من حبيبٍ بالمواعيدِ الكِذابِ
ليس فى الحُبِّ ولا الصَّبْوَةِ حَظٌّ للصَّوابِ

وقال بعض المُحدَثين[٤] :

ليس يُسْتَحْسَنُ فى حُكْمِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ
بُنِى الحُبُّ على الجَوْرِ فَلَوْ أنْصَفَ المعشوقُ فيهِ لَسَمُجْ

وقال آخر وأحسن فى قوله :

---

(١) الغوانى : النساء ، والغانية : المتزوجة ، ثم قيل لكل شابة : غانية .
(٢) يروى بديوانه :
وإذا وعدن فهن أكثر واعد خلفا وأملح حانث أيمانا
(٣) اغتبق : شرب بالعشى .
(٤) علية بنت المهدى .

ألا إننى راضٍ بما حَكَمَت جُمْلُ ... وإن كان لى فيه البَليّة والقَتْلُ
فكرّوا علىّ العَذلَ فيها فإننى ... رأيتُ الهوى فيها يُجَدِّدُه العَذْلُ
وما كان جنتُها لبَذلٍ رَجَوته ... لديها فأخشى أن يغيّرَه البُخْلُ

ومن ذلك قول جَميل بن معمر العُذرىّ :

ولستُ على بَذلِ الصَّفاء هَوِيتُها ... ولكن سَبَتنى بالدَّلال مع البُخْلِ

وقال أيضا :

وَيقُلنَ أنكِ يا بُثَينَ بَخيلةٌ ... نفسى فِداؤكِ من ضَنينٍ باخِلِ
ويقلن أنكَ قد رَضيتَ بباطلٍ ... منها فهل لك فى اعتزالِ الباطِلِ
ولَباطلٌ مِمّنْ أَلَذُّ وأشتَهى ... أدنَى إلىّ مِنَ البَغيضِ الباذِلِ

ودخلت عَزّة على هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عزّة أتعرفين قول كثيّر :

وقد زعمتْ أنّى تغيّرتُ بعدها ... ومَنْ ذَا الّذى يا عَزَّ لا يتغيَّرُ
تغيَّرَ جِسْمِى والخليقةُ كالّذى ... عَهِدْتِ ولم يُخْبِرْ بِسِرِّكِ مُخْبِرُ ؟

فقالت ما أعرف هذا ، ولكنّى أعرف قوله :

كأنّى أُناجِى صَخْرَةً حين أعرَضَتْ ... من الصُّمّ لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ
صَفُوحٌ فما تلقاكَ إلاّ بخيلةً ... فَمَن مَلَّ منها ذلك الوَصْلَ مَلَّتِ

وأنشدنى أحمد بن عُبيد لرفاعة الفقعَسىّ :

ألم تَعلَما أمْ لا وكلُّ بَليّةٍ ... من الدهر يَفْنَى بؤسُها ونَعيمُها
ولم تجِدَا بلْجاءَ إلا بخيلةً ... وإن أيسَرَتْ واحتاجَ يوماً غريمُها

وأنشدنى محمد بن يزيد لكثيّر عزّة :

وكَمْ من خليلٍ قال لي هل سألتَها ... فقلتُ نَعَمْ لَيْلَى أضَنُّ خَليلِ

وأبعده نَيْلاً وأسرَعه قِلًى ... وإنْ سُئِلَتْ نَيْلاً فَشَرُّ مُنِيلِ

وأنشدني أحمد بن يحيى لجميل بن معمر العُذْرِيّ:

وَهجْرِكَ مِنْ تَيْما بَلاءٌ وشِقْوَةٌ ... عليكَ مع الشَّوْقِ الذي لا يُفارِقُ

ألا إنَّها ليستْ تجودُ لِذِي الهوى ... بَلِ البُخْلُ منها شِيمَةٌ وخَلائِقُ

وأنشدني ابن أبي خَيْثَمَةَ لعُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود:

وزادكَ إغراءً بها طُولُ بُخْلِها ... عليكَ وأغرَى لَحْمَ أعظُمِكَ الهَمُّ

ومثله قول الأحوص بن محمد الأنصاريّ:

وزادني كَلَفًا بالحبِّ أن مَنَعَتْ ... أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَا[1]

كَمْ من دَنِيٍّ لها قد كنتُ أتبَعُهُ ... ولو صَحَا القلبُ عنها كان لي تَبِعَا

وقال جرير يذكر طول المطل والخُلف:

وإذا وَعَدْنَكَ نائلاً أخلَفْنَهُ ... وإذا طَلِبْنَ لَوَيْنَ كلَّ غَرِيمِ[2]

يَرمِينَ من خَلَلِ السُّتُورِ بأعْيُنٍ ... فيها السَّقامُ وبُرْؤُ كلِّ سَقِيمِ

وقال أيضا:

لَعَمْرُ الغَوانِي ما جَزَيْنَ صَبابَتِي ... بِهِنَّ ولا يُحْبِبْنَ نَسْجَ القصائِدِ[3]

رأيتُ الغَوانِي مُولَعاتٍ بِذِي الهَوَى ... بِطُولِ المُنَى والخُلْفِ عند المواعِدِ

وقال أيضا:

ألم تَرَنِي بَذَلْتُ لَهُنَّ وُدِّي ... وكَذَّبْتُ الوُشاةَ فما جَزَيْنَا

---

(١) أكلف به: أحبه حباً شديداً وأولع به.

(٢) لوى فلانا دينه وبدينه: مطله، ولوى بحقه: جحده إياه.

(٣) يحبين: تروى: تحبير، أي تحسين وتزيين.

إذا ما قلتُ جازَ لنا التَّقاضِى ... بَخِلن بعاجِــلٍ وَمَطلن دَينا

وقال أيضا :

يقلن إذا ما حَلَّ دَينُك عندنا ... وخيرُ الّذِى يُقضَى مِنَ الدَّين عَاجِله

لك الخيرُ لا نَقضيك إلاّ نَسِيئَةً ... من الدَّينِ أو عَرضًا فهل أنت قَابِلهُ ؟ (١)

وقال أيضا :

وإذا وَعَدنَك نائلاً أخلفنَهُ ... وجَعَلن ذلك مثلَ برَقِ الخُلَّبِ (٢)

إنَّ الغوانِىَ قد قَطَعنَ مَوَدَّتِى ... بعد الصفا ومَنَعنَ طِيبَ المَشرَبِ

وقال كعب بن زهير :

كانت مواعيدُ عُرقُوبٍ لها مثَلاً ... وما مواعيدُهـا إلاّ الأباطِيلُ

فلا يغُرَّنكَ ما مَنَّتْ وما وَعَدَتْ ... إنّ الأَمانِىَ والأحلامَ تَضلِيلُ

وقال نُصَيب :

أَلِلبَينِ يا لَيلَى جمالُك ترُحَلُ ... لِيَقطَعَ منّا البَينُ ماكان يُوصَلُ

تُعَلِّلنَا بالوَعدِ لَيلَى وَتَنثَنِي ... بِمَوعُودِها حتّى يموت المعلَّلُ

وقال كثيّر :

وإنّى لأَرضَى من نوالِكِ بالّذى ... لَوَ أبصَرهُ الواشِى لقَرّت بَلابِلُهْ

بِلَى وبأن لا أستطيعَ وبالمُنَى ... وبالوَعدِ والتّسويف قد مَلَّ آمِلُهْ

وقال آخر :

يا رَبِّ خُذ لِي مِنَ المِلاحِ فَقَد ... هِجْن لِقَلبِي مِنَ الهوى خَبَلاَ

---

(١) النسيئة : التأخير . العرض : المتاع وكل شيء سوى الدراهم والدنانير ، وعرض الشيء : أعطاه إياه مكان حقه

(٢) البرق الخلب : الذي يكون في سحاب لا مطر فيه فكأنه يخدع .

مِنَ اللواتِي يَقُلن لَنْ ونَعَمْ وها وحتّى وقَدْ وَسَوفَ وَلاَ

والذى جاء فى ذلك كثير ، يطول شرحُه ويُعيي وصفُه ، وقد مضى من الفصل ما فيه كفاية لذوى العقل ، وقد أفردنا كتاب القيان لِذَمّ عُظْم القيان ، فأغنى ما فى ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب ، فاعرفه إن شاء الله .

واعلم أنّ الهوى والحبّ والبُخل والعشق والغزل ، يحسن بأهل النعمة واليسار ، ويُزرى بأهل الإملاق والإقتار ، ولسنا نقول إنه محرَّم على هؤلاء لإعسارهم ، ولا محلَّل لأولئك ليسارهم ، وليس بالغِنى ما يُدخِل أهل الجهالة فى الوصف ، ولا بالفقر ما يُخرِجُ أهل الأدب من الظرف ، وقد قال بعض الشعراء

قد يُدْرِكُ الشرفَ الفتَى ورِداؤُهُ خَلَقٌ وَجَيْبُ قَمِيصهِ مرقوعُ

وليس أسباب الهوى مبيَّنة عن اليسار والسعة وَالغَناء ، والبذل والعطاء ، والنفقات الغزيرة ، وَالصّلات الكثيرة ، وَالهبات الهنيَّة ، وَالهدايا السريَّة ؛ وَالْمختلّ المعدِم ، وَالمقِلُّ المعسرِ ، لا حيلة له فى ذلك ، فمن تعرض للهوى ، وَمال إلى الصّبى ، لم يحسن ذلك به لإفلاسه ، وَ قلّة ذات يده وَإقلاله ، وَما هلك امرؤٌ عَرفَ قَدْرَه ، وَأجْهل النَّاس مَنْ عدا طَوْرَه ؛ وَ قد قال بعض السخفاء يعيب بجهله على الظرفاء : ألم يعلم أنه لا يكون لفقير ظرفٌ ، وَلا يُرفَع إليه طَرْفٌ ، وَلا يقع عليه وَصفٌ ، والفقير مذمومٌ بكلّ لسان ، والغنىّ محبَّب إلى كل إنسان . وأنشد قول عروة بن الورد :

ذَرِينِى للغِـــنَى أسعَى فإنِّى رأيتُ النَّـاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ

وأَحْقَـــرُهُمْ وأهْوَنهم عليهمْ وإنْ أمسَى له كَرَمٌ وَخِيرُ

يباعده الدنىُّ وَتزْدَريه حليلتُه وَيَنْهره الصّغيرُ

وقد أخطأ العائب لهم فى مقاله ، وتسكّع فى حيرته وضلاله ، لأنّ عروة لم يذهب إلى ثلب الأدباء ، ولا إلى تعنيف الظرفاء . وإنّما عنف على طول الاهمال ، وحث على تكسب الأموال ، وهذا مثل قول الآخر :

لَعَمْرُكَ إنّ المال قد يجعل الفتى نَسِيبًا وإنّ الفقرَ بالحُرِّ قد يُزرِى
وما رَفَعَ النّفْسَ الدنيّة كالغِنَى ولا وَضَعَ النفسَ الكريمةَ كالفقرِ

ومثل ذلك قول الآخر :

الفَقْر يُزْرِى بأقوامٍ ذوى حَسَبٍ وقد يُسَوِّدُ غيرَ السَّيِّدِ المالُ

وكقول الآخر :

أجَلّكَ قومٌ حين صرتَ إلى الغِنَى وكلُّ غَنِيٍّ فى العُيُونِ جَليلُ
إذا مالتِ الدُّنيا إلى المرء حوّلَتْ إليه ومالَ النّاسُ حيث تَميل

فهؤلاء لم يذهبوا إلى تفنيد المتظرفين ، ولا الطعن على المتفنّنين ، وَكيف والتّظرّف بهم أليَق ، وَسِمَةُ الظرف عليهم أصدق ؛ وَهذا الباب قد ذكرته على جملته فى كتاب نظام التاج ، فى صفة الأنوَك[1] المرزوق والظريف المحتاج ، وجعلنا جملة ما مر فى كتابنا نصفة بيننا وبين من زعم أن الأمر ليس كذلك ، والذى زعم أنه لا يكون للفقير ظرف ، قد تجاوز فى الجهالة والسخف ، بلى إن الظرف بذى التقلّل مليح ، ولكن الهوى وَالعشق بهم قبيح ، وَذلك أن الفقير إنْ طلب لم ينَلْ ، وَإنْ رام بُلوغًا لم يَصِلْ ، وَإن استوصل لم يُوصَل ، فهو كَمِدُ القلب ، عازبُ[2] اللب ، حزينُ النفس ، ميّتُ الحِس ، ذاهلُ العقل ،

---

(١) الأنوك : الأحمق ، والعاجز الجاهل .

(٢) عازب : غائب .

بعيدُ الوصل ، فتركه التعرُّضَ لما لا يقدر على بلوغ إتمامه ، أولى من تلبسه بما يزيده فى اغتمامه ، وقد يجوز أن يكون ظريفا بغير عشق ، كما كان عاشقا بغير فسق ، لأنه لا تهيأ له إقامةُ حدودِ العشق ، والظرفِ بلياقته ونظافته ، وتخلقه وتملقه ، ومداراته ومساعدته ، ولا يتهيأ له القيامُ بحدود العشق ، إذ لا مال له فيُعينه على هواه ، ولا مقدرةَ له فتُبلغه رضاه ، وإن بُلِيَ بمن يستهديه ويستكسبه ، ويطلب برّه ، ويريد فضله ، وهو لا يقدر على ذلك ، فهى الطامّة الكبرى ، والمصيبة العظمى ، والحسرة التى تبقى ، والكمد الذى لا يفنى ، فليتحرز الأديب من الهوى قبل وقوعه فى العطب ، وليتحفظ منه قبل طلبه التخلُّصَ من شركه ، فلا يقدر على الهرب ، وقلَّ مَنْ رأيتَ وقع فى هوى فنجا من غُلّ ، أو أمكنه التخلُّصُ من حبله ، ولن يقدر على التخلُّص من الهوى بعد الوقوع فى دَرَك البلا إلا مالِكٌ لقلبه ، مانع لغَرْبه[1] ، حازمٌ فى فعله ، جامعٌ لعقله ، فان الأديب إذا كان بهذه الصفة ، ورأى آيات الملل ، وعلامات الزلل ، وأمارات الغدر ، ودلالات الهجر ، بادر فريسته ، وتخلّص مُهْجَتَه . وزجر قلبه ، وصرف حبّه . ولم يُقِم على طول الجفاء . ولم يعرض نفسه لطول البلاء . ولم يستعبدها بالتذلل ، والخشوع والتضرع ، ولكنّه يصرفها صرف مقتدرٍ عَيوف[2] ، ويمنعها منع مالك عَزوف[3] ، وقد شرحتُ لك ما قيل فى المصارمة[4] بابًا لتقف عليه ، ويَبين لك صحة ما فيه ، إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

---

(١) الغرب : الدمع .

(٢) عاف الشىء : كرهه فتركه .

(٣) العزوف : الذى لا يكاد يثبت على مودة خليل .

(٤) صارمه : قاطعه .

٢١ — باب ما جاء في مصارمة ذوي الغدر
والمبادرة عند الملل والهجر

اعلمْ أنَّ صَبرَ المحب على هجر الحبيب ، تجرُّعه للغُصص والتعذيب ، ومعالجةُ الزفير والنَّحيب ، وتقلقُلُ القلبِ لِفرَق الوجيب ، من العجز الظاهر ، والموتِ الحاضر ، والمبادرةُ بالانصراف ، بعد تغيّر الأُلاف ، من الحزم المكين . والرأي الرصين . وإنَّ من أحسن ما قيل في المصارمة قول زهير بن أبي سلمى ، حيث يقول :

ألا لَقَوْمٍ للصَّبَي إذ يَقُودني ... وللوصْل من أسماء إذا أنا طالبُهْ
فَلَيْتَك قَالِيني فلا وَصْلَ بيننا ... كذلكَ مَنْ يَسْتَغْنِ يَسْتَغْنِ صاحبُهْ

ومما يتعلق بهذا قول المتلمس :

فإنْ تُقْبِلِي بِالوُدِّ نُقْبِلْ بِمثله ... وإلاّ فَإنّا نَحْنُ أنأى وأشْمَسُ[١]

ومثله قول نافع بن خَليفة :

بآيَةِ ما قالت غَنِيتَ بِغَيْرِنا ... وَنحن سَنَغْنَى عَنْكَ مِثْلاً وَنَصْدِفُ[٢]

وقال آخر :

فان تُقْبِلي بالودِّ نُقبِلْ بمثله ... وَإنْ تُدْبِرِي أُدْبِرْ إلى حالِ باليِا
ألمْ تَعلمي أنّي قليلٌ لُباتَتي ... إذا لم يكن شيءٌ لشيءٍ مُوَاتِيا[٣]

وَقال آخر :

فإنْ تُقْبِلي بالودِّ نُقْبِلْ بمثله ... وَإنْ تُؤْذِنينا بالصَّرِيمَةِ نَصْرِمِ

---

(١) الشماس : الامتناع ، ومنه شماس الدابة وهو ألا تمكن من الاسراج والالجام .

(٢) صدف : ارتد وانصرف .

(٣) اللبانة : الحاجة التي يهم الانسان قضاؤها .

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة :

سَلَامٌ عليها ما أَحبّتْ سلامَنا فإنْ كَرِهته فالسّلامُ على أُخرَى

ومثله قول الآخر :

وكنتُ إذا خليلٌ رام صَرْمِي وَجَدْتُ لَدَيّ مُنفَسَحًا عَرِيضَا

وأجاد أبو ذؤيب الهذليّ حيث يقول :

فإن وَصَلَتْ حبلَ الصّفاءِ فدُمْ لها وإن صرمته فانصرفْ عن تحَامُلِ

ومثله قول ابراهيم بن العبّاس :

بقَلْبي مِن هوى البِيضِ انصرافُ وتُعْجِبُني من البيضِ القِضَافُ [1]

فإن أَنْصَفْنَ في وُدّي وإلّا فليس عليّ من قَلبي خِلَافُ

وقد أحسن الذي يقول :

كَمْ مِن أَخي ثِقَةٍ قد كنتُ آمُلُه هَبّتْ عليه رِيَاحُ الغَدْرِ فانتَقَضَا

أَهملتُه حِينَ لم أَملِكْ صِيَانَتَهُ ثمّ انقبَضتُ بُودِّي مثلَ ماانقبَضا

وقلتُ للنّفس عُدّيه فَتًى نَزَحَتْ بهِ النّوَى أَومن القَرْضِ الذي انقرَضَا

فما بكيتُ عليـــه حين فَارَقَنِي ولا وجدتُ له بينَ الحشا مَضَضَا [2]

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَميطِي الهوى إن شِئتِ عَنّي فانقُضي عُهودَ الهَوَى واستَتِرْ زِقِي اللهَ في سِتْرِ

فلو كنتِ لي عَيْنًا إذًا لَفَقَأْتُها ولو كنتِ لي أُذنًا رميتُكِ بالوَقْرِ [3]

---

(١) قضف : نحف ودق .

(٢) المضض : وجع المصيبة .

(٣) الوقر : ثقل الأذن ، أو ذهاب السمع كله .

ولو كنت لى كَفًّا إذًا لَقَطَعْتُهَا ... ولو كنت لى قلبًا نزعتُك من صَدْرِى
سألتُك هل للناقِضِ العهدَ والذى ... يَخُونُ سِوَى الإعراضِ والصدِّ والهَجْرِ
فان شئتِ فَاقْلِينِى وإن شئتِ فاعرضِى ... فو الله ما أمْسَيْتِ مِنّى على أمْرِ

ولقد أحسن الخَلِيعُ حين يقول :

هَوِيتُكم جَهْدِى وزدْتُ على الجَهْدِ ... ولَمْ أرَ فيكم مَن يُقِيم عَلَى العَهْـــدِ
فان أمْسِ فيكم زاهدًا بعـد رَغْبَةٍ ... فبعد اختيارٍ كان فى وَصْلِكم زُهْدِى
لَعمرى لقد أغضيت فيكم على التى ... تجَرَّعنى المكروهَ من غصَصِ الحقْدِ
تأنَّيْتُكم بُقْيَا الصديق لتَقْصِدوا ... وتأْبُونَ إلا أَن تَجوروا عن القَصْدِ
تَعَزَّوْا بِيَأْسٍ عن هواى فإننى ... إذا انصرفت نفسى فَهَيْهَاتَ مِن رَدِّى
أَبَى القلبُ إلاّ نَبْوَةً عن جميعكُمْ ... كَنَبْوَتِكم عَنِّى فنى السُّحْقِ والبُعْدِ[١]
أرَى الغَدْرَ ضِدًّا لِلْوَفَاءِ وإنّنى ... لأَعْلَمُ أنَّ الضِدَّ يَنْبُو عن الضِّدِّ
إذا خُنْتُمُ بالغَيْبِ عَهْدى فما لكمْ ... تُدِلُّونَ إدْلَالَ المُقِيمِ عَلَى العَهْدِ
صِلُوا فافعلوا فِعْلَ المُدِلِّ بوصْلِهِ ... وإلا فَصُدُّوا وافعلوا فِعْلَ ذِى الصَّدِّ[٢]
فكَمْ من نذيرٍ كان لى قبلُ فيكُمُ ... وَهَا أنَا ذَا فيكُمْ نذيرٌ لِمَنْ بَعْدِى
فوا أسَفَا من صَبْوَةٍ ضاعَ شُكْرُهَا ... مَضَتْ سَلَفًا فى غيرِ أجْرٍ ولا حَمْدِ[٣]

وأنشدنى بعض المحدثين :

هجرتُ حبيبًا كنتُ أحسِب أننى ... سأَقْضِى حَيَاتِى قبلَ هجرانه وَجْدَا

---

(١) نبا الشىء : بعد وتأخر عن مكانه . السحق : البعد .

(٢) صد عنه : أعرض ومال .

(٣) صبا إليه صبوة : حن إليه .

وذلك أنّى كنتُ صبًّا بحبّه ... أُجاوزُ للإفراط فى حبّه الحَدّا

فقابلَنِى من قِلّة الحِفظ للوفَا ... بأنْ خانَنِي وُدّى ولم يرْعَ لى عَهْدَا

فقلتُ لقلبِي بالمَلامَـةِ فاصْطبِرْ ... وَرُمْ سَلْوَةً تَلْقَى بسَلْوتِكَ الرُّشْدَا

فطاوَعَنِي قلبي فبِتُّ مُسَلَّمَا ... أُفَتِّشُ عن وُدّى فلا أجدُ الوُدّا

وأنشد أبو الطيّب لنفسه فى مثل ذلك :

عَتَبْتُ عليكم مَرّةً بعـــد مَرّةٍ ... وأفرطتُ فى التَّعْذالِ واللَّوْمِ وَالزَّجْرِ [1]

فلمَّا رأيتَ القولَ ليس بنافِعِي ... ولا النَّهْيَ مقبولاً لدىَّ ولا أمْرِى

زجرتُ فُؤَادى زَجْرَةً عن هواكُمُ ... وقلتُ له سرًّا فأصْغَى إِلى سِرِّى

أفِقْ كَمْ يكون الهجرُ مِمّنْ تحِبُّهُ ... وهجرُ الّذى تهوى أحَرُّ من الجَمْرِ

وصَبْرُكَ لو تدرى على الهجر ساعةً ... وقد كنتَ تَرجوه أحرُّ من الجَمْرِ

تعَزَّ فإِنَّ الغدر منـــه سجيّةٌ ... ولا داءَ أدْوَى من مُعالَجةِ الغَدْرِ

تَعزَّ فإِنَّ اليــأسَ يُذْهِبُ بالهوى ... ولا شىءَ أشْفَى للفؤاد من الهَجْرِ

تَعزَّ وداوِ القلبَ منك بهَجْرِهِ ... ففى الهجر لو يأتى شفاَ غُلّة الصَّدْرِ [2]

فطاوَعَنِي قلبي فبِتُّ أرَى الهوى ... وما كنتُ فيه كالجُنُونِ أوِ السِّحْرِ

وأصبَحَ قلبي فارِغًا من هواكُمُ ... كأَنْ لم يكن عاناه فى سالِفِ الدّهْرِ

وأضْحَى وما فيه من الحبِّ والهوى ... إذا قِيسَ مقدارُ العُشَيرِ من الذَّرِّ

ولقد أحسن الذى يقول :

وَدِدْتُكَ لما كان وُدُّكَ خالِصًا ... وأعرضت لمّا صار نَهْبًا مُقَسَّمَا

---

(١) التعذال : الملامة .

(٢) الغلة : العطش الشديد .

ولن يَلبث الحَوْضُ الوثيق بناؤُه على كثرة الوُرَّادِ أن يتهدَّمَا

وقال آخر :

لا أشتهي رَنْقَ الحِيَاضِ ولا التي تُخاض ويَغشاها المطرَّحةُ الجُرْب[١]

ولا أشتهي إلا مَشَارِبَ أُحْرِزَتْ عن الناس حتّى ليس في مائها عَبْ

وأنشدني أحمد بن يحيي :

وإنّي لَأَستحيِي مِنَ الله أن أُرَى رديفَ وِصَالٍ أَو عليّ رَدِيفُ

وأَشرَبَ رَنقًا منكِ بعد مَوَدَّةٍ وأَرضَى بِحَبلٍ منك وهو ضعيفُ

وإنّيَ للماءِ المُخالطِ للقَذَي إذا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيوفَ

ومثله قول الآخر :

لقد زَعَمَتْ رَيَّاكَ أنكَ غَادِرٌ وأنك للشُّرب الغداةَ عَيُوفُ

لقد كَذبتْ ما إن أعِيجُ بِشُرَب أُجاجٍ ومالي في الوِصَال رَدِيفُ[٢]

وأخبرني أحمد بن يحيي ، عن الزبير بن بكار ، قال : كان نُصَيبٌ يأتي خُلَة[٣] له بالأبواء ، وكان إذا أتاها رحّبت به أمُّها وأكرمته ، وفرشت له إلى جنب ابنتها ، فجاء يومًا وعندها فتى أصفر كأنّه مُسِرٍ ، يتولّج[٤] عليهم بيتهم بغير إذن ، ويختلط بهم اختلاطا يكرهه نصيب ، فوثب إلى رحله فشدّه على راحلته ، فعلقت به الجارية وقالت : ألا تبوء عندنا يا أبا محجن كعادتك ؟ فقال :

أراكِ طَمُوحَ العين طارقةَ الهوى لهذا وهذا منكِ وُدٌّ مُؤَالِفُ

---

(١) رنق الماء : كدر .

(٢) عاج بالشيء : عبأ به ، يقال ماعجت بالشيء ، أي مارضيت به . أج الماء : صار أجاجا ، أي ملحا مرا .

(٣) الخلة : الصداقة والصديق ، والزوجة .

(٤) يتولج : يدخل .

فإن تحملى ردفين لا أكُ منهما ... فحِبِّى بفردٍ إننى لا أُرَادِفُ

وأنشدنى ابراهيم بن محمد النحوىّ لنفسه :

يا مَنْ توهَّمَ أننا نهواهُ ... ونذوب شوقًا إن نأى مثواهُ

كذبتك نفسُك فى بعادك راحةٌ ... إذ كنتَ ممّن مُهجتى تسلاهُ

لا يجمع القلبُ القريحُ صبابةً ... وتأذِّيًا منه بمن يهواهُ

لكنْ اذا حلَّ الأذى صَرَفَ الهوى ... فانزاح عن قلبِ المُحِبِّ هواهُ

ومثل ذلك قول أسماء بن خارجة الفزارىّ :

خُذى العفوَ منّى تستديمى مودّتى ... ولا تَنطقى فى سَوْرتى حين أغضبُ[1]

فإنّى رأيت الحبَّ فى القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ

ومثله قول الآخر :

وصلتُك لمّا أن رأيتُك واصلاً ... وباعدتُ حبلَ الوصْلِ لمّا بدا لكا

توهّمتُ منك الحِفظَ والرَّعْىَ للهوى ... يكون فلمّا أن رأيتُ فعالكا

زجرتُ فؤادى واجتنبتُك بعد ما ... رأيتُ وَنحّيتُ الهوى عن أنائكا

فإن قال قومٌ إنّ فى النّاس عاشقًا ... سَلا سُرعةً يومًا فإنّىَ ذالكا

وأنشدنى غيره أيضا :

مَنحتكُمُ صفوَ المودّةِ والهوى ... وأفرطتُ حتّى جزْتُ فى ذلك الحَدّا

وأعطيتُكم منّى القِياد ولم أكنْ ... لأُعطيه مَنْ أهوَى ولو شفّنى وَجدا

فقابلتمونى ضِدّ ما قد منحتُكُمْ ... وما كان حقّى أن أُقابلَه ضِدّا

---

(١) العفو : خيار الشىء وأطيبه ، ومن المال : ما يفضل عن النفقة ولا عسر على صاحبه فى إعطائه ،وأعطاه للمال عفواً أى بغير مسألة . السورة : الثورة والوثبة .

فقد نلتُ مما كان منّى من الهوى وآليتُ ألاّ أُخلص الحبَّ والوُدّا
فان شئتمُ جُدّوا الوِصال من الهوى وإن شئتم خُونُوا القطيعةَ والعَهْدَا
فانى برىءٌ لا ذكرت مَودَّةً ولا عِشت الا سامِرِيًّا كذا فَرْدَا

وأنشدنى أيضا لنفسه :

مَنْ سَلَا عنك فاسْلُهُ لك فى الناس مِثْلهُ
لا تقولنّ لَمْ وكَمْ وعَسَى أوْ لَعَلّهُ
فالعَسَى يعقِدُ الهوى والتَّعزّى يَحُلُّهُ
كلُّ حُبٍّ اذا انقضَى بعضُه هَانَ كُلُّهُ

وأنشدنى أبو عبد الله بن مُسْرِف لنفسه :

أُدنُ من كلّ صاحبٍ يَدْنُ شِبرًا منك بالوصل والوِدادِ ذِراعا
واذا ما نَأَى ذِراعًا فزِدْهُ أنت بالهجر والقطيعةِ باعا[1]
ثمّ لا تَطْعَنَنَّ يومًا عليه بعُيوبٍ وإن شَنَاك سَماعا

وهذا الباب على كثرته ، واتساع القول فى صحته ، يعز على الأديب فعله، ومنعه من اتيانه شغله . لأنه لا يقدر أحد على التخلص من الهوى بعد الوقوع فى شَرَكه ، واشرافه على مَهول مهلكه ، الا بعد همٍّ دخيل ، وسقمٍ طويل ، وفكرٍ قاتل ، وشغلٍ شاغل . فتحرُّز ذوى النهى من الهوى بالنزوع ، أولى من إعمال الحيلة فى طلب التخلص والرجوع .

واعلم أنه لا يصلح العشق الا لأربعةٍ : لذوى مروّةٍ ظاهرة ، أو زِىٍّ ظاهرة ، أو ذى مالٍ واسع ، أو ذى أدب بارع ؛ ويقبح ممّن سواهم ، لأن

(١) الباع : قدر مد اليدين .

الفقير إذا تعدّى طوره ، ورام أن يجاوز قدره ، قبح ذلك به ؛ كما أنّه يقبح بذى الغنى تركُ التعرّض لأسباب الهوى ، وذلك لصغر نفسه الدنيَّة ، وسقوطِ همّتِهِ الرديّة . لا يمنعه من طلبه قلّةُ ذات يده ، ولا تعذّرُ الجَدّ ، بل فسادُ الطبع ، وعدمُ الحاسّة ، وموتُ الذّات .

وبعدُ فإن كنّا فى تقدُّمنا فى غرض خطابنا ، وفصول كتابنا ، بإباحة العشق والهوى ، ودعونا إليه الأدباء ، وحثثنا عليه الظرفاء ، وملأنا بذلك كتابنا ، فإنّا نفرد للنصيحة فيه بابا يميل إليه أهل التدبير ، وأهل المعرفة والتبحّر ، ويرغب فيه العاقل ، ويزهد فيه الجاهل ، لأنى لم أُخلِه من كلام منثور ، وشعر مشهور ، فقف على ما أصّلتُ[1] يبن لك ما فرّعتُ ، إن شاء الله .

٢٢ — باب النهى عن الهوى والتعرّض لأسباب الضّنى

اعلمْ أنّه يقبح بالرجل الأديب ، والعاقل اللبيب ، أن يستخذى فى هواه ، ويُملك قلبه سواه ، ويكون خادمَ قلبه ، وأسيرَ حبه ، لاسيما مع تغيّر الزمان ، وغدر الأحباب والخلاّن ، ما يجد فيهم خليلا صادقا ، ولا يصاحب إلا ماذقا[2] ، ثم أن أجهل الجهالة ، وأضلّ الضلالة ، صبرُ الفتى الأديب على غدر الحبيب ، فإنّ الصبر على الخيانة والغدر ، يضع من المروّة والقدر ، وقد قال بعض الشعراء فأحسن :

وإنّى وإن حنّت إليكم ضمائرِى ... فما قَدْرُ حُبٍّ أن يَذِلَّ له قَدْرِى

فلا ينبغى لأحد أن يَذلّ لِهوَاه ، فيُشمِتَ بنفسه أعداءه ، ولا يركن إلى

---

(١) أصله : بين أصله أو أصالته .

(٢) الماذق : الذى لم يخلص الود .

واحدة من النساء الحرائر والاماء ، فكلهنّ فى الغدر سواء ، وما لواحدة منهنّ عهد ولا وفاء ، ولقد أحسن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حيث يقول :

ألا أيُّها القومُ المحبُّون وَيحَكُمْ　　　تعزَّوْا عن الأحباب واحتَسِبُوا الأجْرَا

فما واحدٌ منهم بِوَافٍ لواحدٍ　　　وصاحِبَتِي تَجْزِى وفاْئى لها غَدْرَا

فلو كنتُ من صَخْرٍ لما كنتُ صابرًا　　　وما أنا من صخرٍ وما أنركُ الصَّبْرَا

وقد بلغنا أن ببعض بلاد الهند قوما لا يعشقون ، ويرونه ضربا من السحر والجنون ، وذلك لمن فيهم الفلسفة ، ولهم الحكمة والتجربة .

وزعموا أن سبب العشق سبب النوى ، وفيه المَذَلة والعناء ، ومنه يكون السقم والضنى ، وأكثر مَن فى النساء وفاء . أسرعُهن خيانة وجفاء ، وأعطاهن حلفا وايمانا ، أسرعُهن خُبثا وسلوانا ، فيا رحمتى للأدباء ، وشفقتى على الظرفاء ، فما أطوَلَ بلاءهم ، وَأكثرَ شقاءهم ، وأسخَن عُيونهم ، يبتلى العزيزُ منهم بالذليلة ، والكثيرُ منهم بالقليلة ، والشريفُ بالدنيّة ، والنبيلُ بالزرية ، فيطول فى عشقها سهرُه ، وَيكثر فى أمورها فكرُه ، وتنهلّ عليها اذا نأت دموعه ، وَيطول لديها إذا قربت خضوعُه ، وَهى تُظهر له المحبة ، وَتُبدى له الرغبة ، وتحلف بالايمان المُحرِّجات ، والعهودِ المؤكدات ، انه حظها من الآدميِّين ، وشغلُها دون سائر العالمين ، وتُريه الجزع عند الفراق ، والفرحَ عند التلاقى ، فتملأُ قلبَه همًّا ، وتورثه ضنًى وسقما ، وهى تكاتب سواه ، ولا تعبأ بهواه ، لها فى كل زاوية ربيط ، وفى كل محلة خليط ، لم يَعدُها[1] قول الشاعر :

---

(١) عدا الأمر وعن الأمر : تركه .

فيامَن ليس يُقنِعُها مُحِبٌّ ولا أَلْفا محبٍّ كلَّ عامِ
أَظُنُّكِ من بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى فَهُمْ لا يَصْبِرون على طَعامِ
أَتَيتُ فؤادها أشكو إليه فلم أَخْلُصْ إليه مِنَ الزِّحامِ

ولا قولُ الذى أنشدنى قوله أيضا :

الخانُ يَعجِزُ عن قوم اذا كَثُروا لَكنّ قلبك مثلُ الخان أضعافُ
فى كلِّ يوم له خمسون يَعْشَقُهمْ فى كلِّ شَهْرٍ له ألفٌ وآلاف

وحكى الهيثم بن عدىّ : أنّ رجلا من العرب هوى جارية ، فتمسّك بودّها ، وركن الى محبّتها ، ثم اطّلع على أنّهـا لا تردّ يد لامس ، فقطعها وأنشد يقول :

ألا حَيِّ أَطلَالًا لِواسِعَةِ الحَبْلِ ألوفٍ تسَوِّى صالحَ القوم بالرَّذْلِ (١)
فلو أنّ مَن أضحَى بمُنعَرَجِ اللّوى الى الرَّمْلَةِ القُصْوَى بساقطة النَّعْلِ
جُلوسًا الى أن يَقصُرَ الظِّلُّ عندها لَراحُوا وكلُّ القَوْم منها على وَصْلِ

ومن أكثر المحال ، وأحمق المقال ، قناعة المرأة بصديق ، وصبرها على رفيق ، أحسن مَن فيهنّ حالا ، وأقلهنّ أشغالا ، من لها صاحبٌ مشهور ، وخليلٌ مستور ، وربيط تراسله ، وصديقٌ تحامله ، وإن كان ذلك لا لمال ، ولا لطمع وآمال . فقد كنّا تقدّمنا فى باب صفة القينات ، وما طُبِعنَ عليه من المكر والخيانات ، انّهنّ يكتسبن بالهوى والعشق ، ويُداربن بالتّعلّق والرّفق ، وليس بنات البيوت فى الخدور ، وربّات الحجال (٢) والقصور ، كذوات المذق من القينات ، وكذوات التكسّب من المتقنّيات ، فإنّ هؤلاء

---

(١) الحبل : الوصال . الرذل : القبيح .

(٢) الحجال : جمع الحجلة : ستر يضرب للعروس ، أو بيت يزين لها .

معروفات بطلب الدراهم والأموال ، منسوبات الى التكسّب بتعشّق الرّجال ، لا يقدم عليهن إلا مغرور ، ولا يثق بهنّ إلا مسحور ، وإنما يذهب على أَهل الألباب ، وأَهل التظرف والآداب ، مكرُ البنات المخَدَّرات ، والغوانى المحجّبات ، اللواتى لم ترهن العيون ، ولم تكثر فيهنّ القالة والظنون ، اللواتى يبذلن نفيسَ الأموال لمن يتعشّقنه ، ويعنّين من راسلنه وكاتبنه ، وتزعم أَنهنّ وراء الحجاب ، ودون الأقفال والأبواب ، وأَنهنّ لا فرحَ لهن إلا فى المكاتبة ، ولا فرحَ إلاّ فى المراسلة ، ولا سرور إلاّ فى النظر من بعيد ، ولا يقدرن على اللقاء إلاّ فى الخروج فى كلّ عِيد ، وأولئك اللواتى تخف أمورهنّ ، وتَعنى سرائرهن ، ويطمع الجاهل فيهن ، ويصبو النزق[1] إليهن ، ويثق بحبّهن الأحداثُ والأطفال ، ولا يتمسك بودّهن إلا الجُهّال ، مع أن مكرهن أَخفَى من الخيال ، وأَعظم من راسيات الجبال ، تنفذ حِيَلُهنّ على الرجال . و يتمكّن كيدُهن من الأبطال ، وفيما خبّر الله جل ثناؤه فى بعض القرآن من عظيم كيدهنّ ، ولُطفِ حِيَلهنّ ، ما يُغنى عن شرح كثير من سِرّهن ، وإن فى قصة زليخا ويُوسُف ما يستغنى به ذوو العقل والافهام من مكرهن القوىّ ، وكيدهن الخفى ، ولن يحترز منهن الاّ المجرّب ، ويتّقى منهن الا المدرّب ، فانّ ذا الحنكة اذا كان بهن عليما ، وكان فى أمورهن حكيما ، أَخذ من حبّهن عَفْوَه ، وَشرب من هواهن صفوَه ، ولم يعلق بهن فؤاده ، ولم يمكن قياده ، وذلك الحسن الحال ، والرخى البال ، لم تُورّقه الغموم ، ولم تُنضِجه الهموم ، لا كالذى غلب عليه الشقاء ، وأُتيح له البلاء فركن

---

(١) نزق الرجل : نشط وطاش وخف عند الغضب .

الى حبّهن ، ودعته الرغبةُ الى ودّهن ، فتمكن منه الهوى ، وتفرّد به الضنى ، وتلك لاتَشعر بسهره . ولا تعبأ بفِكره ، وبالله أُقسِمُ صادقا لو حلفتَ ، أنّهن لايعرفن شيئاً من الوفاء ما حنثتُ ، ولو بحث المغرورُ بهنّ ، المخدوعُ بحبهنّ ، عن صحيح أخبارهنّ ، وفحص عن مكنون أسرارهنّ ، لوَقف على صورة غدرهن ، ولبَان له جملةٌ من مكرهن ، ولهُنّ عليه بعد الكرامة ، ولرجع على نفسه بالملامة ، كما أنشدني بعض الأدباء لنفسه :

أَوَصلَكَ أرجو بعد أنْ رثّ حَبْلهُ ... لقد ضلّ سَعْيِي إذ رَجَوْتُ مَلولَا
أَتوبُ اليك اليومَ من كلّ تَوْبَةٍ ... فقد هُنتَ فى عَيْنى وكنتَ جَليلَا
إذا لم يَجِدْ إلفِي عن الغدر مَذْهَبًا ... وجدتُ إلى حُسْنِ العزاءِ سَبيلَا
فوالله لا أَرْضَيْتُ داعيةَ الهوى ... إليك ولا أَغضبتُ فيك عَذولَا

وأنشدني أيضًا :

سأغدِرُ حتّى تَعجبوا من خياتى ... فما لِىَ ذَنْبٌ غَيرُ حُسْنِ وَفائِى
ولولا أُمورٌ عارضتْ ما سبقتَنى ... إلى الغَدْرِ حقًّا لو تَرَكْتَ وَرائِى
سأُنْزِفُ دَمْعِى حَسْرَةً وتندُّمًا ... على مامضى مِنْ صَبْوَتِى وعَنائِى

وأنشدني للحُسين الخليع :

تُراك على الأيام تَنجو مُسَلَّمًا ... ولستَ تَرى من غَدْرَةٍ أَبَدًا بدًّا
ألستَ الذى آليتَ بالله جاهدًا ... يمينًا وخُنْتَ اللهَ مَوْثِقَهُ عَمْدًا
أَلَا فى سبيل الله ودٌّ بذلتُه ... لِمَنْ خانَنِي ودِّى ولم يَرْعَ لى عَهْدًا
عَدِمْتك من قلبٍ أقامَ لغادر ... على العهد حتى كاد يَقتُلُنى جِدًّا

ومن ذلك قول الحكمي :

أَلا فى سبيل الله ودٌّ بذلتهُ لِمَن لم يكن منِّى لِمِشاره أَهْلَا
سِوَى ماذا فكرتُ فيه وجدتنى أفوز به أنّى اكْتَسَبْتُ به عَقْلَا

وأَنشدنى بعض الأدباء لنفسه :

تَوَاكَيْتَ لى حتّى حسبتُك مُغْرَمًا وأعرضتَ حتّى خِلْتُ نفسىَ مجرما
ومالك شىءٌ منهما غيرُ أنّنى أراكَ ترى نقضَ المَوَاثيقِ مَغْنَما
وما كنتُ أدرى كيف يَصبر عاشقٌ ولا كيف يَسْلى بعد أنْ يَتَتَيَّمَا
فأنقذتنى بالغدر من غَمْرَة الهوى وعلّمتَ قلبىْ الصبرَ حتّى تَعَلّمَا(١)
ولو لم تُخَلِّصَنى بغدرك لم أجِدْ إلى سَلْوَةٍ حتى القيامَةِ سُلَّمَا
فلم ترَ عينى قبل شخصِك ظالمًا تعمَّدَ أَن يجنى فأَصبحَ مُنْعِما
فَجُوزيتَ عنّى بالذى أَنت أَهلهُ فكلُّ امرىءٍ يُجْزَى بما قد تَيمَّمَا
سَيَنْدَمُ إنسانٌ لعهدِ خليلِهِ وقلَّ لِمَن لم يرْعَ أَنْ يَتَنَدَّمَا

وأنشدنى أيضاً :

ياقلبِ قد بانَ مَنْ كَلِفْتَ به فَخَلِّ عنك البكاءَ من أثَرِهْ
شُغْلُكَ بالفِكرِ فى تَغَيُّرِهِ أعظَمُ ممّا لقيتَ من حَذَرِهْ
قد يَسْلَمُ العاجزُ الضّعيفُ وقدْ تَتْلَفُ رُوحُ القوىِّ من غِيَرِهْ(٢)
وقد يَفوت القريبَ مَطْلَبُهُ وقد يؤُوبُ البعيدُ من سَفَرِهْ
فإن يُذِقْك الوصالُ حَسْرَتَهُ فقد جَنَيْتَ اللّذيذَ من ثَمَرِهْ

---

(١) غمرة الشىء : شدته .
(٢) غير الدهر : أحداثه .

فَارْحَلْ فَمَن لا يَحِلُّ مَوْرِدُهُ يُفْضِ به صَفْوُهُ إلى كَدَرِهْ

ولقد أحسن الحكمىّ حيث يقول :

أيُّها المُنتابُ عن عُفُرِهْ لستَ من لَيْلى ولا سَمَرِهْ[١]
لا أذودُ الطيرَ عن شَجَرٍ قد بَلَوْتُ المُرَّ من ثَمَرِه[٢]

وأنشدنى محمد بن خلف أحد الفقهاء ، وأحسن فى قوله :

اذا كنتُ لا أنفكُّ منك مروَّعًا بغَدْو فإنّ الهجرَ ليس برائعِ[٣]
إذا خانَنى من كنتُ أهوى وصالَه فلستُ بجَنّاتِ الخُلودِ بقانعِ
أبَتْ عزَماتى أن يَقود زِمامُها الى غادرٍ بالعهد ذُلُّ المطامعِ
فيامَنْ به كانت حَياتى حبيبةً إلىّ ومَن لَوْلاهُ قَلَّت رَوائعِى
تَعزَّ بيأسٍ عن تذَكُّرِ ما مضى فلستُ لمن لم يَرْعَ عهدى بتابِعِ
وإنّى وإن لم يَرْقَ دمعى تأسُّفَ عليك فما قلبى إليك براجعِ

وأجود ما قيل فى هذا الباب قول أبى ذُؤَيْب الهُذَلىّ :

فإن تُعْرِضِى عنّى وإن تتبدّلى خليلًا وإحدا كُنّ سوء قُصارها[٤]

---

(١) المنتاب لك : القاصدك المتردد عليك . والعفر : طول العهد . لست من ليلى : لست من سمارى ليلا . والخطاب لصديقة ، اتصلت بصديق له ، يبرأ منها ، وإن كان فى الظاهر لذكر ، إذ المقصود الشخص .

(٢) ذاد عنه : حماه ودافع عنه ، والبيت للتمثيل ، يقول : لاأحميك بعد خيانتك .

(٣) لا أنفك : لا أزال . مروع : فزع . الرائع : المعجب .

(٤) قصارها : مصيرها الذى تصير اليه ، أى الغاية التى تحبس عندها وتقف فلا تتعداها ، ويروى : فان تصرمى حبلى وإن تتبدلى

فإنى اذا ما خُلَّةٌ رَثَّ حَبْلُها وَجَدَّتْ لِصَرْمِى واستمَرَّ عِذارها[١]
وَحالت كَحَوْلِ القَوْسِ طُلَّتْ وعُطِّلتْ ثلاثاً فأعْيَى رَدُّها وظِهارها[٢]
فإنّى قَمِينٌ أن أُوَدِّعَ عَهْدَها بِحَمْدٍ ولم يُرْفَعْ إلينا شَنارَها[٣]

وأحسن محمد بن عبد الله بن طاهر حيث يقول :

أَلم تر أَنَّ المرءَ تَدْوَى يَمينُه فَيَقْطَعُها عَمْـداً لِيَسْلَمَ سائِرهْ
وكيف تراه بعد يُمْناه صانِعاً بِمَن ليس منه حين تَدْوَى سَرائِرهْ

فهكذا لعمرى ينبغى أن يفعل الأدباء ، وبمثل هذا فليتّعظ الظُّرفاء . وقد يجب على العاقل المتأدّب وذوى الحُنكة والتجارب أن يجعل المرأة بمنزلة الريحانة ، يتنعّم بنضرتها ، ويتمتع بزهرتها ، حتى اذا جاءَ أوانُ جفافها ، وحالت عن حالها فى وقت قطافها ، نبذها من يده وألقاها ، وباعدها من مجلسه وقلاها ، إذا لم يبق فيها بقية لمستمتع ، ولا لذة لمتمتّع ، ولله درّ الذى يقول :

تمتَّعْ بها ما ساعفَتْك ولا تكُنْ عليك شَجًا فى الحَلْقِ حين تَبِينُ
وإنْ هِىَ أعطَتْك اللّيانَ فإنّها لآخَرَ من خُلّانها سَتَلِينُ
وانْ أقسَمَتْ لا يَنْقُضُ النأىُ عَهْدَها فَلَيْسَ لمخضوبِ البَنانِ يَمِينُ

ومثل ذلك قول النَّمِر بن تَوْلَب :

وكلُّ خليلٍ عَلَتْه الرِّعا ثُ والخُبُلاتُ كَذُوبٌ مَلِقْ

---

(١) الخلة : الخليلة . رث : خلق . واستمر عذارها : اقتتل ، يقال : أمررت الحبل فاستمر ، أى فتلته فتلا شديدا فانفتل ، وهذا مثل ، يقال : لوى على عذاره : إذا عصى

(٢) حال : تحول من حال إلى حال . طلت : أصابها الندى «الطل» . ظهار القوس : ظهرها . يشبه خليلته فى تحولها وعدم استقامتها على وده بقوس أصابها الطل فنديت ، وعطلت ، أى ألقى وترها ثلاثة أشهر ، فاعوج مقبضها وظهرها ، وأعيت تلك القوس أن ترجع إلى استقامتها .

(٣) القمين : الخليق الجدير . الشنار : العيب والكلام القبيح .

ومن جيد ماقيل فى هذا الباب ، مما يجب قبوله على ذوى الألباب ، قول الحكم بن معمر الخضرىّ ، أحد بنى حِصْنِ بن مُحارب :

وبعضُ الهوى داءٌ وفى اليأس راحةٌ ... إذا انبتَّ وصلٌ لو نَبابك مَنْزِلُ(١)

وذو العقل لا يأْسَى على وَصْلِ خُلَّةٍ ... إذا لم يكن يومًا عليها معوَّلُ

فلا تَرْضَ بالأمر الذى ليس بالرِّضَى ... إذا كنتَ تَعْتامُ الأمور وتَفْصِلُ(٢)

إذا المرء لم يُحْبِبْك إلا تكرُّهًا ... فَدَعْه ولا يَعْجَزْ عليك التَّحوُّلُ

وفى الأرض أكفاءٌ وفيها مُراغَمٌ ... عريضٌ لِمَنْ خاف الهوانَ ومَرْحَلُ(٣)

وأنْ يُقْطَعَ الأمرُ الَّذى أنت قادرٌ ... على جَذِّهِ منـــه أعَفُّ وأجْمَلُ(٤)

والكلام فى هذا الباب مطّرد(٥) ، والقول فيه منسرد(٦) ، ولكن كرهت به إطالة الكتاب ، واقتصرت على قليل من الخطاب ، وأبديت نصيحتى للأدباء ، وأهل المعرفة والعقلاء ، وأخبرت بما صحّ عندى ، وبالغت فى النصيحة جهدى ، فان رغب فيها راغبٌ فغير ملوم ، وان زهد فيها زاهدٌ فغير مذموم ، وأنا أعود الى ذكر الظّرف والهوى ، فقد مضى من هذا البابِ ما كفى .

واعلم أن للعشق سُنَّة مقصودة ، وللظّرف شرائع محدودة ، ورأينا أربابه

---

(١) انبت : انقطع
(٢) عتم عن الأمر : كف عنه بعد المضى فيه
(٣) المراغم : المهرب والمذهب .
(٤) جذه : قطعه فانقطع . أجمل : أحسن
(٥) اطرد الأمر : تبع بعضه بعضا واستقام وتماثلت أحكامه ، ومنه حكم مطرد ، أى عام لاشذوذ فيه .
(٦) منسرد : متتابع فى نظام .

وأهله وطُلَّابه متّبعين لسُبلها[١] ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سُمُّوا بغير اسم الظرفاء عند أهل الظرف ، ودُعوا الى غير سُنّة العُشّاقِ والأدباء ، ولهم فيما استحسنوه من الزىّ والطّيب والثياب ، والهدايا والطعام والشّراب ، حدٌّ محدود ، مستحسن معلوم ، وزىٌّ بين الطائفتَين مقسوم ، لاالرجال يتجاوَزون ما حُدَّ لهم الى حد متظرّفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدّهنّ الى حدّ الرّجال الظرفاء ، وَأنا أصف لك زىّ الفريقَين من الظرفاء وَالمتظرفات ، وَأشرح لك ما عليه هؤلاء وَهؤلاء من الزىّ وَالهيئات ، إن شاء الله .

٢٣ — باب ذكر زى الظرفاء فى اللباس المستحسن عند سَرَوَات الناس[٢]

اعلم أنّ من زى الرجال الظرفاء ، وَذوى المروّة وَالأدباء ، الغلائلُ[٣] الرقاق ، والقمُص السِّفاق[٤] ، من جيد ضروب الكتان ، الناعمة النقيّة الألوان ، مثل الدَّبيقى[٥] والجَنّابى والمُبطّنات التّاختَج والخامات ، ودراريع البَرَدجرْد[٦] والاسكندرانى ، والملْحَم الخزّى[٧] والخراسانى ، ومبطّنات القوهى[٨] الرّطْب ، وأُزُر القصَب الشَّرْب ، والأردِيَة المحشّاة العدَنية ، والطّيالسة

(١) السبل : جمع السبيل ، الطريق .
(٢) سروات الناس : سادتهم .
(٣) الغلائل : جمع الغلالة ، شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع .
(٤) سفق الثوب : كان سفيقا ، أى كثيفا .
(٥) الدبيقى : نسبة الى دبيق ، وهى قرية من قرى دمياط تنسب اليها الثياب المثقلة .
(٦) الدراريع : جمع الدراعة : جبة مشقوقة من الإمام . وبردجرد : بلدة بين الكرخ وهمذان .
(٧) الأثواب الملحمة : المسدودة من قدام . والخز : الحرير ، أو ما نسج من صوف وحرير
(٨) القوهى : ثياب بيض .

الملحَم النّيسابوريّة ، والمُصْمَتة الدّبيقيّة ، والجباب النيسابورية ، والمُصْمتة الطّرازيّة ، والوَشْى السّعديّة ، والخُزوز الكوفية ، وَالمطارف السُّوسيّة ، والأكْسية الفارِسيّة ، والطّيالِسة التُّومُسيّة الزُّرق السُّلُوليّة ، وَكلّ ما أشبه ذلك وقاربه ، ودنا منه وصاحبه ؛ وليس يُستحسن لبس الثياب الشّبِعة الألوان ، المصبوغة بالطّيب والزعفران ، مثل المُلْحَم الأصفر ، والدبيقيّ المعنبَر ، لأن ذلك من لبس النساء ، ولبس القينات والإماء ، وقد يلبسون ذلك فى القصد والعلاجات ، وَوقت الشراب والخَلَوات الغلائلَ الممسّكة ، وَالقمصَ المعنبرة ، والأردية الملونة ، والأزر المعصفرة ، ورُبّما استعملوها لفرشهم ، ولبسوها فى وقت قصفهم[1] ، وتظرّفوا بها فى مجالسهم ، وتخفّفوا بها فى منازلهم ، والظهور فيها قبيح بالسوقة والظّرفاء ، مستحسن من أهل النِّعَم وأبناء الخلفاء . وليس يُجيز أهل الظّرف والأدب لبسَ شىء من الثياب الدنسة مع غسيل ، ولا غسيلا مع جديد ، ولا الكتّان مع المَرْوِيّ ، ولا البا بِياف مع القوهيّ أيضا ، وأحسنَ الزيّ ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق .

٢٤ — باب زى الظراف

فى التّكك والنعال والخفاف

ومن زيّهم لبس النعال الزّيجيّة ، والتخان الكَنْبَاتية ، والمشعَّرة اليمانية ، والحذو اللّطاف ، والمختّمة الخفاف ، ويشرك أسودَها بأحمر ، وأصفُرها بأسود ، ويلبسون الخِفاف الهاشمية ، والمكسورة الكُتانيّة ، ومن الأدَم الثخين ، وَالأسود الرزين ، بالجوارب الخزّ ، والمَرْعِزّى وَالقزّ ، وَيعيبون

(١) القصف : الاقامة فى الأكل والشرب واللهو

لبسَ الأحمر من الخفاف ، وَلبسَ الدارشيّة الخفاف ، وَيتخذون التّكك الإبريسمية ، وَالتكك الخَزّية ، وَالمطارف القطنية ، وَالمنقوشة الأرمنيّة .

٢٥ — باب زيهم المخصوص

فى الخواتيم وَالفصوص

التختُّم بالعقيق الأحمر ، وَالفيرُوزَج الأخضر . وَالفضّة المحرقة ، وَالياقوت الاسمانجونىّ ، وَالبَجاذىّ الخُراسانىّ ، وَالمعرانية الحمر ، وَالياقوتية الصفر ، وَاليمانية السود ، الحسنة القدود ، على الخواتيم المهرانية ، وَالمضروبة المتوكّليّة ، وَلا يتختمون بالذهب ، وَليس من زى ذوى الأدب ، وَإنما هو من لبس النساء ، وَلبس الصبيان وَالاماء .

٢٦ — باب زيهم فى التعطر والطيب

الذى من خالفه كان غير مصيب

ومن زيّهم فى التعطّر والطيب بالمسك المسحول[1] ، بماء الورد المحلول ، واستعمال العود المعنْبَر ، بمـاء القرَنفُل المخمَّر ، والنَّدّ السلطانىّ ، والعنبر البَحْرانىّ ، والعبير والذرائر المفتوقة بالعبائر ، وسوى ذلك من الطيب لا يقربونه ، والكافور لعلّة بَرْده لا يستعملونه ، إلّا من حرارة ظاهرة ، أو من علّة غالبة ، أو موضوعا على الجمر ، مخلوطا بعبير المسك وزعفران الشّعْر ، وهو بهذه الصفة أطيب البَخُور ، وَليس البرْمَكيّة وَما أشبهها عليهم بمحظور ، وَإنّ الجيّد من البرمكية ، من البخور الذّكية . وَإنّما يكره استعمالها المتظرّفون

(١) المنحول : المسحوف .

إذ هيَ مِمّا يستعملونه المتقلّلون . وكذلك اجتنبوا ماء الخلوق[١] لأنه من طيب النّساء والغالية[٢] إذ هيَ من طيب الصبيان والاماء ، ولا يستعملون شيئا من الطيب الذَّفِر[٣] ، مِمّا يبدو له لون ويبقى له أثر ، وفى ذلك حديث مأثور عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنه قال : طيبُ الرجال ماظهر رائحته[٤] ، ومتى استعملوا شيئا من الغالية أو طيب النساء ، كانت فى أصول الشَّعْر ، بحيث يُشَمُّ ولا يُرى له أثر .

٢٧ — باب فى متظرفات النساء

فى اللباس المخالف لزىّ الظرفاء

لبس الغلائل الدُّخّانيّة ، والأردية الرشيديّة ، والشُّروب المزرّرة ، والأردية الطبريّة ، والقَصَب الملوّن ، والحرير المعيَّن ، والمقانع النَّيسابوريّة ، وأُزُر المُلْحَم الخراسانيّة ، والجُربّانات[٥] الخانقية ، والكمام المفتوحة ، والسّراويلات البيض المذيّلة ، والمَعَاجِر[٦] السود المسنبَلة ، ولا يلبسن شيئا من التكك ، ولا شيئا من المرشوش والمطيَّب ، ولا النقيّة الألوان ، ولا من الثياب البياض الكتّان ، إلا ما كان ملوّنًا فى نفسه ، أو مصبوغا من جنسه ، أو مغيّرا بلون من أجناس المسّك والصندَل ، وأجناس المعنبَر والمسنبَل ، ليحول بالطيب عن تلك الحال ، إذ لبس البياض عندهم من زىّ الرجال ،

(١) الخلوق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .
(٢) الغالية : أخلاط من الطيب .
(٣) ذفر الشيء : ظهرت رائحته واشتدت ، طيبة كانت أو خبيثة ، وأغلبه فى الخبيثة .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى : طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ماظهر لونه وخفى ريحه .
(٥) الجربان : طوق القميص .
(٦) المعجر : ثوب تشده المرأة على رأسها .

ولا يلبسن أيضا من الثياب الأصفر وَالأسود وَالأخضر ، وَالمورّد ، وَالأحمر ، الا ما كان جنسه الصفرة أو التزريق ، والخضرة والتوريد والحمرة ، مثل اللّاذ والحرير والقزّ ، والديباج ، والوَشْى والخز ، لأن لبس المورّد والأحمر ، والسنيرى الأخضر ، إنما هو من لبس النساء النَّبَطِيَّات ، ولبس الاماء المتقينات . والبياض عندهم من لبس المهجورات ، والأزرق وَالحِداد من لبس الأرامل وَالمقرّعات . وأحسن الذى عندهم ماذكرناه ، وليس يتجاوز حدّ ما رسمناه .

٢٨ — باب زيهن المخالف لزى الرجال

فى لبس التكك والخفاف والنّعال

لبس النعال الكنْبانيَّة المشعَّرة ، والمدهونة المخصَّرة ، والخفاف الزنانية ، والمكسورة والرّهاويّة ، والتّكَك الابريسمية ، والرجال يشركونهنّ فى التكك الابريسميّة ، ولا يشركن الرجال فى التكك الدّيباج المنسوجة ، وشرّابات الابريسم المفتولة ، والزنانير العِرَاض ، ولا يذهبن فى ألوانها إلى البياض ، ولا ما كان منها كثير الألوان والتخطيط ، ويتطيَّرن من الألوان ، وقد يلبسن أيضا التكك الخزِّيّة المُطْرَفة القطْنيّة .

ومن زيّهنّ أيضا فى الطيب ، الذى ليس للرجال فيه نصيب ، استعمالُ اللَّخالخ والصندل ، والصَّيَّاح والقرنفل ، والساهرية والأذقَال ، والمعجونات والزعفران ، والخَلوق وماء الخلوق ، والكافور وماء الكافور ، والمثلَّثة الخزائنية ، والبرَمكيّة السُّلطانيّة ، وسائر صنوف الأدهان ، من البَنَفْسَج والزُّنبق والبَان ، إلا أنّهنّ اجتنبن استعمال التُّرشنام ، وَالرجال لا يستعملون

شيئا من ذلك ، وَالنساء يستعملن جميع طيب الظرفاء ، والظرفاء لا يستعملون شيئا من طيب النساء .

وَمن زيّهنّ المعـــلوم ، فى لبس الحَلْى المنظوم ، لبس مَخانق[1] القرنفل المخمّر ، وَمراسل الكافور وَالعنبر ، وَالقلائد المفصّلة ، والمَعاذات المخرّمة ، بشرابات الذهب المشبكة ، والابريسميَّة المسلسلة ، واتخاذ السّبج[2] اللطاف ، من المخروطة الخفاف ، ومثل السّبَج الحالك ، والكوهر والكرك ، والبلّور النقى ، وحَبّ اللؤلؤ السّرىّ . والحبّ الأحمر ، والكاربا الأصفر . وسائر صنوف الياقوت والجوهر ؛ وينظمن بالحبّ وصنوف الجوهر كرازنهن[3] ، وينقشن بالابريسم والذهب عصائبهن ، وَيتّخذن خواتيم المُقرّنة ، والمناقير المطبقة ، بفصوص الياقوت الأحمر ، والزمرّد الأخضر ، والاسمانجونى والأصفر ، ولا يحسن بهنّ التختّم بالميناوالعقيق ، والفضة والحديد ، والملوّح والفيرُوزج ، والبجاذىّ والمسانيح ، وذلك من لبس الرجال والإماء ، وليس من لبس متظرّفات النسَاء ؛ ولا يتّخذن منها ما ضاق وعسُر ، ولا ما جفا وكبُر ، وقـــد تطيَّر بعض الظرفاء من هدية الخاتم ، وزعمُوا أنه يدعو الى القطيعة ، وتهاداه آخرون وأقاموه مقام التذكرة والوديعة ، فأمّا الذين تطيّروا منه فينشدون :

وما كان هذا الهجرُ من طول بِغضَةٍ ... ولكنّ بعضَ المَزْح للمرءِ قاتِلَ
مزحتُ لِحَيْنى مــرَّةً بِخَواتِمٍ ... لِآخـــذَه حَلْتْ علىَّ النّوَازلُ
فَصَـــدّتْ ولم تَعْلَمْ علىَّ خِيانةً ... وطولُ صدودِ الخِلّ للعقل سامِلَ[4]

(١) المخانق : جمع المخنقة ، القلادة
(٢) السبج : جمع السبجة وهى كساء اسود
(٣) الكرازن : جمع الكرزن وهو تاج ملوك فارس وهو مرصع بالذهب والجواهر
(٤) السامل : الخلق البالى

وينشدون أيضا :

إنّى مزحتُ ولم أعلمْ بخاتَمِهِ ... فكان منه ابتِداءُ الهجر والغَضَبِ
قد كنتُ ماقال أهلُ الظَّرْف أُنكِرُهُ ... وكان قولُهُمُ عندى من اللّعِبِ
إنْ الخواتيمَ فيها قَطعُ وَصلِكمُ ... فقلتُ هذا لَعَمْرِى غايةُ الكَذِبِ
حتّى ابتُليتُ فكان الحقَّ قولُهُمُ ... أخْذُ الخواتيم فيه أكثرُ العَطَبِ

وأنشدنى صديق لى فى ضدّ ذلك :

يقول أناسٌ فى الخواتيم إنّها ... تُقَطِّعَ أسبابَ الهوى وأقولُ
بأنّ خواتيمَ المِلاح وَصُولَةٌ ... وخاتم مَن تَهوى المِلاحُ وَصُولُ

والعلّة فيما كرهه الظرفاء، وتطير منه الأدباء، من هديّة التّكة والخاتم، حتّى صار مستفيضا فى العالم، أن هذين وحَدَهما من جميع اللباس أن يُستظرفا فيستلبا، ويُستحسنا فيستوهبا، وأنّ الواحد اذا أهدى الى خليله، وأرسل الى حبيبه، بخاتمةأو تكّته، ففقدذلك من يده أو حُزّته، بعثه باعثٌ من غيرته، على قطيعته وهجرته، فأما من يتلقّى هديّة اخائه بالقبول، ويُنزلها منه بالمنزل الجليل، ويحفظها كحفظه لبصره، ويشفق عليها من الدهر وغيره، فهو آمِنٌ من المجانبة، مستريحٌ من المعاتبة.

وقد رأيناهم ربّما أهدوا ذلك، فيُهدونه على سبيل البيع، ويأخذون منهم الشىء الطفيف اليسير، كالدّرهم الصغير، والقطعة من البَخور، فيخرج بهذا البيع عن حدّ الهديّة، ويأمنون مافيه من مكروه البليّة.

وقد بلغنى أن أبانواس دخل على خالد خَيْلَويه، فنظر فى أصبعه الى خاتم، فقال : أرينيه. فدفعه اليه، وكان علامة بينه وبين جارية يحبّها، فانصرف

فاستعمل واحدا على مثاله ، ثم بعث به اليها ، فأنكرت الفصّ ، فبعثت به اليه ولم تأته ، فدخل على حياله ، فلمّا رآه مثل بين يديه وأنشأ يقول :

تَفْدِيك رُوحي يا أبا جَعْفرٍ جارِيةٌ كالقَمَرِ الأَزْهَرِ
تعلّقتْني وَتَعلّقتُها طِفلين في المَهْدِ الى المكْبرِ
كنتُ اليها تتَهادَى الهوى بخاتمٍ لي غير مُستَنكَرِ
فأنكرَتْه إذْ رأتْ فصَّهُ فأدركتْها غَيْرَةُ المُنْكِرِ
قالت لقد كان له خاتمٌ أحمرُ يُهْدِيها الينا سَرِي
فاليَوْمَ قد علّقَ غَيْرِي فقد أهْدَى له الخاتمَ لا أمْتَرِي
آمنتُ بالله وآياتِهِ إنْ أنا لم أهجُرْهُ فَلْيَصْبِرِ
أوْ يأتِ بالحُجَّةِ في تُهْمَتي إيّاه في خاتمِهِ الأحْمَرِ
فارْدُدْه تَرْدُدْ وَصْلَها إنّها قُرّةُ عيني يا أبا جعفرِ

فأخرجه من أصبعه فدفعه اليه ، فهذا دليل على إجازة تهادى الخواتيم ، وحفظها لأربابها ، وشدّة الغضب والغيرة عند ذهابها .

فأمّا الطعام فعيوبه أشدّ الأشياء على الظرفاء ضررًا ، وهم من عيوبه أشدّ توقّيًا وحذرا ، لتكاثف عيوبه ، وكثرة معيبه ، وأنا أبيّن زيّهم في ذلك ، وما استحسنوه في ذلك واستعملوه ، وما استقبحوه فاجتنبوه ، إن شاء الله .

١٩ — باب ذكر زى الظرفاء فى الطعام

الذى بانوا به عن منزلة اللئام

اعلم أنّ أول ما استعملوه تصغيرُ اللُّقَم ، والتجالُلُ عن الشره والنَّهَم ،

وأكل الأوساط الرقاق، والبز ما وَرد الدّقاق، وليس يأكُلون العَصَبَة[١] والعَضَلَة[٢]، ولا العِرق والكُلْوَة، ولا الكرش والقبّة[٣]، ولا الطحال والرئة، ولا يأكلون القَديد[٤]، ولا يأكلون الثريد، ولا ما في القدر من الورق، ولا يتحسّون المرَق، ولا يتبعون مواضعَ الدَّسَم، ولا يملأون أيديهم بالزَّهَم[٥]، ولا يخللون الملح، وهو عندهم من أكبر القُبح، ولا يُكَوْكِبون في الخَلّ، ولا يمعنون في أكل البَقل، ولا يأكلونَ الطَّلْع[٦]، لشبِه رائحته برائحة الماء الدافق، ولا يمشّون[٧] من العظام كراديس[٨] قَصَب الساق الغليظ، وإنما مُشاشهم ما لان وصغُر، ولا ما غلظ وكبُر، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهر الأصابع، ويطرحونه ناحيةَ من الخِوان، ولا يزهّمون ما بين أيديهم من الرُّغفان، ولا يتعدّون مواضعهم، ولا يلطعون أصابعهم، ولا يملأون باللُّقَم أفواهَهم، ولا يدسّمون بكُبرها شفاههم، ولا يقطّرون على أكفهم، ولا يعجلون في مضغهم، ولا يأكلون بجانبيْ الشِّدْقَيْن، ولا يزاوجون بين الاثنين، ولا يجاوزون ما بين أيديهم شيء من الفُتات، ولا يأكلون قِدرا بائتة، ولا قِدرًا مُسْخَنَة، ولا يَغْمِسون في مَرَقَة، ولا يضعون لُقمة. ولا يأكلون شيئا من الكُوريج والصِّحْناة[٩]

---

(١) العصبة : واحدة العصب : أطناب المفاصل التي تلائم بنيتها وتشدها وهي منتشرة في الجسم كله وبها تكون الحركة والحس .

(٢) العضلة : كل عصبة معها لحم مجتمع .

(٣) القبة : العظم الناتىء من الظهر بين الإليتين .

(٤) القديد : اللحم المقدد .

(٥) الزهم : الشحم

(٦) الطلع : مايبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها

(٧) مش العظم : مص اطرافه

(٨) الكراديس : جمع الكردوسة : كل عظم اجتمع عليه اللحم

(٩) الصحناة : السمك الصغير المملوح

ولا الرُّبَيْثا. والسُّمَيْكات ، ولا شيئًا من الكَوامِيخ[1] والمالح ، وأكلُ ذلك عندهم من الفضائح ، إلا أن القينات المتظرِّفات ، والنساء القصْريّات ، ربّما تظرَّفن بأكل المالح والمملوح فى منازل متعشّقيهن . وبيوت مُرابِطيهنّ، فيذهبن مذهب طرح المؤونات، وخفَّـــة للنّفقات ، ولا يأكلون الجراد والأربيان ، لِعلة شبههما بالأشياء القبيحة من الحيَوان ، ولا يأكلون الحبوب التى تُهَيِّجُ الأرياحَ ، وتولد القرقرة والانتفاخ ؛ ولا يأكلون فى النهار أكثر من أكله ، ويكثرون القيام فى مجالسهم ، ولا يكثرون من الضحك والكلام ، عند حضور المائدة والطعام ، ولا يتخلّلون على المائدة قبل أن تَفرُغ ، ولا يتحفّزون لمجيئها قبل أن توضَع ، وإذا غسلوا أيديهم لم يطلبوا الغسل قبل طلب إيتائها من الوسخ والكدر ، ولم يقصدوا التقصير الذى يبقى منه رائحة الغَمَر[2] ، وكذلك أيضا اذا تمندلوا فعلوا كفعلهم اذا غسلوا .

فأما النُّقل فانهم يُحضرونه موائدهم ، ويُطعمونه ولائدهم ، ولا يكثرون من أكله ، ولا يأتون على كله ، وإنّما يعبثون منه بالشيء اليسير من النُّعْنَع[3] ، ويجتنبون من ذلك الهندبا[4] والأكشوت[5] لبَرْدهما ، والفُجْل والحرْف لنَتْنهما . والكُرّاث والبَصَل لرائحتهما، والفَدَّاح[7] والخَنْدَقوق[8] لخشنهما ،

(١) الكواميخ : جمع الكامخ : أدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام

(٢) الأوريان : نوع سرطان بحرى

(٣) الغمر : زنخ اللحم

(٤) النعنع : بقل طيب الرائحة يؤكل ويتداوى به

(٥) الهندبا : بقل يؤكل

(٦) الأكشوت : نوع من النبات

(٧) الفداح : أطراف النبات الغض

(٨) الخندقوق : بقلة أو حشيشة

لأنهما أيضا يُخضِّران الأسنان والعُمور، ويُحدِثان الرائحة والتغيير، ولن يقع الثُّوم فى قِدْر فيذوقونه، ولا البصل فيَقربونه، ولا يلفظون باسم الطَّرْخُون[١] لابتداء اسمه، وشناعة لفظه، فيَكنون عنه فيُضيفونه الى النَّعْنَع، وقد سمّاه بعضهم بَقْلة الجياع، وسمّاه آخرون كافور الفُؤاد، وكلٌّ يقصد الى معناه، والخَسّ لا يقربونه لموضع تَفقيئته، والخيار لا يأكلونه لِعلّة برده، والجزَر يتجاللون عن مسّه، ولا يرون النظر اليه دون أكله، وكذلك القِثّاء والهِلْيون[٢]، ولموضع النَّوَى أيضًا رغبوا عن أكل الزيتون، ورغبوا عن ماخالطه النوى من فاكهة الصيف والشتاء، مثل القَسْب[٣] والبُسْر[٤]، والمشقّق أيضا والتَّمر، وكذلك سائر الأرطاب، والمشمش والنَّبِق والعُنّاب، وكذلك فى الخَوْخ والشاهلوج والإجّاص، وهو عندهم من أكل العوام لا من أكل الخواصّ، ولا يَنفق عندهم الرُّمان والتين، وهذان عندهم والبِطّيخ مِن تهجين، خاصّة اذا انشقت الرُّمّانة، وتصدّعت البطّيخة إذا انكسرت، وجَوْزة ولَوْزة وتينة ومَوْزَة، ولا يدفع بعضهم إلى بعض وَرْدَةً واحِدة ولا لوزة واحدة للتفيل، ولما يقع فيه من التَّمثيل؛ ولا تقول متظرّفة لأخرى هذه وَرْدَتُكِ ولوزتك ونبقتك وجوزتك ورمّانتك

---

(١) الطرخون : نبات يكبس فى اللبن أو الماء المالح ويؤكل وقال ابن الطيبار فى مفرداته: هو نبات طويل الورق دقيق الساق يعلو على وجه الأرض نحوا من شبر إلى ذراع ونصف، وهو من بقول المائدة ينهض الشهوة ويطيب النكهة وإذا شرب الماء عليه طيبه.

(٢) الهليون : نبات له قضبان رخصة تؤكل. وقال ابن البيطار فى مفرداته : الهليون ورقه كورق الشبث، ولا شوك له البتة. وله بذر مدور أخضر ثم يسود ويحمر، وفى جوفه ثلاث حبات كأنها حب النيل صلبة، منه برى كثير الشوك.

(٣) القسب : تمر يابس يتفتت فى الفم.

(٤) البسر : التمر إذا تلون ولم ينضج.

تينتك وذلك عندهم أجلّ العيوب ، تشمئز منه القلوب ، ويجتنبون له أشد الاجتناب ، ويكتئبون له أمرّ اكتئاب ، وكذلك لا تقول واحدة لأخرى : ارفعى رجلك ولا ذيلك ولا اقعدى عليه ، ولا أدخليه ولا أخرجيه ، ولا أصعديه ، ولا صُبِّيه ، ولا انفخيه ، ولا سَبِّى ، ولا سَرِّحى ولا شِيلى ، ولا انتحى ، ولا اعملى ، ولا قد عملتِ ، ويجتنبون ذلك وما أشبهه من الكلام ، مما كثر استعماله فى خطاب العوم ، ولا يكادون يلفظون به ، ولا يُطيف بألسنتهم ، ولا يجيزونه فى شىء من مخاطبتهم ، ويحذرونه ويتوقون منه ، ويعيبون المتكلم به ، وَيُعرِضون عنه .

٣٠ — باب ذكر زيهم فى الشراب الذى يتخيّره ذوو الألباب

أمّا ماعليه الظّرفاء ، وأهل المروءة والأدباء ، فإنهم لا يشربون من الشراب أسوده ، ولا يشربون إلاّ أجوده ، مثل المشمّس والزّبيبىّ والمعسّل ، والمطبوخ والطّلاء والمعدّل ، ولا يقربون ما لازمه الخثَر[1] ، ولا ما خالطه الكدَر ، ولا يشربون إلا ماصفا من الشراب ، ويتجالّون عن المسحورى الدُّوشاب ، إذ هو من شراب العامّة والرِّعاع ، وشُرب السُّوقة والأتباع ، ولا ينتقلون على شرابهم بالأشياء الرذلة ، مثل الباقلّى والبلّوط ، والبُسْر المقلوّ ، والقَريثاء والحنطة ، والغُبَيراء والشاهبلّوط والخُرْنُوب الشأمى ، وما أشبه ذلك من الأنقال ؛ وأكثر ماينتقل به المتظرفون ، ويعبث به المتزيّكون ، مَلوح البُنْدُق ، ومقشّر الفُستُق ، والملح النِّفطىّ ، والعود الهندى ، والطّين الخراسانى ، والملح

---

(١) خثر اللبن : ثخن واشتد .

الصَّنعَانى، والسَّفَرْجَل البَلْخىّ، والتُّفاح الشأمىّ ،ويتخذون من كل شيء من الآنية أسراه، ومن الزجاج أجوده وأنقاه.

وأمّا مااجتنبوه من الهدايا، وتخوّفوا من هديته البلايا، فأشياء يكثر بها العَدَد، ويطول بها الأمد، وأنا أذكر من يسيرها، مايُستدلّ به على كثيرها.

٣١ – باب ذكر الأشياء التى يتطير الظرفاء من اهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسمائها

فمن ذلك الأُتْرُجّ (١) والسَّفَرْجَل والشَّقائِق (٢) والسُّوسَن (٣) والنمَّام (٤) وأطْباق الخِلاف (٥) والغَرْب (٦) والبان (٧)

فأما الأُتْرجّ، فان باطنه خلاف ظاهره، وهو حسن الظاهر، حامض

---

(١) الأترج : نبات حامضه مسكن غلمة النساء، ويجلو اللون والكلف، وقشره فى الثياب يمنع السوس.

وقال ابن البطار : الأترج كثير بأرض العرب، وهو مما يغرس غرسا ولايكون بريا، وورقه مثل ورق الجوز، وهو طيب الرائحة، ونواره شبيه بنوار النرجس إلا أنه ألطف، وله بزر شبه الكمثرى.

(٢) الشقائق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء

(٣) السوسن : نبات من الرياحين برى وبستانى ويعرف بالزنبق، وهو أبيض وأصفر وأزرق.

(٤) النمام : نبت له بزر كالريحان عطرى قوى الرائحة سمى بذلك لسطوع رائحته.

(٥) الخلاف : صنف من الصفصاف، وحبه أكبر من الحمص، وله لب لين دهنى.

(٦) الغرب : شجرة حجازية ضخمة شاكة.

(٧) البان شجر يسمو ويطول فى استواء، وخشبه خوار خفيف، وقضبانه سمحة خضر، وهدبه ينبت فى القضيب وهو طويل أخضر شديد الخضرة. وثمرته تشبه قرون اللوبيا إلا أن خضرتها شديدة وفيها حب فإذا انتهى انفتق وانتثر حبه. وهو أبيض أغبر نحو الفستق.

الباطن ، طيّب الرائحة ، مختلف الطعم ، ولذلك يقول فيه الشاعر :

أهدَى له أحبابُهُ أتْرُجَّةً فَبَكَى وأشفقَ من عِيافةِ زاجِرِ[1]
خاف التلوُّنَ إذْ أتته لأنّها لَوْنانِ باطنُها خِلافُ الظّاهِرِ
فَرِقَ المتيَّمُ من حُمُوضَةِ لُبِّها واللونُ زَيَّنَها لعينِ النّاظِرِ

وأما السفرجل ، فلأن فيه اسم السفر ، وقد قال فيه الشاعر :

مُتْحِفِي بالسَّفَرْجَلِ لا أريدُ السَّفَرْجَلَا
إِسمَـــهُ لو عَرَفْته سَفَرٌ جَلَّ فاعتَلى

وقال آخر

أَهدَتْ إليه سفرجلا فتطيَّرا منه وظَلَّ مُتَيَّمًا مُستَعبِرَا
خاف الفراقَ لأنَّ أوّل إسمِهِ سَفَرٌ فحُقَّ لَهُ بأنْ يَتَطَيَّرَا

وأما الشقائق ، فلشطر اسمه ، ولقول الشاعر فيه :

لا تراني طِوالَ دَهْـ ـرِي أهوَى الشَّقائقا
إنْ يكُنْ يُشْبِهُ الخُدو دَ فنِصفُ اسمِهِ شقا

وقال آخر :

لا يُحِبُّ الشَّـــقائقا كلُّ مَنْ كانَ عاشِقَا
إنَّ نِصفَ إسمِهِ شَقَا ءٌ إذا فُهْتَ ناطقـا

وأما السُّوسَن ، فلأنَّ اسمه السُّوء ، وقال فيه الشاعر :

سُوسَنَةٌ أعطيتنيها ومَا كنتِ باعطائِكَها مُحْسِنَهْ
شَطْرُ اسمِها سُوءٌ فانْ جِئْت بالْـ آخِرِ مِنْها فَهُو سُوءُ سَنَهْ

---

(١) العيافة : التكهن . زجر الطير : أطاره فتفاءل به إن كان طيرانه عن اليمين ، أو تطير به إن كان عن اليسار .

وأنت إنْ هَاجَرْتِنِي سَاعَةً ... قُلتُ أتتْ مِنْ قِبَلِ السُّوسَنَهْ

وقال آخر :

ياذا الذى أهدَى لنَا سُوسَنَا ... ما كنتَ فى إهْدَائِهِ مُحسِنَا

أوَّلُهُ سُوءٌ فقد ساءنى ... ياليت أنّى لَمْ أرَ السُّوسَنَا

وأما الياسمين ، فلبدأ اسمه تُطُيِّرَ منه ، ولقول الشاعر :

إنى لأَذكُرُ بالرَّيحَان رائحةً ... مِنْهَا فَلِلقَلْب بالرَّيحَانِ إيناسُ

وأمنَحُ الياسمين البُغْضَ من حَذَرى ... لِليَأْسِ إذ كان فى بعض اسْمِهِ يَاسُ

وقال آخر :

أبصرتُهُ فى المَنَام نَاوَلَنِى ... من كَفِّهِ الياسمين والغَرَبَا

فكان يأسٌ فى الياسمين وفى الـ ... غَرْبِ اغترابٌ ياشُؤْمَ مَاوَهبَا

وقال آخر :

أهـدى حبيبى ياسمينًا فَفِي ... منْ سِرِّهِ الطِّيَرَةُ وسْوَاسُ[1]

أرَاد أنْ يُوئِسَ مِنْ وَصْلِهِ ... إذ كان فى شَطْرِ اسمه اليَاس

وأما النَّمام ، فلشناعة اسمه . وقول الشاعر فيه :

حَيَّيْتُها بتحيَّــةٍ فى مجلس ... بقضيب نَمَّامٍ مِنَ الرَّيحَانِ

فتطَيَّرتْ منه وقالت أقْصِهِ ... لاتقربَنَّ مُضَيِّعَ الكِتْمَانِ

وأما الآس[2] ، فقد تطير منه قوم ، وزعموا أنه إياس ، وتفاءل به آخرون ، وزعموا أنه مُواساة وأساس ، قال الشاعر :

---

(١) الطيرة : ما يتشاءم به .

(٢) الآس : خضرته دائمة ، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة ، وثمرته سوداء ، ومنها ما هو أبيض كاللؤلؤ بين ورقه كالزبرجد ، ويحلو إذا أينع ، وعصارة ثمره رطبة تفعل فعل التمرة ، وهى جيدة للمعدة ، مدرة للبول ، وطبخ الثمر يصبغ الشعر .

ما أحسنَ الآسَ فى عينى وأطيبَهُ　　لولا اتصالُ حروفِ الآسِ باليأسِ
ماضرَّ مَن كان أهدى الآسَ من يدِهِ　　لو قالَ ريحانة يعنى به الآسى (١)
لولا الذى أتقِي مِن طِيرَتِى بهما　　ما فارقا أبدًا تاجًا على رَاسِى

كذلك تطيّروا من الخِلاف، لموضع الخُلف، والغرب للاغتراب، والبان للتباين.

ورُوى عن كثيّر عزّة أنه بلغه أنها عليلة، وانها تتشوّقه، فخرج يريدها وهى بمصر، فرأى غرابا ساقطا على بانة ينتف ريشه ويطايره على رأسه، فتطيّر من ذلك، وأتى عرّافا من نَهد أخبره بما رأى، فآيسه (٢) من حياتها، وأخبره بوفاتها، فلما وصل الى مصر خُبّر بموتها، فأنشأ يقول:

فما أعيَفَ النَّهدِىّ لا دَرَّ دَرُّهُ　　وأعلَمه بالزَّجر لاعَزَّ نَاصِرُهْ (٣)
رأيتُ غرابًا ساقِطًا فوق بانَةٍ　　ينتّف أعلى ريشـــــه ويطايرُهْ
فأمّا غُرابٌ فاغترابٌ من الهوى　　وبانٌ فبَينٌ من حبيب تُعاشِرُهْ

وقال أبو الشّيص:

أشاقَكَ والليـــــلُ مُلقِى الجِرانِ　　غُرابٌ ينوحُ على غُصْنِ بانِ (٤)
أحَصُّ الجَناحِ شديدُ الصِّياحِ　　يُبَكِّى بعينَينِ ما تَدْمَعانِ (٥)
وفى نَعَبَاتِ الغرابِ اغترابٌ　　وفى البان بَينٌ بعيدُ التَّدانِى (٦)

---

(١) الآسى: الطبيب.
(٢) يئس: قنط أو قطع الأمل.
(٣) لادر دره: لا كثر خيره.
(٤) الجران: من البعير: مقدم عنقه، ويقال: ألقى البعير جرانه، أى برك. والمراد: ظلمة الليل.
(٥) الأحص من الطيور: ما تناثر ريش جناحه.
(٦) نعب الغراب: صوت أو أنذر بالبين على زعمهم.

وقال بعض الأعراب :

وكنتُ قد اندَمَلتُ فهاج شَوقى ... بكاء حَمامتَين تجاوَبانِ

تجاوَبتا بلحنٍ أعجَمِىّ ... على غُصنَين من غَرَب وبانِ

فقلتُ لصاحبىّ وكنتَ أحرى ... بزجر الطَّيرِ ماذا تُخبرانِ

فقالا الدارُ جامعةٌ بسُعدَى ... فقلت بَلْ أنتما متيمِّنانِ

وكان البانَ أن بانت سُلَيمَى ... وفى الغَرَبِ اغترابٌ غيرُ وانِ (١)

وقال نُصَيب :

ألا راع قلبى من سَلَامَةَ أنْ غدا ... غُرابٌ على غُصنٍ مِن البانِ يَنعَبُ

فأزجُرُ ذاك البانَ بيْناً مُواشِكاً ... وغُربةَ دارٍ ما تَدانى فيَصقَبُ (٢)

وقد استحسنوا هدايا كثيرة ، وتفاءلوا فيها بقول الشّاعر . وإن كان بعضها ممّا ذكرناه أنّهم لايتهادونه من طريق الظّرف ، واجتنبوه لعلّة التسفيل ، وأحبّوه من حسن التفوّل ؛ فمن ذلك الرُّمان ؛ وهو ممّا ذكرناه أنّهم لا يتهادونه لما فيه من التسهيل ، وما يقع فيه من التمثيل ، وكذلك الشاهلوج والنَّبق والورد والبنفسج ، فأما الرُّمّان فقد قال فيه الشاعر :

أهدَتْ إليه بظرفها رمّانا ... تُنْبِيه أن وِصالَها قد آنَى

قال الفتى لمّا رآه تفوُّلًا ... وصلٌ يكون متمّما أحيانا

رُمٌّ يرُمُّ تشعُّثى بوصالها ... لقدِ التفوُّلَ صادقًا قد كانا

وأمّا الشاهلوج ، فهو ممّا فيه النوى ، وقد تهاداه قوم لموضع تفوّل الشاعر به ، إذ يقول :

---

(١) ونى : فتر وضعف .

(٢) مواشكا : سريعا . صقب : قرب ، بعد .

أهدَتْ إليه الآنَ شاهَلُوجَا   تُنْبيه أن لو جاء كان وَلُوجَا
فمضى على فألِ الهدِيّة جاسِرًا   عمدًا فصار مُداخِلًا خِرِّيجَا

وأما النبق ، فهو يُستقبل ، وقد قال فيه الشاعر :

أيا أحسَنَنا خُلقًا   وَمَن فاتَ الوَرَى سَبْقَا
تفأَلتَ بأن تَبقَى   فأهدَيْتَ لنا النَّبْقَا
فأبقاكَ إلهُ النّا   سِ ما سَرَّكَ أنْ تَبْقَى
وأشْقَى اللهُ شانِيكَ   وحاشَى لكَ أن تَشقَى

وأما البنفسج ، أيضا ، فقد قال فيه الشاعر :

أهدَتْ إليه بَنَفْسَجًا يُسْلِيهِ   تُنْبِيهِ أنَ بنفسها تَفْدِيهِ
فارتاحَ بعد صبابةٍ وكآبَةٍ   ورَجَا لِحُسْنِ الظَّنِّ أن تُدْنِيهِ

وأمّا الخَوْخ ، فقد أطنبوا فى وصفه ، وأكثروا فى مدحه ، وزعموا أنّه أشبه شيء بالخدود من التفاح ، وأقرب شبها بالوجنات الملاح ، لأنه يشاركها فى البياض والسُّمرة ، والأدمة[1] والصفرة ، والتوريد والحمرة ، والزَّغب اللين البَشَرة ، وهو أطيب مَلْثَم ، وأعذب مُقبَّلٍ ، وأذكى مَشَمٍّ ، وهو عند طائفة من أهل الهوى أجلّ مرتبةً من التفاح ، لولا ما خالطه من النوى الذى يشمئز منه الظرفاء ، ويشناه الأدباء ، وأنه مفقود ، والتفاح موجود

وأما الورد، فقد تفأّل[2] به كثير من الظرفاء ، وذكره كثير من الشعراء ، أنشدنى بعض الأدباء :

---

(١) الأدمة : السمرة .
(٢) تفأل به : ضد تشاءم .

أهدَى له وَرْدًا فأخبَرَ أنه ... فى الواردينَ ولم يكن وَرَّادَا
فارتاح من فَرَحٍ بطيب وفودِهِ ... وعَدَا له وَرْدُ الحياءِ فَزَادَا

وليس عندهم فى الروض شىء يشبهه ، ولا فى عروض الروض ما يدركه ، وقد ذكرت ذلك فى باب لطيف ، لرغبتى فى اقتصاد التأليف ، فقف عليه واعرفه .

٣٢ — باب ماقيل فى صفة الورد
ومحلّه من قلوب ذوى الوجد

اعلمْ أنّ أهل الظّرف قد أكثروا من تفضيل الورد ، ومدحته الشعراء ، وقد أطنبت فيه ، وأفرطوا فى نعت حسنه ، واشتهوا رائحته ، حتى شبهوه بالوجنات الحمر ، وقايسوه إلى الخمر ، ومثّلوه بالأشياء الملاح ، كفعلهم بالتفاح ، وهما عندهم فى مرتبة واحدة ، قال العباس ابن الأحنف :

أُبغِضُ الآسَ والخِلافَ جميعًا ... لِمَكَان الخِلافِ واليأسِ منها
وأُحِبُّ التُّفَاحَ والوردَ حتّى ... لو وزَنْتِيهِ بالجبال وزَنها
أشبَهَا ريقَها ونَكْهَةَ فِيهَا ... فهُما يُنبِئَان بالطِّيبِ عنها[1]

وقال آخر :

عشيّةَ حيَّانى بوَرْدٍ كأنّه ... خُدُودٌ أُضِيفَتْ بعضُهنَّ إلى بَعْضِ
وَوَلّى وفِعْلُ الخَمرِ فى حرَكاتِهِ ... فِعَالُ نسيمِ الرِّيحِ بالغُصُنِ الغَضِّ

---

(١) النكهة : ريح الفم . الطيب : كل ذى رائحة عطرة .

وقال آخر :

يَضْحَكُ الوردُ إلى وَرْ ... دِ بخَدَّيْكَ مُقيمِ
جَمَعَا شَكْلَيْنِ وَقْفَيْـ ... نِ لألحاظِ النَّديمِ
غيرَ أنَّ المِسكَ أوْلَى ... بِكِ فى كلِّ نَسيمِ

وقال آخر:

سَيَعلَمُ الوردُ أنّى غيرُ ذاكرهِ ... إذا الخُدودُ أعارتْ حُسْنَها بَصَرى
كَمْ بين وردٍ مُقيمٍ فِى أماكِنِهِ ... وبين ورد قليل المُكْثِ فى الشَّجَرِ
هذا جَنِيٌّ مَصُونٌ فى مَنابِتِهِ ... وذاكَ مُمتَهَنٌ فى كلِّ مُحْتَضَرِ

وقال عبد الله بن عبد الله بن طاهر :

مَرَّتْ وفى كَفِّها وردٌ فَقُلْتُ لها ... حَيِى مُحِبَّكِ قالت عنه لى شُغُلُ
فقلتُ بُخْلاً ، فقالت قد وهبتُ له ... وردًا جنيًّا وذا بالكفِّ يُبْتَذَلُ
إن كان لم يَجْنِهِ منه أناملُهُ ... فقد جَنَتْه له الألحاظُ والمُقَلُ

وقال آخر:

وَرْدُ خَدَّيْكَ مُقِيمُ ... أبدًا ليس يَرِيمُ[1]
أنا منـــه فى نعيمٍ ... مابَدَا منـــه نَعِيمُ

وقال آخر :

تَمَتَّعْ مِنَ الوَرْدِ القليلِ بَقَاؤُهُ ... فإنَّكَ لم يَفْجَعْكَ إلا فَنَاؤُهُ
وَوَدِّعْهِ بالتقبيل والشَّمِّ والبُكا ... وَدَاعَ حبيبٍ بعد حَوْلٍ لِقَاؤُهُ

---

(١) رام المكان : فارقه .

وقد تطيَّر منه آخرون ، وسمّوه الغدّار ، وغضوا دونه الأبصار ، لقلة لبثه، ويسير مكثه ، وسرعة زواله ، وتغيُّره وانتقاله .

وخُبِّرتُ أنّ قينةً أهدت إلى ربيط لها غصن آس ، فَسُرَّ به وأنشأ يقول:

والآسَ يَبقى وإنْ طال الزمانُ به والوردُ يفنى ولا يبقى على الزَّمَنِ

وأهدت له وردا تطيَّر منه وقال :

أنتِ وردٌ وبقـاءُ الْـ وَرْد شَهْرٌ لا شُهورُ
يَذْهَبُ الوردُ ويفنى وإلى الآس نَصِيرُ

فكتب إليه بعض إخوانه :

سُرَّ بالآسِ الذى أهْـدَتْ له ثمَّ لمَّا أهْدَتِ الوردَ جَزِعْ
ذاك أنّ الآسَ باقٍ دائمٌ ولأن الوَرْد حينًا يَنقَطِعْ

وقال بعض الشعراء :

وَصَلْتَ وكانَ الوردُ أوَّلَ مابَدَا فلمّا توَلَّى الوردُ وَلَّى مع الوَرْدِ
فياليتَ أنّ الورد آسٌ فإنّه يَدوم على الحالَين فى الحرِّ والبَرْدِ

وفضائل الورد أكثرُ من أن يُحصى عددها ، أو يُبلغ أمدُها ، وقد أفردتُ لذلك كتابا ، بوّبتُه أبوابا ، وترجمته بكتاب العقد ، وشحنتُه بفضل الورد ، فأغنى ما فى ذلك الكتاب ، عن إعادة ذكره فى هذا الباب .

والتفّاح أعظم عندهم قدرا ، وأجلّ أمرا ، وأعلى درجةً ، وأرفع رتبةً ، لسلامته من البياض والتوريد ، وقد ذكرت فضائل التفّاح فى كتاب التفاحة فى غير باب ، فأغنى عن إعادته فى هذا الكتاب ، غير أنى أذكر فى كتابنا هذا جملةً ممّا وصفته به الأدباء ، ومدحته به الشعراء . ولستُ أذكر فى عرض

هذا الكتاب، شيئاً مما فى ذلك الكتاب، لئلا يُبتلى بشىء من المِحَن. فيُنسب إلى ضيق العَطَن[1]، وبالله التوفيق.

٣٣ — باب ذكر التفاح
وما كره الأدباء من أكله

اعلم أنّ التفّاح عند ذوى الظَّرف والعُشاق وذوى الاشتياق، لا يعدله شىء من الثّمر، ولا النوْر[2] والزّهَر، كيف وبه تهدأ أشجانهم، وبوروده تسكن أحزانهم، وعنده يضعون أسرارهم، وإليه يُبدون أخبارهم، إذ كان عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس، وبموضع الصاحب والجليس، وليس فى هداياهم مايعادله، ولا فى ألطافهم[3] ما يشاكله، لغلبة شبهه بالخدود المورّدة، والوجنات المضرَّجةِ، وهو عندهم رهينة أحبابهم، وتذكُّر أصحابهم، الى وُرْدته يتطربون، وبرؤيته يستبشرون، ولهم عند نظرهم اليه أنين، وعند استنشاق رائحته حنين، حتى ان أحدهم اذا غلب عليه القلق، وأزعجه الأرق، لم يكن له معوّل إلاّ عليه، ولا مشتكى إلا اليه، وأنشدنى بعض أهل الأدب:

لمَّا نأَى عن مجلسى وجهُهُ ... ودَارَتِ الكأس بمجْرَاها
صَيَّرْتهُ تُفّاحَةً بيننا ... إذا ذكرناه شَمَمْناها
واهًا لها تفّاحَةً أشْبَهتْ ... خَدَّيْهِ فى بَهْجَتِها وَاهَا

وقال الحَكَمِى:

تُفّاحَةٌ جاءت وقد عُلِّقَتْ ... وَرُكِّبَتْ بالورد والآسِ

---

(١) العطن: المناخ حول المورد. ومن المستعار: فلان واسع العطن، إذا كان رحب الذراع.
(٢) النور: الزهر، أو الأبيض منه.
(٣) الألطاف: جمع اللطف: الهدية.

أشرَب من كأسى على ريحِها   بالرَّغم مِنْ أهلى وجُلاسِى[1]

وقال آخر :

تُفَّاحَةٌ أُهْدِيَتْ طَرفًا معضَّضةً   وقدجَرَى ماءُ ثَغرِى فى ضَواحِيها
بيضاءُ فى حُمْرةٍ عُلَّتْ بغالِيَةٍ   كأنّما جُنِيَتْ من خَدِّ مُهْدِيها
قد أتحفَتْنِي بها فى النوم جاريةٌ   روحى من السُّوءِ والأسقام تَفدِيها
لو كنتُ مَيْتًا ونادتْنى بنَغْمتها   لَخِلْتُ لِلصَّوْتِ من لَحْدِى أُلبِّيها

وقال آخر :

حَيَّاهُ مَن يهوى بتُفَّاحَةٍ   قد عَضَّ أعلاها بأسنانِهِ
جادَ ولم يَبْخَلْ بها بعد ما   عَذَّبَه دهرًا بهِجرانِهِ

وقال آخر :

تُفَّاحَةٌ تأكل تُفَّاحَةً   ياليتَنى كنتُ الذى يُوكَلُ
فالثَّمْرَ والثَّغْرَ لِكَىْ أَشْتَفِى   بعِلَّةِ الأكل ولا أُوكَل

وقال آخر :

تُفَّاحَةٌ من عند تُفَّاحَةٍ   قريبةُ العَهْدِ بكفيْها
أحْبِبْ بها تُفَّاحَةً أشْبَهَتْ   حُمرتُها حُمْرةَ خَدَّيْها

وقال آخر :

تُفَّاحَةٌ حمراءُ منقوشةٌ   ركَّبتُها فى خُضرةِ الآسِ
فلم تَزَلْ فى كفِّ نَدْمانِنا   تَدورُ من كأس إلى كأسِ

---

(١) الرغم : الكره .

وقال آخر :

تُفّاحةٌ من عند تفّاحةٍ ضَمَّخَها المُهْدِى لها بالعَبِيرِ[1]
يا مهدِىَ الحَسْرَةِ يا قاتِلى أهدَيْتَ لى واللهِ قَصْمَ الظهورِ
قد كنت فى بحرين من حُبِّكم فصرتُ مُذْ أهديتَها فى بحورِ

وقال آخر :

فلو أنِّى اشتكيت لِأَجْلِ حُزْنِى وما أَلْقاه فى دارِ الخُلودِ
وكان طعامُنا فيها جنيًّا من التفّاحِ والوردِ النضيدِ[2]
لقلتُ دَعوا لها حِصَصِى فإنِّى أشبِّهها بألوانِ الخدودِ[3]

وقال آخر :

حَيَّاه من يهوى بتُفّاحةٍ قد جنيَتْ باللحظ من خَدِّهِ
معضوضةٌ باللّحظِ محفوفةٌ بعَسْكَرِ الآجالِ من صَدِّهِ
لو شَمَّها الخَلْقُ لماتوا معًا لعُشْرِ ما يلقاه من جهْدِهِ

وقد مضى من هذا الباب مَقْنَعٌ[4] ، وهو كثير متسع .

ولهم أشياء من زَيِّهم جليلة ، ونُتَفٌ من مناقبهم نبيلة ، أنا أصفها لك فى موضعها ، وأقطعها من مقاطعها ؛ منها السِّواك الذى صيّروه كأحد الفروض الواجبة ، وَالأمور الإرادية ، وَقد شرحت فيه بابا لتقف عليه ان شاء الله .

---

(١) ضمخه بالطيب : لطخه به . العبير : : أخلاط من الطيب .
(٢) ثمر جنى : جنى من ساعته ، نضيد : ضم بعضه إلى بعض متسقا أوْ مركوما .
(٣) الحصص : جمع الحصة : النصيب .
(٤) مقنع : مايقنع ويرضى به .

٣٤ — باب ما جاء فى السواك

وما قيل فى عود الأراك[1]

اعلم أن من زىّ الظّرفاء، وأهل المروّة والأدباء، وأرباب الديانة والترفّل، استعمال السّواك والتسوّك، فهو أنبل النّظافة، وأحسن الطهارة، وأكمل المروّة، ويرغب فيه أهل الظرف والفتوة، وله خصال مستحسنة، وهو أيضا من السُّنَّة.

وقد رُوِىَ فى الخبر المأثور عن النبى صلّى الله عليه وَسلّم أنه قال: طَهِّروا أفواهكم فانها مَسالك التسبيح.

وَعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: السّواك مَطهرة للفم مرضاة للرّبّ.

وَحدثنا أَبى قال: حدثنا ابن أبى شيبة، عن عبدالله بن ادريس، عن محمد بن اسحاق، عن عبد الله بن أَبى بكر، عن عمر، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وَسلّم: السّواك مطهرة للفم مرضاة للرب.

وَعن على بن أَبى طالب عليه السلام أَنّ النبى صلى الله وَسلم كان اذا قام من اللّيل تسوّك.

وَعن أَبِى المَلِيح، عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لقد أُمرتُ بالسّواك حتى حسبتُ أَن يكون يُكتَب علىّ.

وعن ابن أَبى مُليكة قال: عائشة تقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى وليلتى ويومى وَبين سَحْرى[2] وَنحرى[3] وَخلطتُ ريقه بريق، فقلت: يا أمّ المؤمنين، وَكيف خلطتِ ريقه بريقك؟ قالت: دخل عبدالرحمن

(١) الأراك: شجر، واحدته أراكة.

(٢) السحر: الرئة.

(٣) النحر: أعلى الصدر.

ابن أبي بكر وَبيده سواك ، فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلّم فقلتُ : قد اشتهى السّواك ، فأخذتُ سواكه فمضغته ، ثم أعطيتُه فاستاك عليه السلام .

فلم يُشغِل النبيّ صَلّى الله عليه وسلم نزول الموت عن طلب السواك، إذ هو أظرف مااستعمل ، وأنبل مااستُحْسِن ، لأنه يبيّض الأسنان ، ويصفّى الأذهان . ويطيّب النكهة ، ويُطفىء المِرّة ، وينشف البلغم ، ويشدّ اللّثةَ ، وَيقوّى العمور[1] ، وَيجلو البصر ، ويُحِدّ النّظر ، وَيفتح السُّدَد ، ويشهّى الطعام ، وَقد استعملوا أمر المساويك الاراك ، وَالسُّكّر ، وأصول السُّوس ، وعود المحلَب ، وعروق الإذْخِر[2] ، وعُقَد العاقِرْ قَرْحًا ، وكلما أغربوا فى اتخاذ ذلك كان أكمل لظرفهم ، وأبلغ فى معانى وصفهم .

وللمساويك أوقات معلومات، ومواضع محدودات، لا تستعمل فى غير أوقاتها ، ولا يُتجاوز بها عن ساعاتها ، فجائزٌ استعمالها بالغدوات والعشيّات، وأوقات الظهيرات . وقبل الغداة ، وبعد الصلاة ، وعلى الريق، وعند النوم ، وفى نهار الصوم .

ولايجوز السواك عندهم فى مواطن شتّى ، منها الخلاء والحمام ، وقارعة الطريق ، ومحفل الناس ، ولا يستاك أحدهم وهو قائم ، ولامتّكىء ولا نائم ، وَلا حيث يراه أحد ، وَلا يستاك وَيتكلّم ، وَالسواك فى الخلاء وَالحمّام من فعل السَّفَلة وَالعوام ، وَهو أيضا يُرْخِي اللثة ، وَيغيّر النكهة ، وَليس ذلك عندهم من فعل الأدباء ، وَلا من فعل ذوى المروّة والظرفاء .

وقد اتخذ أهل الظرف للمساويك طسوتا لطافا ، وأباريق الشَّبَه[3]

---

(١) العمور : جمع العمر : لحم ما بين الأسنان .
(٢) الأذخر : نبات طيب الرائحة .
(٣) الشبه : النحاس الأصفر .

الخفاف ، وَكراسى الآبنوس المصدَّفة ، وَالخيزُران المشبَّكة ، وَالأحقاق المخروطة ، وَالمسواكدانات المدهونة ، والسَّنونات[١] المعمولة ، ووقتوا له الأوقات المعلومة ، التى جعلوها كالفرائض المكتوبة ، وَالسُّنن المفروضة ، يتأَهَّبون لوقته ، وَلا يستعملون رأس المسواك مدة طويلة ، وَذلك عندهم من الأفعال الذليلة ، ويتخذون لها اللفائف الخزّ ، وعصائب القزّ ، ليصونوها بذلك عن الدنس ، ويوقّوها من الغبار والنجس .

وقد تهادى أيضا أهل الظرف المساويك ، وأقاموها مقام الرهينة والتذكرة ، والوديعة والقُبلة ، كما فعلوا باللُّبان الممضوع ، والتفاح المعضوض . وقال العبّاس بن الأحنف :

طَال لَيلِى بجانبِ الميْدَانِ ... مَعْ جَوَارِى المهدِىِّ والخيزُرَانِ
أرسلتْ باللبان قد مضغَتْه ... بين تفَّاحَتَيْنِ فى رَيْحَانِ
وَبمسواكها الذى اختاره اللَّـ ... ـهُ لفيها من طَيِّب الأغصَانِ
فكأَنِّى وجدْتُ ريحًا من الفرْ ... دَوسِ فاحتْ من رِيحِ ذَاكَ اللُّبَانِ

قال أيضا :

ولما وهبتُمْ خَاتمًا فَرَدَدْتُهُ ... لِمَعرفتى أنْ الخواتيمَ تَقْطَعُ
فَأَهْدِى سواكًا مَسَّ فاكَ فإِنّه ... يُسَكِّنُ نارًا فى جَوَى القَلْبِ تَلْذَعُ

وقال بشّار بن برد العُقَيلىّ يذكر ذلك أيضًا :

تسوَّكَتْ لى بمسواكٍ لِتُعْلِمَنِى ... ما طَعْمُ فيها وما هَمَّتْ بإِصْلَاحِ
لَمَّا أتانى على المسواك رِيقَتُها ... مثلوجَةً كزُلَالِ الماءِ بالرَّاحِ

---

(١) السنون : المسحوق الذى تدلك به الأسنان لتنجلى .

قَبَّلْتُ ماسٌ فاها ثم قلت له ... ياليتنى كنت ذا المسواكَ ياصاحِ

وقال أيضا :

ياأطيبَ النَّاسِ ريقًا غير مُختَبرٍ ... إلاّ شهاداتِ أطرافِ المَساويكِ

إنّ الذى راحَ مغبوطًا بنعمتِهِ ... كَفٌ تمسُّكِ أو كَفٌ يعاطيكِ

ولَوْ وهَبتِ لنا يومًا نعيش به ... أحيَيتِ نَفْسًا وكانت مِنْ مَساعِيكِ

يارحمةَ اللهِ حُلِّى فى مَنازِلنَا ... حَسْبِى برائحةِ الفِرْدَوسِ من فيكِ

وقال أيضا :

يَطِيبُ مسواكُها من طِيبِ نَكْهَتِها ... وإنْ ألَمَّ بجلدٍ جلْدُهَا طَابَا

وقال آخر :

وبَرَّاقةٍ تَفْــترُّ عن متبسّمٍ ... كَنَوْرِ الأقَاحِى طَيِّبِ المُتَذوَّقِ (١)

إذا مَضغَتْ بعد امتِنَاعٍ من الضحَا ... أنَابِيبَ عيــدانِ الأرَاكِ الخلَقِ

سَقَتْ شُعَبَ المسواكِ ماءُ غَمَامَةٍ ... فضيضًا بمَمْزُوجِ العُقَارِ المصفقِ (٢)

وقال جرير :

ماستوصَفَ النّاس من شىءٍ يرزقهم ... إلاّ أرَى أُمَّ نوحٍ فَوْق ماوَصَفُوا

كأنّها مُزْنَةٌ غرَّاءُ واضحــةٌ ... أو دُرَّةٌ لايُوارِى لونَها الصَّدَفُ (٣)

مكسورةُ الثَّــدْيِ فى لبِّ بَزيـنُها ... وفى المَناصِبِ من أنيابها عَجَفُ (٤)

---

(١) الأقاحى : جمع القحوان والأقحوان : نبات له زهر أبيض وأوراق زهره مفلجة يشبهون بها الأسنان .

(٢) صفق الشراب : حوله من إناء إلى إناء ليصفو .

(٣) الغراء : البيضاء .

(٤) منصب الأسنان : منابتها .

تَسقِي امتِيَاحًا نَدَى المِسوَاكِ رِيقتُها كما تَضَمَّن ماءَ المُزنةِ الرَّصَفُ(١)

وقال الفرزدق :

دَعَوْنَ بقصبَانِ الأَرَاكِ التى جَنَى لها الرَّكْبُ من نعمان أيّامَ عَرَّفُوا(٢)

فَمِحْنَ به عَـذْبًا رُضَـابًا غُرُوبُهُ رِقاقٌ وأعلى حيثُ رُكِّبْنَ أعْجَفُ(٣)

وقال ذو الرمّة :

جرى الإِسْحِلِ الأحْوَى بطِفلٍ مطرَّفٍ

على الغرِّ من أنيابِهَا فَهْىَ نُصَّعُ(٤)

وقال آخر :

نظرتِ بعيْنَىْ شادِنٍ وتَبَسَّمتِ بظَمْيَاءَ عن غُرٍّ لهنَّ غُرُوبُ(٥)

جوى الإِسْحِلُ الأحْوَى عليهن أو جرى عليهنَّ من ماءِ الأراكِ قَضِيبُ

وقال جرير :

يجرى السواكُ على أَغَرَّ كأنّه بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتونِ غَمَامِ(٦)

إقرَا السَّلَامَ عِلى سعادَ وقُلْ لها يومًا تَرُدُّ رَسولَنا بِسَـلَامِ

(١) الامتياح : استخراج الريق بالمسواك .

(٢) عرفوا : أتوا عرفات حين حجوا .

(٣) ماح : اغترف الماء بكفه ، ويريد سقين به . الرضاب : الريق . الغروب : جمع الغرب ، وهو أول كل شيء ، ويريد بغروبه تقطع أسنانه وذلك الحداثة. أعجف : هزيل . ويريد أن اللثة قليلة اللحم ، وهو مما تنعت به المرأة .

(٤) الإسحل : شجر يتخذ منه المساويك . أحوى : يضرب لونه إلى السواد من شدة خضرته . طفل : رخص ناعم . يعنى كفها . مطرف : مخضوب الأطراف بالحناء . نصع : شديدة البياض . ويروى : على الزهر من أنيابها . . . والزهر : البيض ،

(٥) الشادن : ولد الظبية .

(٦) البرد : حب الغمام المعهود ، وهو ماء الغمام يسقط جامدا لشدة البرد ، ويريد بالبرد : الأسنان البيضاء . ومتن الشيء : ما ظهر منه .

وقال أيضا :

إنّ الشّفاءَ وإنْ ضَنّتْ بنائلِها ... فرعَ البَشامِ الذى تجلو به البَرَدَا[1]

ما فى فؤادكَ من داءٍ يُخامِرُهُ ... إلّا التى لو رآها راهبٌ سَجَدَا

وقال جميل بن معمر :

بثغرٍ قد سَقَين المِسْكَ منه ... مساويكُ البَشامِ ومن غُرُوبِ

ومن مَجرَى غَوارِبِ أُقحُوَانٍ ... شَتِيتِ النَّبْتِ فى عام خَصِيبِ

وقال آخر :

وغادَيْنَ بالقضبان كلَّ مُفلَّجٍ ... به الظَّلْمُ لم يُفْلَلْ لهنَّ غُروبُ[2]

رُضابًا كطَعْمِ الشُّهْدِ يجلو متُونَه ... من الأيْكِ أو غضِّ البشام قَضيبُ[3]

أولئك لولاهنَّ ما سُقْتُ نِضْوَةً ... وَلا قابلَتْنى فى البِلادِ جَنُوبُ[4]

وَقال أيضا :

إذا الرِّيحُ من نحو الشَّمال تنسَّمَتْ ... وَجَدتُ لِرَيّاها على كَبِدِى بَرْدَا[5]

تخيَّرْتُ من نعمانَ عودَ أراكةٍ ... لهِنْدٍ وَلكنْ مَن يُبلِّغُه هِنْدَا

وأنشدنى أبو الحسن بن عُليل العنزىّ قال : أنشدنى الزبير بن بكّار قال : أنشدنى أبو مسلم الكلابىّ لمهدىّ بن الملوَّح الكلابىّ :

نَبيت لَيْلَى وقد كنَّا نُبخِّلُها ... قالت: سقى الله ذاك المَرْبَعَ الجَدِبا

يا حَبَّذا راكبًا كنَّا نَهَشُّ له ... يُهدِى لنا من أراكِ الموسِى القُضُبا

---

(١) البشام شجر عطرى الرائحة يستاك بقضبه ، وحبه يعرف عند الصيادلة بحب البلسان.

(٢) الظلم : بريق الأسنان .

(٣) الشهد : العسل ما دام لم يعصر من شمعه .

(٤) النضو : المهزول من الحيوان .

(٥) الريا : الريح الطيبة .

وقال القطاميّ :

مُنَعَّمَةٌ تَجلو بخُوطِ أراكةٍ ذُرَى بَرَدٍ عذبٍ شتيتِ المَنَاصبِ[1]

كأنَّ فضيضًا من غَريضِ غمامَةٍ على ظَمَأٍ جادَتْ به أُمُّ غالبِ[2]

لِمُستَهلِكٍ قد كاد من شدّة الهوى يموت ومن طولِ العِداتِ الكواذبِ[3]

وقال بعض الأعراب ، وتُروى للأُمَيلس :

مُنَعَّمَةٌ هَيفاءُ عجزاءُ خَدلَةٌ تَمَسُّ مَثانِي شَعرِها قُضُبًا خَزْلَا[4]

وتَجلو بمسواكِ الأَراكِ مفلّجًا عِذابَ الثَّنايا لا قِصارًا ولا ثُعْلَا[5]

وقال العَطَوِيّ :

عندكُنَّ الفؤادُ والقلبُ رَهْنٌ في يَدَيْ ذاتِ دُملجٍ ووِشاحِ[6]

وثَنَايَا رَقيقَةٍ كَغَدِيرٍ من مُدامٍ ورَوْضَةٍ مِن أقاحِ

فساويكُها بها كلَّ يومٍ في رِياضٍ من اصطباحِ الرَّاحِ

---

(١) الخوط . الغصن الناعم لسنة ، أو كل قضيب . أراكة : شجرة يؤخذ منها السواك. ذرى : أعالى . الشتيت من الثغر : المفلج . ويروى : شنيب ، والشنب : برد وعذوبة فى الأسنان ، أو نقط بيض فيها . أوحدة الأنياب كالغرب تراها كالمنشار . المناصب : المنابت ، ويريد مراكز الأسنان ، يعنى أنه مفلج .

(٢) فضيض : ماء سائل ، وكل ما سقط من السماء فهو فضيض من الماء . غريض : طرى . ظمأ : عطش .

(٣) مستهلك : هالك فى الشوق ، والمستهلك : الجاد فى الأمر ، كأنه جعله ها هنا للجد فى الحب . العدات : جمع العدة : الوعد .

(٤) هيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر . عجزاء : عظيمة العجز ، مؤخر الجسم . خدلة : ممتلئة الأعضاء من اللحم مع دقة العظام . الخزل من الإبل : ما ذهب سنامه . ويريد: قضبا مستقيمة

(٥) ثعلت أسنانه : تراكبت فوق بعضها .

(٦) الدملج : حلى يلبس فى المعصم .

وقال على بن الجهم :

حَجّوا مَوَاليكِ يابُرْهَانَ واعتَمَرا وقد أتَتْكِ الهدايا من مَوَاليكِ [١]

فأتحِفِينى بمّا أتحفوكِ به ولا تكُنْ تحفَتى غيرَ المَساوِيكِ

ولستُ أرضاه حتّى تُرسِلِين به مّما جَلَا الثغرَ أوْ ماجَالَ فى فِيكِ

ولأبى الطيّب فى ذلك :

شَهِيدِى على طِيبِ اللّثاتِ وريقِها أنابيبُ عِيدانِ الأرَاكِ المفرَّعِ

كأنَّ حَبَابَ الرِّيق حين تَمُجُّه على شُعَبِ المسواكِ غيرُ مُزَّعِ [٢]

رَشاشُ ذكىِّ المسكِ شِيبَ بعَنبَرٍ أو الرَّاحِ من صفوِ العُقارِ المُشَعْشَعِ [٣]

وقال مروان بن أبى حفصة :

شِفَاءُ الصَّدَى ماءُ المساويكِ والذى أجْ
تَنِى الريقَ من خَمْلٍ يُنَازِلُها طِفْلُ

فيا حبّذا ذاكَ السّـــواكُ وحبّذا
به البَرَدُ العَذْبُ الغريضُ الذى يَجْلُو

وأحسن محمد بن عبد الله بن طاهر حيث يقول :

وإذا سألتكِ بعضَ رِيقكِ قلتِ لى أخْشَى عقوبةَ مالِكِ الأمْلاكِ

أيجوز عنــــدكِ أن يكون متيّمٌ يهواكِ عندكِ دونَ عودِ أراكِ

ماذا عليكِ جُعِلتُ قَبلَكِ فى الثّرى من أن أكون خليفةَ المِسْوَاكِ

---

(١) برهان : من جوارى المتوكل .

(٢) الحباب : الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر . مج الماء وبالماء من فمه : رمى به .

(٣) العقار : الخمرة . شعشع الشراب . مزجه بالماء .

وهذا باب تطنب فيه الشعراء ، ويتّسع لها القول فى ذكره ، وقد مضى من بعضه ، ماأغنى عن شرح كلّه .

وأنا أصف لك جملة من جميل مناقبهم ، ومايُؤثَر من حسن مذاهبهم ، إن شاء الله تعالى .

٣٥— باب صفة ذوى التظرّف
ومباينتهم لذوى التكلّف

اعلمْ أن من كمال أدب الأدباء ، وحسن تظرُّف الظّرفاء ، صبرَهم على ماتولّدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، وأخذهم بالشّيَم السنية ، والأخلاق الرضيّة ، وأنهم لايداخلون أحدا فى حديثه ، ولايتطلعون على قارٍ فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلّم كلامه ، ولايستمعون على مسِرٍ سرّه ، ولايسألون عمّا وُرِى عنهم علمه ، ولايتكلمون فيما حُجِب عنهم فهمه ، يتسرّعون إلى الأمور الجليلة ، ويتبطؤن عند الأشياء الرذيلة ، فهم أمراء مجالسهم ، بهم يُفتح عَسِرُ الأغلاق ، وبهم يتألّف متنافر الأخلاق ، تسمو إليهم الآماق ، وتنثنى عليهم الأعناق ، ولا يطمع فى عيبهم العائب ، ولا يقدر على مثالبهم الطالب ، ألا ترى أنهم لاينتجعون[1] ، ولا يتبصّقون ، ولايتثاءبون ، ولا يستنثرون[2] ولايتجشّؤن[3] ، ولا يتمطّوْن ، وذلك عيب عند الظرفاء ، مكروه عند العلماء ، وفيه حديث مأثور ، حدّثنيه عبيد بن شريك قال : حدثنا ابن أبى مريم قال : أخبرنى يحيى بن أيوب قال : أخبرنى ابن عجلان عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنّ الله يحبّ العُطاس ويكره التثاؤب ، وأنّ أحدكم إذا قال هاها فان ذلك الشيطان يضحك فى جوفه .

---

(١) تنجع بالدم : تلطخ به . (٢) تنثر الشىء : تساقط متفرقا .
(٣) تجشأ : أخرج من فه الجشاء ، وهو ريح يخرج من الفم مع صوت .

والظرفاء لايتثاءبون ولا يتمطّون ، ولا يوقعون أكفهم ، ولا يشبكون أصابعهم ، ولا يمدون أرجلهم ، ولا يحكّون أجسادهم ، ولا يمسّون آنافهم ، خاصةً إذا كان أحدهم بين يدى خليلة أو ربيطة أو حبيبة ، أو مَن يحتشمه ومَن يُكرِمه ، ولا يدخل أحدهم الخلاء من حيث يراه أحد ، ولا يبول بين يدى أحد .

وليس من زيّهم الاقعاء[(١)] فى الجلسة ، ولا السرعة فى المشية ، ولا الالتفاتُ فى طريق قصدوه ، ولا الرجوع فى طريق سلكوه ، ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم فى المواضع المكنوسة ، ولا يستريحون فى الأماكن المرشوشة ، ولا يجلسون فى مجلس فينتقلون منه ، ولا يقعدون بحيث يقامون عنه ، ولا يشربون ماء الأجباب ، ولا الماء فى دكاكين الشراب ، ولا ماء المساجد وَالسبيل ، وَذلك مشنى عند ذوى العقول ؛ وَلا يدخلون دكان هرّاس[(٢)] ، وَلا دكان رواس ، وَلا يجتازون بدكان مرّاق ، وَلا يأكلون شيئاً مما يُتّخذ فى الأسواق ، ولا يأكلون على قارعة الطريق ، ولا فى مسجد ولا فى سوق ، وَفى ذلك حديث مأثور ، وَخبر مشهور ، حدّثنيه أحمد بن الهيثم المعدّل قال : حدثنى سهل بن نصر وإسحاق ابن المنذر قالا : حدثنا محمد بن الفرات قال : حدثنى سعيد بن لقمان بن عبد الرحمن الأنصارى . عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الأكل فى السوق دناءةٌ .

وظريفٌ لا يأخذ شعره فى دكان حجّام ، ولا يدخل بغير مئزر الى الحمّام ، وقد حدثنى أحمد بن محمد بن غالب صاحب الخليل ، قال : حدثنى أحمد بن

---

(١) أقعى الكلب : جلس على استه .

(٢) الهراس : صانع الهريسة , أو بائعها .

عبد الله بن هَشيم ، عن معنرة ، عن ابراهيم قال : النظر فى مِرآة الحجّام دناءةٌ .
وحدثنا أحمد بن محمد بن غالب قال : حدثنا اسماعيل بن محمد بن راشد بن سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: من قلّة مروّة الرجل نظره فى مرآة الحجّام واطّلاعه فى بيت الحائك .

وقد ينبغي للظريف أن يدخل الحمام على خلوة ، لئلا ينظر فيه إلي سَوءة ، ولا يمدّ عينه إلى أحد ، ولا يعلق ثوبه على وَتَد ، ولا يُدلى رجله فى البئر التي ينصبُّ إليها الماء ، فان ذلك ممّا يفعله الأدنياء ، ولا يدلك يديه بخرقة ، فان ذلك مما يستعمله السّخفاء ، ولا يتمرّغ على حرارة أرض الحمّام ، فان ذلك مما يفعله سفلة العوام ، بل ينبغي له أن يدخله متّزرا ، ويقعد فيه معتزلا ، ولا يقعد مستوفزا[1] على رجله ، فان ذلك طعنٌ على عقله ، ولا يميل مضطجعا ، بل ينتصب متربّعا ، حتى إذا نضب العَرق من بدنه ، وتحدر على جسده ، وكان عرقه بين الكثير والقليل ، نشّفه عن بدنه بمنديل ، ثمّ دعا لرأسه بالغسول ، والأُشْنان[2] المنخول ، فان كان من أهل المروّات والنعم ، وأهل البيوتات والقِدَر ، ممّن لا يُنسب فى فعله إلى شيء ليس من شكله ، فليبتدىء دخوله الحمّام بالامساك عن الكلام ، والتجرّع من الماء الحارّ ثلاثَ جُرَع ، وليقعد للعرق فوق نِطَع[3] حتى إذا عرق سلت بدَنه ، وجمع عرقَه فوزنه ، وهذا الفعل لا يصلح إلا لذوى نعمة أو شريف ، أو متأَدّب فيلسوف ، وأما سائر الناس من أهل الظّرف ، فانهم يُنسبون بهذا الفعل إلى السخف .

ولا ينبغي لظريف أن يمشي بلا سراويل ، ولا يتزز بمنديل ، ولا يمشى

(١) استوفز فى قعدته : قعد غير مطمئن وكأنه يتهيأ للوثوب .
(٢) الأشنان : ماتغسل به الأيدى من الحمض .
(٣) النطع : بساط من جلد .

محلولَ الازرار ، ولا مسبَلَ الازار ، ولا يماكس في الشِّرَى ، ولا يركب حمار الكِرَى ، ولا ينزل في خراب ، ولا يقبض على كتاب ، ولا يشارط صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ، ولا يشاتم رفيقا ، ولا يغتاب أحدا ، ولا يذكر بسوء أخا ، ولا ينمّ بسريرة ، ولا يظهر خبيئة ، ولا يخون عهدا ، ولا يخلف وعدا ، ولا يضرّب[1] بين اثنين ، ولا يفسد بين خليلين ، ولا يسعى إلى سلطان ، ولا يغمز بانسان ، ولا يهتك حُرمة ، ولا يتعرّض لسرقة ، ولا يتحلّى بالكَذِب ، ولا يستهدف للرِّيَب ، ولا يجاهر بالزِّنى ، ولا ينطق بالخنا ، ولا يفسد حُرمة الأخ الصديق ، ولا حرمة الجار اللزيق ؛ وأجود ما في هــــذا المعنى قول الأحوص بن محمد الأنصاريّ :

قالت ، وقلتُ : تحرَّجي وَصِلي   حَبْلَ امرىءٍ بوصالِكُم صَبِّ[2]
صاحِبْ إذَا بَعْلِي ، فقلتُ لهَا :   الغدرُ مِنِّي ليس من شَعْبِي
ثنتَانِ لا أَدْنُو لوَصْلِهِمَا   عِرْسُ الخليل وجارةُ الجَنْبِ
أمّا الخليلُ فلستُ مُخْلِفَــهُ   والجــارُ أوصاني به رَبِّي

ومن تكامل ظرف الظريف : ظهور بِزّته ، وظهور طِيب رائحته ، ونقاء دَرَنِه[3] ، ونظافة بَدَنِه ، ولا يتّسخ له ثَوْب ، ولا يَدْرَن له جَيْب[4] ، ولا ينفتق له ذيل ، ولا يُرى في دخاريصه[5] مَيْل ، ولا في سراويله ثَقْب ، ولا يطول

---

(١) ضرب : أغرى ، وشجع وحرض .
(٢) تحرج : تجنب الإثم .
(٣) الدرن : الوسخ .
(٤) الجيب من القميص : طوقه .
(٥) الدخاريص : جمع الدخريص : بنيقة الثوب ، وهى ما تجعل فى نحر الثوب لتوسيعه .

له ظُفُر ، ولا يكثر له شَعَر ، ولا يفوح لإبطه دَفر [١] ولا لبدنه غَمر [٢] ولا يسيل له أنف ، ولا يسودّ له كَفّ ، ولا يظهر له شُقاق ، ولا يُرشش له بُصاق ، ولا يقف فى مأقه رَمَد ، ولا صِواره زَبَد [٣] .

ومن زيّهم فى مصاحبة الأوداء ، ومعاشرة الأخلاء : حفظُ العهود ، وإنجازُ الوعود ، والدَّوامُ على الوفاء ، وقِلّةُ الرغبة فى الجفاء ، وحسن المؤاتاة لأودّائهم ، والمساعدة لأخلاّئهم ، والبِشرُ بمن لقوا ، وَالتفقدُ لمن فقدوا ، والمساعفةَ بأبدانهم ، والمعونةُ بأموالهم ، وتخفيف المُؤَن على إخوانهم ، وكفُّ الأذى عن جيرانهم ، والصفحُ عن المُسِيءِ لهم عند إساءته ، ومقابلةُ المحسن باحسانه ، والترحيبُ بالصّغير ، والتّبجيلُ بالكبير .

وقد حدّثنى محمد بن يونس القيسى قال : حدّثنا يزيد بن بَيان قال : حدّثنا أبو الرجال ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من شابٍّ أكرمَ شيخًا عند سِنّه إلا إلاقيّض الله له مَن يُكرِمه عند سنه .

وقد يجب أيضا على أهل المروّة ، مثل الذى يجب على أهل الظرف والفتوة ، والأدب ، لأنهما ليسا باللذاذة والقصف ، ولا بالمفاخرة والحسب ، وإنما هما بكمال المروة والأدب . ولن يعرف الفتى جميل مواهب الفتوّة إلا بسلوك طرائق المروة ؛ وقد ذكرت الفتوة عند بعض العلماء فقال : إنّ الفتوة ليست بالفسق والفجور ، ولكنّها طعامٌ موضوع . وأذًى مرفوع . ونائلٌ مبذول ، وبِشرٌ مقبول ، وعفافٌ معروف ، واجتنابٌ للقبيح ، وأدبٌ ظاهر ، وخُلُقٌ طاهر ، وتركُ مجالسة أهل الشرور ، والسموُّ إلى معالى الأمور ، والاحسانُ إلى من أساء ، ومكافأةُ من أحسن ، وقضاء حوائج الناس .

---

(١) الدفر : خبث الرائحة .
(٢) الغمر : زنخ اللحم .
(٣) الزبد : الخبث .

فهذه جملة من زيهم فى حسن مناقبهم ، ومستحسن جميل مذاهبهم .

ولهم أيضا رقةُ الطبع ، والتلطفُ فى كل الأمور ، والمداراةُ والتملّقُ ، والتأنّى والترفق ، ومن ذلك قولهم : مَن حَبَّ طَبَّ : أى رفق ودارى ؛ ومن ذلك سمى الطبيب طبيبا ، لترفقه ومداراته والعرب تقول : هو طب بالأمور ، أى عالم رفيق ، قال عمر بن أبى ربيعة :

فأَتَتْهـا طِبَّةٌ عالمـةٌ تَخلِطُ الجِـدَّ مِرارًا باللعِبْ

تَرفعُ الصوتَ إذَا لانَتْ لها وتُراخِى عندسَوْراتِ الغَضَبْ

ولهم حسن التأنّى فيما يريدونه ، ولطيفُ الحِيَل فيما يحاولونه ، وخفىُّ التلطف لما يطالبونه ، حوائجهم سرية ، وسرائرهم مخفية ، وأُمورُهم باطنة ، وحِيلُهم لطيفة ، يوردون الأمور مواردَها ، ويُصْدِرونها مصادِرَها .

ولهم فيما استحسنوا من الهدايا بينهم ، والبِرّ والملاطفةِ والمكاتبةِ والتحفةِ من غيرهم ويستصغر ؛ ومن ذلك أنهم ربما أهدوا الأترجّة الواحدة ، والتفّاحة الواحدة . والدَّسْتَنْبُويَة اللطيفة ، والشمامه اللطيفة ، والغصنَ من الريحان ، والطاقة من النَّرجِس ، والرِّطل من الشراب ، والقطعة من العود والمَخْزَنَة من الطِّيب ، والشىء اليسير ، والوهط الصغير ، ونظيرَ ذلك من الأشياء القليلة الحقيرة والذليلة ، التى لاقدر لها عند ذوى العقول ، فيُستكثر ذلك منهم ويُلقَى بالقَبول ، وتُستحسن هداياهم وتُستظرف ، ويُفرح بها وتستطرف ، ورغبةُ غيرهم من الناس فى الأشياء الجليلة ، والهدايا النبيلة ، والطُّرَف السرية ، والتُّحف السنيّة ، غير أهل الظرف ، فانهم اقتصروا على الالطف اللطيف ، والبر الخفيف .

ومن ذلك كتُبُهم الملاح ، وألفاظُهم الصحاح ، التى يستعطفون بها القلوب ،

ويسترون بها العيوب ، ويستقيلون بها العثرات ، ويستدركون بها الهَفَوات[١] التى قد استخلصوها من بديع الحرير الصينى ، ومليح الملحم النيسابورى ، وصفيق الدبيقى الحنى ، ونقى التاختج والقوهى .

وتغلغلوا إلى الكتاب فى ذلك بالذهب والمسك ، والزعفران والسُّك[٢] واتخذوا لها طرائف المناديل الرقاق ، وجياد الزنانير الدقاق ، وطيّبوها بالمسك والذرائر[٣] وَعَنْوَنُوها بمتظرفات الأمثال والنوادر ، وختموها بالغالية المستمسكة ، وطبعوها بنُتَف الألفاظ المهلكة ، وقد ضُمنتْ من مليح المكاتبة ، وطرائف المعاتبة ، وجميل المطالبة ، وشكيل المداعبة ، ما يقربون به البعيد ، ويهونون به الشديد .

وقد بيّنت ذلك أحسنَ البيان ، وشرحته بأخص المعــاني ، ووصفتُ ما يتوصّلون به من الرسائل ، وما يضمنونه كُتُبهم من الرّسائل ، فى كتاب مفرَد ، وكلام مجرَّد ، ترجمته كتاب فَـَرح المهَج ، وجعلتُ ما فيه ذريعة إلى الفرح ، فأَغنى عن تطويل هذا الباب ، ما مَرَّ فى ذلك الكتاب ، وأَنا أَصف لك أيضا فى كتابنا هذا جملة ما استحسنوه بينهم من المكاتبة ، وما استعملوه بينهم من المعاتبة ، وأقصد فى ذلك إلى مداعبة الكتّاب ، ومعاتبة الأحباب ، وما تعاتبوا به من الأبيات ، واختاروه من المقطّعات ، وما ذكروا على العنوانات من الكلام ، وما ضمّنوه فى كتبهم من السلام ، على غير نقص منى لكل ما فى ذلك من الأشعار ، إذ كان قصدى فى كلّ أبواب الكتاب إلى الاختصار . وبالله أستعين وأستكفى ، وإيّاه أسترشد وأستهدى .

---

(١) الهفوات : جمع الهفوة : السقطة والذلة .

(٢) السك : ضرب من الطيب .

(٣) الذرائر : جمع الذرور : ما يذر من عطر ونحوه .

٣٦ — باب ما اختير من ألفاظ الأدباء فى المعاتبات واستُحسن من الظرفاء من مليح المعاتبات

أخبرنى الوضّاح بن ثابت الكاتب قال: كنتُ عند بعض الكتّاب، إذ دخلت عليه وصيفة كأنها قمرٌ، تتثنّى فى مشيتها كأنها جانٌّ، أو كأنها غصنُ بان ريّان، حتى وَقفت بين يديه، فقالت: مولاتى تقرأ عليك السلام، وَتقول لك، يا أخى جفوَتنا من غير استحقاق للجفاء، وَملتَ إلى غير مذاهب الظرفاء، وَإنى لم أزل واثقةً بإخائك، راجيةً لحسن وفائك، وتحقيقُ ظنٍّ مؤمّلك، أولى بك من الوقوف على تجنبك.

فقال لها: اقرئى عليها السلام، وقولى لها، يا أختىَ أنا من ودّك، على أحسن عهدك، ومن الأمل لك على أضعاف ما عندك، ولقد استوحشنا مِن فقدك، فاجعلى لنا حظا من أُنسك.

فسألته عنها، فقال: جارية على بن الجهم.

وأخبرنى محمد بن إبراهيم الهمدانى قال: أخبَرنى مولى لمحمد بن عبدالله ابن طاهر قال: قرأتُ رقعة لمولاى إلى بعض إخوانه: يا أخى مددتَ يدا إلى المودة مبتدئًا فشكرناك، وشفّعتَ ذلك بشىء من الجفاء فعذرناك، والرجوع إلى محمود الوداد، أولى بك من المقام على مكروه الصد.

وكتب بعض الظرفاء إلى صديق له: أيّدَك اللهُ بوفاء الأدب من النزع إلى الجفاء، وجعل آخِر سخطك موصولا بأوّل الرضاء.

وكتب بعض الأدباء إلى صديق له يستعتبه على جفاء كان منه: ليس من تدبير مَن شملتْه أبّهــــة الحِكَم، وسمتْ به معالِى الهِمَم، أن يَعطف على عهود صديق بعقوق، ولا تضمحلّ واجباتُ الحقوق، ولا تُغيّره

نُوَبُ [١] أيّامه ، عن رعاية ذِمامه [٢] والسلام .

وكتب آخر إلى صديق له : بدأتَنا بمودّة عن غير خِبْرة ، وهجرتَنا من غير سبب يوجب طولَ الهجرة ، وقد أطعَمنا أوَّلُك فى إخائك ، وآيَسنا آخرُك من وفائك ، فسبحان من لو شاء كشف باليقين من الرأى عن غير سِمَة الشكوك فى أمرنا فأقمنا على ائتلاف ، أو اقترقنا على اختلاف، والسلام .

وكتب سعيد بن حُمَيْد إلى بعض الكُتّاب : بلغنى حسنُ محضرك ، فغيرُ بديع من فضلك ، ولا غريب عندى من بِرّك ، بل قليل اتصل بكثير ، وصغيرٌ لحق بكبير ، حتى اجتمع فى قلبٍ قد وُطِنَ لمودّتك ، وعُنق قد ذلت لطاعتك ، وليس أكبرُ سُؤْلها وأعظمُ أربها إلا طولَ عمرٍ ببقاءِ النعمة عليك . والسلام

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له : مازال ما أجِدُ من عواقب رأيك ، وأشبهَ من وفائك ، حتى وثق فى ضميرى من مودّتك ، ما استنجد نى لطاعتك ، واستوى علىّ من موافقتك ، ما سهّل علىّ سبيل عَتْبك فما أساَ لك بغلبة الهوى طريقا إلا إلى رضاك . وَلا أستعين بهواك منك عليك إلا كان عونًا علىّ لك ، ولَنِعْمَ المستعبِدُ لى أنت على المحامد ، وَاكتساب سَنَا الفوائد، وَلذلك أقول :

علىّ رقيبٌ من هواك يَقودُنى	إليك على الحالات فى السُّخطِ والرِّضى
وليس هوایَ حیث لا يَسْتحقُّهُ	ولكنّ هوایَ حیث کان لك الهَوى
لِسانى رهينٌ بالذى أنت فاعلٌ	ورأيىَ موصولٌ بما كُنْهُهُ يُرَى [٣]

(١) النوب : جمع النوبة : الفرصة .
(٢) الذمام : الحق ، الحرمة .
(٣) الكنه : جوهر الشىء وأصله وقدره وحقيقته وغايته ،

وما زِلْتَ لى عونًا برأىٍ موفّقٍ   على صِلَةِ القُرْبَى بهَدْىِ أولى النُّهَى

وَكتب الحسن بن وَهب الى محمد بن عبدالملك سُرُورى أعارَنى الله حياتك، اذا رأيتك، كوَحْشتى لك إذا لم أرك، وحفظى لك فى مغيبك، كودّتى لك فى مشهدك، وَإنّى لَصافِى الأديم، غير نَغِلٍ[1] وَلا متغيّرٍ، فامنحْنى من مودّتك، مُزْنَ لذاذةِ مشربك، وَكن لى كـأنا، فوالله ماعُجْتُ[2] عن ناحيتك، إلاّوَأنا محنىّ الضّلوع إليك، والسلام.

فكتب اليه محمد: يا أخى مازلْتُ عن مودّتك، ولا حُلت عن أخوتك، ولا استبطأتُ نفسى لك، ولا استزدتها فى محبتك، وإنّ شخصك لماثلٌ نصْبَ[3] طرفى، ولقلّ مايخلو من ذكرك قلبى. ولله درّ الذى يقول:

أما والذى لو شاءَ لم يَخْلُقِ النّوى   لئن غبتَ عن عينى لماغبتَ عَن قَلبى

يُذَكّرنيك الشّوقُ حتى كأنّنى   أُناجيك من قربٍ وإنْ لم تكن قربى

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له، تبيّن منه جفوة، سيدى ألزمتنى الخضوع، وحرمْتَ علىّ الهجوع، وضرمْتَ نارًا بين الضلوع، فتركتنى فيك لاتذا بالعدوّ، وممنوعا من السّلوّ، منخفضا من العلو، بمنزلة من خان وُدًّا، أو نقض عهدا، أو أخلف وعدا، أو أظهر صدًّا، أو جحد يدا، أو كفر عارقة[4] أو غمط[5] نعمةَ سالفة.

سيدى لما اشتغلتْ بك النفسُ القلقة، والعين الأرقة: حُلتَ عن محمود الوفاء، وزُلْتَ عن غير ذنب يوجب عقوبة المجترم، وغيرِ سببٍ يَقدِح فى

(١) النغل الفاسد، أو ولد الزانية لفساد نسبه.

(٢) عاج عنه: رجع عنه وتركه.

(٣) النصب: الشىء المنصوب: يقال: هذا نصب عنى، أى أمامها.

(٤) العارقة: العطية.   (٥) غمط النعمة: لم يشكرها.

مودة العبد المهتضم [١] ، الذى توقعه جريرته ، وتوبقه [٢] خطيئته ، وتحلُّ به إساءته ، وتلزمه هفواته .

سيّدى، أوقعنى يسير جفائك ، وإعراض لحظاتك ،فى بحارهموم، غريقها غريقُ صبابة وغموم ، أُخاطبك بلسان يعجز عن المخاطبة ، وأكاتبك بيَـدٍ لاتجرى الى المكاتبة . وأناجيك بضمير الهيبة ، المشاهد لك فى الغيبة، مناجاةَ مُغرَمٍ ، وصريع تجلّد ، وحليف تلدّد [٣] .

سيدى كلٌّ عذابٍ ووجدٍ جديدٍ ، وسقام عتيد، فهو فى محبتك ، والدوامُ على مودتك يسير ، فأمّا السبيل الى وجه السرور فتعذّرة ، والخلاص فى طُرق السّلامة الى الرّاحة فستوعرة ، قد غلب الظمأ وبعُد المَوْرِد ، وقلّ العزاء . وفقِدَ الصبر ، وانحلّت العزيمة ، وبطل الرأى ، وثبت الهوى ، فتمكّن فى الحشا [٤] ، فلا مَحيصَ لعبدك عنك ، ولا بدّ له فى حالة السخط والرِّضَى منك .

سيدى الرجوع الى محمود الشِّيمة أشبه من العَوْد، بالفضل ، والتطوّلُ بالوصل أولى بالمولى من الوقوف على الصدّ، الذى يقدح فى النيّة ، ويزيل عقدَالطّوية،وشفيعى اليك،الذى أرجو نجاح الشفاعة خضوعى لك، واعتصامى بك ، وانحطاطى فى طاعتك ، ووقوفى بين يديك ، مستكينا متحيّرًا معترفاً، فان ذلك أبلغ شفيع ، وأنت فيما تراه فى أمرى أكرم مولًى فى كل حال ، فانّه يتوقّع كتاب جواب كتابه، بما يسكن اليه،وتتجدد به النعمةعليه، فَحقّقْ تأميله وأكْرِمْ صَفَدَه [٥] وأقِمْ أوَدَه، وعُدْ فى جفائه ، الى دوام صفائه، والسلام .

---

(١) المهتضم : المظلوم ، اهتضمه : ظلمه وغصبه وكسر على حقه .

(٢) أوبقه : أهلكه .　　(٣) التلد : التحير .

(٤) الحشا : ما اتضمنت عليه الضلوع .　　(٥) الصفد : العطاء .

٣٧ — باب ما ضمنوه كتبهم من الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والأخطار

أنشدنى بعض الأدباء :

هــذا كتابُ متيّمٍ خَطّتْ إليك أناملُهْ
مَزَجَ المِدادَ بدَمْعِهِ فبكتْ عليـه عَواذِلُهْ
أنتَ الطبيبُ فَدَاوِهِ يا مُبْتَليـه وقاتلُهْ

وَقال آخر :

هذا كتابُ فتًى له هِمَمٌ عَطَفَتْ إليك رجاءَه هِمَمُهْ
غَلَّ الزمانُ يَدَىْ عزيمتـه وَرَمَى به من حالق قدَمُه[1]
أفضَى إليك بسِرِّهِ قَلَمٌ لوْ كانَ يَعقِله بكى قلَمهْ

وقال آخر :

هذا كتابى بدَمْعِ عَيْنى أملاه قلبى على بَنانى
الى غزَال كَنَيْتُ عنه يجُلُّ عن إسْمِه لِسَانى

وقال آخر :

هذا كتابُ أخى هَوًى وَصَبابَةٍ لا يستطيع لِما به كِتْمانَا
لاقَ الدَّوَاةَ بِعَبْرَةٍ مسفوحةٍ كانَتْ لمُضمَر لاعجٍ عُنْوَانَا[2]
قَرِح الفـؤادِ تَعُوده أشجانه لمّا به بَخِلَ الطبيبُ وَخانَا

وَقال آخر :

هذا كتاب متيَّمٍ يشكو الصبابَةَ فى كِتابِهْ
فارْدُدْ عليه جوابَهُ كَىْ يَستريحَ إلى جَوَابِهْ

---

(١) الحالق : الجبل المنيف المرتفع لا نبات فيه .
(٢) لاق الدواة : أصلح مدادها .

لو كانَ يَنطِق ذا الكتا ... بُ شكا اليك عظيم مَا بِهْ

وقال آخر :

هـذا كتابُ فتًى شكا سقمًا ... ألفَ السُّهادَ فَشفَّه سَقَمُهْ[1]

يُبكى عليه جفون مُقلَتِه ... عَدَد الحروف وقد بَكى قَلَمُهْ

لولا مُراقبة العدوّ ومَنْ ... أضحى من الرُّقباء يَتَّهِمُهْ

لَبكى علانيَةً وقال لهم ... بَرِحَ الخفاءُ وباح مَكتَتَمُهْ

وقال آخر :

هـذا كتابي اليك أشكو ... أن لم تَجُدْ لى فما احتيالِى

كتبتُ أشكو إليك ما بِى ... مِمَّا أُقاسِى فما تُبالِى

ياحَسَنَ الوجهِ كُنْ شَفيعى ... إليك إن لم أَبُحْ بِحالِى

ما ذَكَرَ القلبُ منك شيئًا ... إلا تمثَّلْتَ لى خيالِى

وقال آخر :

هذا كتابُ فتًى لِغَيبكَ حافظٍ ... صَبٍّ بذكرِكَ مُستهامٍ مُدْنَفِ[2]

إنْ غِبْتَ آنَسَ طرفَه بدموعِهِ ... وإذا أصابَك طرفُه لم يَطْرِفِ

وقال آخر :

هذا كتابُ أخى هَوًى مُشْتاقِ ... قَرِحِ الجُفون بدَمعِه المِهْرَاقِ

أملى هواه على بنَانِ يمِينِه ... فأَبانَ كيف مصارِعُ الْعُشَّاقِ

وكأنه يُفْنِي بما فى نفسه ... من طُولِ شوقٍ واكتئابٍ باقِ

---

(١) شفه المرض : أوهنه .

(٢) المستهام : من ذهب فؤاده وخلب عقله من الحب . مدنف : ثقل مرضه ودنا من الموت .

وقال آخر :

هذا كتابُ متيَّمٍ مُشتاقِ ... يَشكُو إلى مستظرَفٍ ذوَّاقِ
أهدَى له الهجرانَ بعد تَواصُلٍ ... وكذاك فعلُ الخائنِ المَذَّاقِ[1]
ما هكذا فعلُ الكرامِ فأجمِلِي ... وتحرَّجى إن تَنقُضى مِيثَاقى
وَارْثِى لصَبٍّ هائمٍ قد شَفَّهُ ... طولُ النَّحيبِ وشدَّةُ الإقلاقِ

وأنشدنى ابراهيم بن محمد لنفسه :

هذا كتابُ متيَّمٍ فى قلبه ... نارٌ تَضَرَّمُ بُكرَةً وأصِيلَا
فإذا قرأتَ كتابَه فاجعلْ له ... بعد الصّدودِ إلى الوِصالِ سَبِيلَا
فلقد تركتَ فؤادَه فى غَمْرَةٍ ... وتركتَ فى الأحشاءِ منه غليلَا[2]
ولقد تبرَّمَ بالحياة وطولِها ... وعسى مَداه أن يكونَ قَليلَا
لا تُغرِيَنَّ به رَدَاه وحَينَه ... حاشاك أن تُرْدِى يداك قَتيلَا
حاشاك من قَلَقٍ أطارَ رُقادَه ... فأبَى الرُّقادَ فما يلَذُّ مَقِيلَا

وأنشدنى أيضا لنفسه :

هذا كتابى إليك فاقرأْ ... كتابَ ذى صَبْوَةٍ عَمِيدِ
أقلقَهُ شَوقُه المُعَنَّى ... وهَدَّه لَوعَةُ الصُّدُودِ
لكنَّه فى الظَّلامِ يَبكى ... بُكاءَ ذى الفَقْدِ لِلفَقِيدِ
إنْ كنتَ غضبانَ فارْضَ عنِّى ... رِضَى المَوالِى عنِ العَبيدِ

ولأبى الطَّيِّب فى هذا المعنى :

هـذا كتابى اليك فاقرأْ ... كتابَ مَن شفَّه السَّقامُ

---

(١) المذاق : من كان وده غير خالص .

(٢) غمرة الشيء : شدته ومزدحمه . الغليل : حرارة الحب أو الحزن .

وارثِ لِسُقْمِى وطولِ صبرى ... فقد وَهَتْ مِنِّىَ الْعِظَامُ
ولا تُرِدْ قَتْلَتى وهَجْرى ... فَقَتْلُ حِلْفِ الهوى حَرَامُ

وقال آخر :

أَثَرُ الْمَحْوِ فى سُطُورِ كتابى ... شاهدٌ لى بعَبْرَةٍ وانتِحَابِ
وبُكائى يَدلُّ أنّى سَقِيمٌ ... خاضعٌ للهوى طويلُ الْعَذَابِ
أنا بين الرجاءِ واليأسِ وَقفٌ ... لستُ أدرى بما يكون جوَابِى
فاذا اشتقتُ أَن أَراكَ أُنادِى ... فَرَّجَ الله لى مِنَ الْحُجَّابِ

وقال آخر :

غَضِبَتْ لمحوٍ فى الكتاب كثيرِ ... قالت أرادَ خِيانتى وغُرُورِى
كتب الكتابَ على خِلافِ ضميره ... والمحوُ فيــه لِعِلَّةِ التَّغْيِيرِ
ما كان دَمْعِىَ للغرُورِ وظَنِّكُمْ ... كَلّا ولا للسَّهْوِ والتَّقْصِيرِ
كتبتْ يمينى والدمُوع هوَاطِلٌ ... حَذَرَ الْفِرَاقِ لِما يُجِنُّ ضَمِيرى[1]
فالمحوُ من قِبَلِ الدُّموعِ وإنّما ... تجرى دموعُ العاشِقِ الْمَهْجُورِ

وقال آخر :

ما زلتُ أبكى وفى يَدِى قَلَمٌ ... حتّى استهلّتْ مَدَامِعُ القَلَمِ
أكتم وجْدِى والدمعُ يَظْهِرهُ ... بواكِفٍ كالجُمَان مُنْسَجِمِ[2]
ما زلتُ خِلْوًا من الهوى فَلَقَدْ ... عَذَّبَنِى مَن هَوِيتُ بالسَّقَمِ
يا سيِّدًا تاهَ ما يكلِّمُنِى ... نِمْتَ وَعينُ الشَّجِىِّ لَمْ تَنَمِ

---

(١) أجنه : ستره وأخفاه .

(٢) وكف الدمع : سال قليلا قليلا . الجمان : اللؤلؤ . انسجم : سال قليلا أو كثيرا وانصب

أنا قتيلُ الهوى ومَيِّتُهُ　　لا عَذَّبَ اللهُ قاتِلِي بِدَمِي

وقال آخر :

إنِّي رفعتُ إليكِ قِصَّةَ عاشقٍ　　ورجوتُ عَدْلَكِ فانظرى فى قصَّتِي

ولقد كتبتُ ودمعُ عيني ساكبٌ　　فاذا قرأتِ فأحْسِنِي وتَثَبَّتِي

إنّ الدموعَ تفجَّرتْ فتحدَّرتْ　　منها فنونٌ فى صِفاتِ مَوَدَّتِي

لافرَّجَ اللهُ الصبابةَ والهوى　　عنِّي ولا زالت عليكِ مَحَبَّتِي

وقال آخر :

أمَّا الرسولُ فقد مضى بكتابِ　　يا ليتَ شِعْرِي ما يكون جَوابِي

وتعجَّلَتْ روحي الظُّنونُ وأشربَتْ　　طَمَعَ الحريص وَخَشْيَةَ المُرْتابِ

وقال آخر :

أسألُ اللهَ خيرَ هـذا الكتابِ　　قد أتانى برَحْمَةٍ وعَذابِ

أشتَهِي فَكَّهُ فأَفْرَقُ منه　　ففُؤادى مفرَّقُ الأسْبَابِ

وقال آخر :

كتابُ صَبٍّ بدَمْعِ عينٍ　　يُمِلُّهُ قلبُه الكئيبُ

يكتُبُه كَفُّه بضَعْفٍ　　وما لها فى الهوى نَصِيبُ

وقال آخر :

أمَّا الكتاب فقد مضى وأمامَه　　خَوْفُ الرَّقيبِ وسَطْوَةُ الحُجَّابِ

طَلَبَ الجواب فأَحْسِنُوا فى ودِّكم　　لا تبْخَلوا عَنِّى بِرَدِّ جَوابِ

هل تُنْقِذُونَ مُتيَّمًا ذا صَبْوَةٍ　　أضحى أسيرَ تذكرٍ وتَصَابِي

جودوا عليه برحمةٍ وَتعطفٍ　　فلقد أطَلْتُمْ بالصُّدودِ عَذَابِي

أمّا الكتاب فمِن كئيبٍ عاشقٍ كلِفِ الفؤادِ مُواصِلِ الأوصابِ[1]
لكنّه غادٍ إلى ذى سَلْوَةٍ متعتّبٍ فى غير كنه عِتابِ

وقال آخر :

لولا الكتاب الذى جاءَ الرسولُ به مِن الحبيب لذابَ القلبُ واحترقا
جاءَ الرسولُ على يأسٍ بموْعِدِهِ وقد قضيْتُ فأحيَى لى به رَمَقا[2]

وقال آخر :

صِليني بالكتاب وبالسّلام وزُورى زَوْرَةً فى كلِّ عامِ
وجُودى بالكتاب وعَنْونِيه إلى الصبِّ الكئيبِ المُستَهامِ
من الشمسِ المُنيرةِ يومَ دَجْنٍ وبدرٍ لاحَ من بين الغَمامِ[3]
وناحلةٍ فديْتُكِ يا مُنَاىَ أمانًا للفؤادِ مِنَ الغَرامِ

وقال آخر :

كتبتِ إلىَّ يا روحى كتابًا فوافَقَ مُنيَتى وبلُوغَ سُولى
ولولا العيْبُ هِمتُ إليك لمّا تناولتُ الكتابَ من الرّسولِ
مخافةَ نظرةٍ من عينِ واشٍ وتشنيعِ المقالة بالخليلِ

وقال آخر :

لم يَزِدْنى الكتابُ إلاّ اشتياقًا واشتعالاً من الهوى فى ضميرِى
بأبى أنت يا حبيبةَ قلبِى ومناىَ وغايتِى وسُرورِى

وأنشدنى أبو عبد الله الواسطىّ لنفسه :

كتبتَ إلىَّ تذكرُ ما تُلاقِى مِنَ الشَّوْقِ المبرِّحِ والفِراقِ

---

(١) الأوصاب : جمع الوصب : المرض والوجع الدائم ونحول الجسم .

(٢) الرمق : بقية الحياة .

(٣) دجن اليوم : كان فيه غيم ومطر .

لعمرُك ما اتَّهمتُكَ في ودادٍ ولكنْ لم تُلاقِ كما أُلاقِي
فؤادي هائمٌ والعينُ تذري دُموعًا تستهلُّ من المآقِي
وقد ذُقتُ الفراقَ وكان مُرًّا كريهًا طعمُه عند المذاقِ
على أنِّي وإنْ أبديتُ صبرًا على خدِّ الصَّبابةِ غيرُ باقِ

وقال آخر:

قُولا لِمَنْ كتبَ الكتابَ بِكفِّه إرحمْ فديتُكَ ذِلّتي وخُضوعي
ما زلتُ أبكي مذ قرأتُ كتابَها حتّى محوتُ سطورَه بدُموعي

وقال آخر:

الدَّمعُ يمحو ويدِي تكتُبُ عنِ الهوَى وامتنَعَ المطْلَبُ
أمارُ خدَّيْ قمرٍ زاهرٍ إليه من زُهْرتِه المذهَبُ
لقد براني سَقَمٌ قاتلٌ وهدَّ جِسمي دَنَفٌ مُنصِبُ

وقال الحسين بن وهب:

يا مُناي وسُروري جُهدُنا غيرُ يَسيرِ
والذي نشكوه في الكُتْبِ قليلٌ من كثيرِ
لم تطِقْ ألسُننا من وصفِه عُشْرَ عَشيرِ
فثِقِي يا بِأبِي أنتِ بمكنونِ الضَّميرِ
ثُمَّ قُولي مَطْلَعَ الجَوْزاءِ والشِّعْرَى العبورِ[1]
حَفِظَ اللهُ فتًى باتَ لها خيرَ سَميرِ

ولبعض المحدثين:

من الوَهْمِ من آثارِ قبرٍ مسنَّمٍ وهام نَرَى قبر القتيلِ المتيَّمِ

---

(١) الجوزاء: برج في السماء. الشعرى العبور: كوكب في الجوزاء.

وَمن طَلَل للشَّوق لم يعفه البِلى ونَوْى وفاءٍ لَيس بالمتهدَّمِ
الى زينةِ الدُّنيا ومُنْيَةِ أهْلها وأحسَن مَن يزهو بطرف وميسَم (١)
وأملح خَلقِ الله قَدًّا وصورةً ودَلاً وإدْلَالاً على حب مُغرَم
سلامٌ على من شَفّني وأذابني وأسكَنَ قَلْبي كلَّ وجْدٍ ومأْلَمِ
ووكَّلَني بالنجم أرعى أُفُولَه وَأنْدُبهُ بالدَّمع طَوْرًا وبالدَّمِ
وأحمدُ مَن أبْلى شَبابى بحبكم عَلى البؤسِ والسَّرَّاءِ حين التنعُّمِ
وبعدُ فَقَدْ والله يا سُولَ عبدِها ومولاته أنضَجْت أحشائى فاعْلَمِ

٣٨ — *ومما ضمنوه كتبهم من السلام*

وجعلوه تِلوًا للشعر والنّظام

عليكِ سلامٌ لاسلامُ مُودِّعٍ ولكنْ سلامٌ لم يكن آخرَ العَهْدِ
سلامَ مُحِبٍّ خانهُ حُسْنُ صَبْرِهِ فأصبَح فى كَرْبِ الحياةِ وفى جَهْدِ
آخر: عليكِ سلامُ الله ماهبَّت الصَّبا وماقَرْقَرَ القُمْرِيُّ فى وَرَقِ السِّدْرِ (٢)
سلامُ سقيمٍ مُدْنَفِ القلبِ مُقْرَحٍ مَشُومٍ عليلٍ مُشعَلِ القَلْبِ بالجَمْرِ
آخر: عليكِ سلامُ الله مالاحَ كَوْكَبٌ لِسارى الليل واستوسَقَ البَدْرُ (٣)
سلامُ غريبٍ شَفَّهُ الوجدُ والهوى وبَلَّ حشاه الهمُّ والذِّكْرُ والعُسْرُ
آخر: عليكِ سلامُ الله هل أنا ميتٌ بداءِ هَوَاتِيكِ الشَّقِيِّ المقلقلِ
فعيشى بخيرٍ واسلَمِي ليس حبُّكم ولاالوجْد عنى ماحييتُ بمُنْجَلِي

---

(١) الميسم : الحسن والجمال .
(٢) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق . قرقر : ردد صوته . القمرى : ضرب من الحمام . السدر : شجر النبق .
(٣) استوسق : اجتمع .

آخر: عليكِ سلامُ الله أمّا قلوبُنا | فمَرْضَى وأمّا وُدُّنا فصَحيحُ
نبيتُ بوُدٍّ خالصٍ وصبابةٍ | ونَغدُو بحبٍّ صادقٍ ونروحُ

آخر: عليكِ سلامُ الله قد شَطَّتِ النّوى | وقد كدتُ ألقَى اللهَ من كَمَدٍ جَهْدًا
أموتُ بوجدٍ مضمَرٍ وَصبابةٍ | وأزداد إنْ زدتم على نأْيِكم صَدًّا

آخر: عليكِ سلامُ الله قد متُّ صَبْوَةً | ومالى عَزاءٌ مذ نأيتِ ولا صَبْرُ
أرَى الصبرَ عنكم كاسْمِهِ مذ نأيتمُ | فقد وجَلالِ الله ضاق به الصَّدرُ

آخر: عليكِ سَلام الله قلبي مُتَوَّقٌ | وجسمى نحيلٌ والمدامع تَذرِفُ[1]
ومثلُ الهوى أضنَى الحشا و بمثل ما | يليتُ به تَنكَى القلوبُ وتشعَفُ[2]

آخر: عليكِ سلامُ الله قدرَ صَبابتى | إليك وشوقى أنّنى مُدْنَفُ القَلبِ
أبيتُ حليفَ الهمِّ والوجدِ والأسَى | رَهينَ يدِ الأحزانِ والشّوقِ والكَرْبِ

آخر: عليكِ سلامُ الله ماحَنَّ آلفٌ | وما اشتاق ذُو وَجْدٍ وما طَلَعَ الفَجرُ
ســــلامُ مَشُوقٍ نحوكم متطلّعٍ | أخى حَسَراتٍ خانه فيكمُ الصّبرُ

٣٩ — باب ما كتبوه على العنوانات وسلكوا به سبيل المداعبات

إلى سِتّى وَمالِكَتِي وَرُوحى | مِن الجَسَدِ الطَّريحِ بغَيرِ روحِ

آخر: إلى الشّمس المنيرة حين تبدو | غداةَ الدّجْنِ من بَيْنِ الغُيومِ[3]
من الصَّبِّ الكئيبِ أخى التّصَابى | حَليفِ الشّوقِ مُحْتَبِسِ الغُمومِ

آخر: من الدّنفِ الذى يَضحِي حزينًا | وبين ضُلوعِهِ قلبٌ مُصَابُ

---

(١) متوق: مشتاق.
(٢) تنكى: تقهر بالقتل والجرح. شعفه الحب: غشى قلبه وغلبه.
(٣) الدجن: المطر الشديد.

إلى الخَوْدِ التى أبْلَتْ شَبابى ... فأضحى ما يَسيغُ لىَ الشرابُ[1]

آخر: منّى إلى قلبى ولم أر كاتبا ... يخط بأقلام إلى قلبه قَبْلى

أرَى كلَّ شىء باليا متغيّرا ... وحُبُّكِ لا يَبْلى ولكنّه يُبْلى

آخر: منّى إليكِ فإنّى هائم دَنِفُ ... حِلفُ السّقام بَرانى الشوقُ والأسفُ

النّفسُ ذاهبَةٌ والعقلُ مختلسٌ ... والقلبُ محتبسٌ والرُّوحُ مختطف

آخر: منّى إليكِ فما وَجْدى بمنصَرِمٍ ... حتّى الممات وما قلبى بمعذور

ولو رأيتُك يومًا لانقضَى حَزَنى ... وعادَ عَيشِى صفوًا بعد تكدير

آخر: منّى إليكِ فإنّى هائمٌ قَلِقٌ ... حَليفُ هَمٍّ قرينَ العين بالسَّهَدِ

الله يعلمُ مابالقلب من قَلَقٍ ... اذا نأَيْتِ وما ألقاهُ كَمَدِ

وقد مضى من هذا الباب ما فيه كفاية ، ولو ذهبت الى تطويله لم يكن لآخره نهاية ، وقد أحببت أن أختم كتابنا بأشياء يستحسنها الظرفاء ، ويميل اليها الأدباء ، مما يكتب على الأقلام من النُّتَف[2] ، ومليح المقطّعات والطُّرف ، وأنا ذاكر فى ذلك بعض ما استحسنته ، وملحا مما استرقته ، إن شاء الله .

قد جمعنا فى هذا الفصل أشياء من مستظرفات الأشعار ، ومستحسن الأخبار . ومنتخلِ[3] الأبيات ، ومنتخب المقطّعات ، ونوادر الأمثال ، ومُلَح الكلام ، الذى يجوز كتابُه على الفصوص والتفّاح ، والقنانىّ والأقداح ، وفى ذيُول الأقمصة والأعلام ، وطُرُز الأردية والكمام والقلانس

---

(١) الخود : الصبية .

(٢) النتف : جمع النتفة ، وهى من الشىء : القليل منه .

(٣) المتنخل : أفضل ما يختار .

والكرازن ، والعصائب ، والتكك ، والوقايات ، وعلى المناديل والوسائد، والمخادّ والمقاعد، والمناصّ، والحلل، والأسرّة والتكك، والرفارف ووجوه المستنظرات ، وفى المجالس والايوانات ، وصدور البيوت والقباب ، وعلى الستور والأبواب ، والنعال السندية. والخفاف الزنانية ، وعلى الجباه والطرر ، وعلى الخدود بالغالية والعنبر، وعلى الوطأة والوشاح ، وفى تفليج الأترجّ والتفاح ، ومّما يُعدل به من تنضيد الورد والياسمين ، ويكتب على أوانى الذهب والفضّة والسّكاكين ؛ وقضبان الخيزران المدهونة ، والمخادّ الصينية ، والمراوح والمذابّ ، والعيدان والمضارب ، والطبول والمعازف ، وَالنايات ، وَالأقلام ، وَالدنانير والدراهم ، وجعلنا ذلك أبوابا مبوبة ، وحدودا مبيّنة ، لتقف على أصولها ، وَتبين حسن فصولها .

٤٠ — باب ما يكتب على الفصوص

نقش بعض الظرفاء الصوفيّة على خاتمه :

أنا لله وبالله أنا   أنا والله مقرٌّ بالفَنَا

آخر : قد فاز بالطاعة مَنْ نالها   نعمّتِ الطّاعةُ عُمّالهَا

آخر : أعددْت لِذَنبي   حسْن ظنى بربّى

آخر : خَتَمَ الله بخيرٍ عَمَلِي   وتَوَفّانى على حبّ عَلِي

آخر : حُبُّ على بن أبى طالب   فَرضٌ على الشاهِدِ والغائبِ

آخر : بحبّ آلِ مُحَمّـدٍ   ألقى إلٰهَ مُحَمّـدِ

آخر : أنا بالله قانعُ   إنّ رَبّى لَصَانعُ

آخر : أنا بالله واثقُ   إن رَبّى لرَازقُ

آخر : أتركانى والمعَاصِى   وعلى الله خَلَاصِى

آخر : ما علينا من جُناحٍ في هوَى البيضِ المِلاحِ

آخر : أُحِبُّ مَنْ يَهْوَانِي بِرَغْمِ مَنْ يَنْهَانِي

آخر : آفةُ عقلِي بَصَرِي وَلَهُ عَقلِي نَظَرِي

آخر : تحت ثيابي بَدَنٌ ناحِلٌ وفي فُؤادي شُغُلٌ شاغِلٌ

آخر : أمسيتُ عَبْدًا لكَ لا أجْحَدُ أنا مُقِرٌّ والهوى يَشْهَد

آخر : أنا مَوْلًى لِأَهْلِ هَلْ مَنْ تَوَالاهُمْ عَقَلْ

يعني : هل أتى على الانسان ، لأنها نزلت في علي .

وعما ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم

القناعةُ خير من الضَّراعة .

التقلُّل خير من التذلُّل .

السّلامة خير من النَّدامة .

الأَسَفُ أهوَنُ من التكلُّف .

بادِرِ الفُرْصَةَ قَبلَ أن تكون الغُصَّة[1] .

الهَرَبُ قَبل الطلَب .

الفرار قبل الحِصار .

الرُّجُوع قبل الوُقوع .

وفي ضرب آخر

لكلّ حقّ حقيقة ، ولكلّ زمان خليقَة .

القصد[2] أقربُ من التَّعَسُّف[3] ، الكفُّ أحْرى من التكلُّف .

(١) الغصة : الحزن ، الهم .

(٢) القصد : نقيض الإفراط .

(٣) التعسف : الظلم .

الموت معتبَرٌ ، والسبيل محتضَر
الحقُّ يُنجي ، والباطلُ يُردي
النُّصحُ ملامة ، والتَّصريحُ سلَامة
الأمَلُ يَلوِي ، والشيطان يغوى
لكلّ امرىءٍ طريقَةٌ ، ولكلٍّ عامل وثيقة .
بطولِ التَّجارِب ، يُكشَف المآرب
طُولُ الاعتبار ، من حُسْنِ الاختبار
فوْتُ الأمَل ، أشدُّ من حضور الأجل .

وعما ينقشه أهل الهوى على خواتيمهم

مَنْ كَثرت لحظاته ، دامتْ حسراتُه
مَنْ تَداوَى بِدائه ، لم يَصِلْ الى شِفائه
مَنْ قَدَّمَ هواهُ ، دَامَ أساه[1]
العقل عند الهوى أسير ، والشّوقُ عليهما أمير
إذا كثُر الجفاء ، قلَّ الوفاء
إذا صحّ الظفَر[2] ، وقعتْ الغِيَر[3] .
اذا صحّت القُلوب ، اغتُفرت الذّنوب .
قَلَّ من سلا ، الا استفزَّه الهوى.
مَنْ مُنِـعَ مِنَ النَّظَرِ ، اقتصَر على الأثَر
مَنْ مُنِـعَ مِنَ الوِصَالِ ، قَنِـعَ بالخَيال .

---

(١) الأسى : الحزن
(٢) الظفر : الفوز والغلبة .
(٣) غير الدهر : أحداثه .

وفى ضرب آخر

الْحَيْنُ ، خير من الْبَيْن[1] .

القبرُ ، أفسحُ من الهَجْرِ .

المَوْتُ ، خير من الفَوْت

غُصَصُ الفراق ، شَرٌّ من السِّباق

كأس الهَجْر ، أمرُّ من الصَّبْر

طُولُ الجفاء ، يُكدِّر الصفاء

حُسْن الوفاء ، رُكن الاخاء

آفةُ الحبيب ، نَظَر الرَّقيب

آفةُ الغزَل ، سُرْعَة المَلَل

الهَوَى ، ثَوْبُ الضَّنَى

ذَهَبَ الفِرَاق ، بحِيلةِ العشَّاق

وفى ضرب منه آخر

حَفِى فَلَفِيَ ، أَلِفَ فَتَلِفَ ، حَنَّ فَأَنَّ ، حَظِي فَرَضِيَ ، عَشِق فَزَهِق ، هَوِى فَضَنِيَ ، صُرِمَ فَظَلَم ، صَدَّ فَجَدَّ . صَبَر فقَدَر ، مُنِعَ فَجَزِع ، نال فاستطال ، باح فاستراح ، سَلا فَمَلا ، مَلَكَ فَفتَك ، عَدَل فَقَتَل ، عَفَّ فَكفَّ

وكان الحَسَن بن وهب تعشق جارية يقال لها : ناعم ، فَنَكَسَ[2] اسمها ، ونقش على خاتمه مُعان ، وذكر ذلك فى أبيات يقول فيها

نَقَشْتُ مَعَانًا على خَاتَمِى ... لِكَيْمَا أُعَانَ عَلَى ظَالمِي

---

(١) الحين : الهلاك . البين : الفرقة .

(٢) نكس : قلبه على رأسه وجعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره .

كذا اسمُ مَنْ هَامَ قَلبي بهِ … وأصْبَحَ فى حالةِ الهَائِمِ
نَكَسْت الهجاءَ فأعْلَنْتُـه … بِطرْفى ليخفى على الحازِمِ

وكان محمد بن عبدالملك الزيات يحبّ بعض جوارى القيان ، ثم تنكّر لها ، فكَتبت على خاتم لفظًا تعرِّض له بالعتاب ، فبلغه ذلك ، فكتب على خاتمه ضدّ ما كتبت ، فبلغها فمحَتْ ما كان على خاتمها ، وكتبت ضد ما كتب ، فبلغه ذلك ، فمحا ما كان على خاتمه ، وكتب ضدّ ذلك فى أبيات يقول فيها :

كَتَبَتْ عَلَى فصٍّ لِخَاتَمِهَا … مَنْ مَلَّ من أحْبابه رَقَدَا
فكتبت فى فَصٍّ ليَبْلُغَهَا … مَن نام لم يَشْعُرْ بِمَنْ سَهِدَا
فمحَتْهُ واكْتَتَبَتْ ليبْلُغَنى … ما نام مَنْ يَهْوى ولا هَجَدَا[1]
فمَحَوْتُه ثم اكْتَتَبْتُ أنا … واللهِ أوَّلُ ميِّت كَمَدَا
قالت : يُعَارِضُنِى بخاتَمِهِ … واللهِ لا كلَّمْتُـهُ أبدًا

٤١ — باب ما وجد على التفاح

من الألفاظ الملاح

قرأتُ على تفّاحة مكتوبا بماء الذهب :

قبلَ تُهْدُونِى فخطُّوا … فِيَّ سَطرًا مِنْ ذَهَبْ
إنَّنِى أعطِفُ مَنْ صَـدَّ لِيَصْفِى ذَا كَرَبْ

وعلى أخرى بالفضة :

لَيسَ شَيْءٌ يُتَهَـادى … مِثْلَ تفَّاحٍ مُكَتَّبْ
خُطَّ بالفضـة (مِنْ نِبْـراسِ) بِحَرِيرٍ مُذْهَبْ[2]

---

(١) هجد : نام بالليل .
(٢) بياض بالأصل وقد أكملناه بما يتفق والمعنى .

يا مُنَى قَلْبِيَ مَا تَرْ ثِي لِذِي عشقٍ مُعَذَّبْ

وعلى أخرى: أنا لِلأَحْبَابِ بالسِّرِّ وبالوصل رَسُول
أَتَهَادَى فأَرِقُّ الْقَلْبَ وَالقَلْبُ مَلُولُ

وعلى أخرى: واذا ما مُرْسِلٌ نَمَّ فما أنتِ نَمُومَهْ
أنتِ رَيْحَانَةُ قلبي ثُمَّ للسِّرِّ كَتُومَهْ

وعلى أخرى: أنا شَمَّامَةُ الكَرِيم أَنِيسٌ) لِجَلِيسِهْ[1]
وَرَسُولٌ مُبَارَكٌ مُذْهِبٌ صَدَّ مُؤْنِسِهْ

وعلى أخرى: إشْرَب على حُمْرَةِ تفاحٍ ياءُؤْنسى مِنْ بَارِدِ الرَّاحِ
حَيَّاكَ معشوقٌ لهُ زهْرَةٌ وقينةٌ بالعودِ مِفصَاحِ

وعلى أخرى: ما تَحَيَّا ببلاءِ النَّاسِ مُذْ كَانوا بِمِثْلى
لِيَ طِيبٌ وَبَقَاءٌ وَمَلَاحَاتٌ تُسَلِّي

وعلى أخرى: لِي طَرَاوَاتٌ وريحٌ ثُمَّ ماءٌ ونَضَارَهْ
ليس للياقوت فضلٌ كلُّ ياقوتٍ حِجَارَهْ

وعلى أخرى: جَرَحَ الله الذى يَجْرَحُ بالسِّكِّينِ لَحْمِي
فَلَجوا حامضةً إنِّى كَمِثْلِ الشُّهْدِ طَعْمِي

وعلى الأخرى: أنا حَمْرَاءُ دَعونِي لِمُحِبٍّ وحَبِيبِ
وكلوا ذاتَ بَيَاضٍ أَكْلُهَا غير مَعِيبِ

وعلى الأخرى: حَيَّاكِ إنسانٌ لهُ رَوْنَقٌ نَوَّارةٌ دَانِيَةٌ تَزْهَرُ
تُفاحةٌ حَمْرَاءُ منقوشةٌ تَخْجَلُ من حُمْرَتِها الجَوْهَرُ

---

(١) بياض بالأصل وقد أكملناه بما يتفق والمعنى .

٤٢ — باب ما وجد على ذيول الأقمصة والأعلام وطرز الأردية والأكمام

قال الماوردى : رأيت جارية ، ونحن عند محمد بن عمرو بن مَسْعَدة ، لم أشكَّ أنّه عاشقٌ لها واليها مائل ، لما رأيت من حركاته اذا نظرتْ ، وسروره إذا نطقتْ ، وتهلله إذا غنّت ، وكانت فوق وصف الواصف من الحسن والجمال ، وعليها قميص موشّح بالها ، ورداء معيَّن ، مكتوب فى وشاح القميص :

أغِيب عنكَ بوُدٍّ لا يُغَيِّرُهُ نأىُ المحلِّ ولاصرفٌ مِنَ الزَّمَنِ[1]
تَعَلَّلْ بالشُّغْلِ عنَّا ما تُكلِّمُنا الشُّغْل للقَلْب ليس الشغل لِلْبَدَنِ

وعلى طِراز الرداء :

أَقَلُّ النَّاسِ فى الدُّنيا سرورًا مُحِبٌّ قَدْ نأى عَنْه الحَبيبُ

قال : ورأيت جارية لبعض الهاشميين يقال لها : عَرِيب ، عليها يص ملحم ، موشّح بالذّهب ، مكتوب فى وشاحه :

وإنِّى لأهْواه مُسِيئًا ومحْسِنًا وأَقْضِى على قلبى له بالذى يَقْضِى
فحتَّى مَتَى رَوْحُ الرِّضَى لا ينَالُنى وحتّى مَتَى أيّام سخْطِكَ لاتَمْضِى[2]

وعلى طراز كُمِّه :

إذا صدَّ مَنْ أَهْوَى وأَسْلَنِى الغَرَى فَفرْقَة مَنْ أهوَى أحرُّ من الجمر

ورأيت على ماجن ، جارية مكاتم المغنية ، قميصا فى وشاحه بالذهب :

زَفَرَاتِى ليس تَفْنَى وفؤادى بكَ مضنَى

---

(١) صرف الدهر وصروفه : نوائبة وحدثانه .

(٢) الروح : الراحة ، والرحة .

أتَرَضَّاك وأُبدِى لك (حِبًّا ذاق غِبًّا)[1]

بأبى كم أتمنى وإلى كم أتمنى

بعد ما أصبح قلبى فى يد الأحرار رَهْنا

قال : ورأيت فى صدر قميص جارية تباريح الكوفية ، مكتوبا بالفضة والذهب سطرا وسطرا :

يافتى قلتُ إذ دعانى هواه مُستجيبًا لِصوته لبَّيكا

ما بَكَت مُقلتى لِفقدِك إلّا جزَعًا أنْ أموتَ شوقًا إليكا

قال . ورأيت مرة أخرى عليها دُرّاعة ملحم بترانين أبريسم ، ولِبنة سُوسَنْجِرْد ، وفى دَوْر اللِّبنة مكتوب .

يا راميا ليس يَدرى ما الذى فعَلا أَمسِكْ عليك فانّ السَّهم قد قتَلا

أصبتَ أسْوَدَ قلبى إذ رَميتَ فلا شُلَّتْ يمينك أن صيَّرتنى مثَلا

وكتبت بُنان جارية الخيزُران على ترانين دُرّاعة لها بذهب :

لم تقُلْ قولًا ولكن حلَفتْ أنها أحسَن عينٍ أطرَقتْ

زعمتْ أنّىَ قد لاحظتُها أىُّ عينٍ لحَظتْ فاعترَفتْ

أظهرَتْ حجةَ من يعشقُها واستباحتْ غفلةً وانصرفتْ

وعلى طراز كُمّها :

ليس بى صبرٌ ولا بى جَلَدٌ قد نَفَى حبُّك عنّى جَلَدِى

وأخبرنى بعض أصحابنا قال : أخبرنى من رأى فى ذيل جارية الحسن بن قارن منسوجا فى العَلَم :

---

(١) بياض بالأصل وقد أكملناه بما يتفق مع المعنى .

أحسن ما قد خلق الله وما لم يخلقه
شكوى فتاة وفتى يعشقها وتعشقه
نار الهوى دانية تحرقها وتحرقه
يا حبذا الحب إذا دام ودامت حرقه

وكتبت راهي، جارية الأحدب، قبل أن يشتريها اسحاق بن ابراهيم الموصلي، على وشاح قميصها:

اذا وجدت لهيب الشوق فى كبدى أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبنى طفئت ببرد الماء ظاهره فمن لحر على الأحشاء يتقد

وكتبت جارية لقبيحة على رداء لها رشيدى:

أراهم يأمرون بقطع وصلى مريهم فى أحبتهم بذاك
فإن هم طاوعوك فطاوعيهم وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وكتبت جارية أبى حرب على رداء لها ممسك:

من ألف الحب بكى من شفه الشوق شكا
من غاب عنه إلفه أو صد عنه هلكا
يا مالكا عذبنى بجوره إذ ملكا
رفقا بمملوكك ما يحل ذا الظلم لكا

وكتب بعض الظرفاء على طراز مطرف خز:

وهبت شمال آخر الليل قرة ولا ثوب إلا بردها وردائيا[1]
فما زال ثوبى طيبا من ثيابها إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا[2]

---

(١) ليلة قرة: باردة. البرد: ثوب مخطط. (٢) أنهج الثوب: بلى.

وكتبت دبسيّة جارية زُرْزُور على قباء معصفر :

وما البدرُ المنـيرُ اذا تجلّى هُدُوًّا حـين ينزل بالعراق
بأحسنَ مِن بُثينةَ يومَ قامتْ تَهادَى فى مُعَصْفَرةٍ رِقاقِ

٤٣ — باب ما وجد على الكرازين والعصائب ومشادّ الطُّرَر والذوائب

وكتبت عَلَلُ على قَلَنْسُوَة لها ديباج(١) ، وهى جارية محمد بن المأمون :

ما يَمَلُّ الحبيب طولَ التجنّى لِبَلائِى به ولا الصّدَّ عنّى
كلَّ يوم يقول لى كذبتَ يتجنّى ولا يرى ذاك مِنّى
ربّما جئته لأسلفه العُـذْ رَلبعضِ الذُّنوب قبل التجنّى

وكتبت جارية المارقىّ على قَلَنْسُوَة لها بذهب :

كَتَبَ الشّوْق فى فؤادى كتابًا هوَ بالشّوق والهوى مَخْتُوم
رَحِمَ الله مَعْشَرًا فارَقُونى لا يُطيعون فى الهوى مَنْ يَلوم
ساق طرْفى الى فؤادى بَلائى إنّ طَرْفى على فؤادى مَشُوم

وكان على قَلَنْسُوَة جارية محمد بن سعيد الفارسى مكتوبا :

أنا بعد القضاء سُمْتُ فؤادى وأصبت الغداةَ عَيْنِى بِعَيْنِى
لم تزَلْ بى حوادث الدّهر حتّى فَرّقَتْ بين من أحِبُّ وَبَيْنِى

وكتبت جارية الُحباب على قَلَنْسُوَتها :

الله يَحفظَه على شَحطِ النّوَى ما كان أوْصَلَه إلى تَعْذِيبِهِ

---

(١) القلنسوة : نوع من ملابس الرأس ، وهو على هيئات متعددة . الديباج : الثوب الذى سداه ولحمته حرير .

وكتبت جارية ابن السُّلَمِيِّ على كُرْزَنها[1] :

الشمس تطلع للمَغيبِ ولا أرى ... شوقى إليكِ على الزمان يَغيبُ

وكتبت بُنان الشاعرة على قَلَنْسوَة لجاريتها :

إن كنتَ خُنْتَ ولم أُضمِرْ خيانتكم ... فالله يأخذ مِمَّنْ خانَ أوْ ظَلَمَا

سماحةً من مُحِبٍّ خان صاحِبُه ... ماخان قَطُّ محبٌّ يَعرف الكَرَمَا

والله لا نَظَرَتْ عينى إليك ولا ... سالَتْ مسارِبُها شوقًا إليك دَمَا[2]

وقال الجاحظ : رأيت نَشوان ، جارية زَلزَلْ ، وعليها عصابة مكتوب عليها :

عينٌ مسهَّدةٌ فى مائها غَرِقتْ ... ياليتها ذهبتْ لو لَمْ تكن خُلقَتْ

لم تَذْهَبِ النفس إلّا عند لحظتها ... ولا بَكَتْ بدمٍ إلّا لِمَا أرقَت

يا مُقلَةً سوف أبكيها ويا كَبِدًا ... بها أحاطَ الهوى والشوق فاحترَقَتْ

وكان على كُرْزَنها :

الحبُّ يُعرَف فى وجوه ذَوِى الهوَى ... باللَّحْظِ قبل تَصَافُحِ الأجفَانِ

قال : ورأيت على قَلَنْسوَة تَبارِيح :

أهْلُ الهوَى فى الأرض تلقاهُمُ ... يَمشون أحياءً كأمواتِ

وكتبت شادِن ، جارية خنث قيّمة جوارى المأمون ، على وِقاية تجمع بها ذوائبها :

بيضاءُ تَسْحَب من قِيامٍ فَرْعَهَا ... وتَغيب فيه وهوَ جَثْلٌ أسْحَمُ[3]

فكأنها فيه نهارٌ مُشرِقٌ ... وكأنّه ليلٌ عليها مظلِمُ

---

(١) الكرزن : تاج ملوك فارس وهو مرصع بالذهب والجواهر .

(٢) المسارب : جمع المسربة : مجرى الدمع .

(٣) فرع المرأة . شعرها . جثل الشعر : كثر والتف واسود . أسحم : أسود .

وقال على بن الجهم : حضرت مجلس بعض الظرفاء ، فخرجت علينا جارية كأنها تمثال ، وَعليها عصابة قد أرسلت لها طرفين ، على صدرها مكتوب :

مَنْ يكن صَبًّا وَفِيًّا فَزِمَامِى فى يَدَيْهِ
خُذْ مَليكى بعنانى لا أُنازعكَ عَلَيْهِ

قال : فوثبتُ فأخذتُ بطرفَى العصابة وقلت : أنا وَالله صبٌّ ، وَأوفى خلق الله لمحبٍّ ، قالت : إنه لابد للفرس من سوط ، قلت : ياغلام ، هات السوط ، قالت : هيهات إذاك سوط الدّواب ، وَسوط مثلى شِيبُه[1] فضة وَعِلاَقته ذهب .

وكان على قَلَنْسوَة زَيْنَ مغنّية اسماعيل :

أُقِيمُ على الآصال منتظرًا لها وَقد أَشْرَفت من هَوْل ذاك على نحبى
أَموت وَأَسْتَحْيِي الهوى أَن أُذُمَّه وَإن كنتُ منه فى عناءٍ وَفى كَرْبِ

وَقال الزبير بن بكار : رأَيت على قلنسوة بعض المغنّيات :

أَدْمَيْتَ باللحظاتِ وَجْنَتَها فاقتصَّ ناظِرُها من القَلْبِ

وَعلى عصابتها :

فاذا نظرتَ إلى محاسِنِها أَخرجتَها عطلاً مِن الذنبِ

وَقال الماوَردى : رأَيت جارية لبعض وَلد المأمون ، وَعليها قَلَنسوَة عليها مكتوب :

يا تاركَ الجسم بلا قَلْبِ إن كان يهواكَ فما ذَنبى
يا مفرَدًا بالحسْنِ أَفردتَنِى منك بطول الشوق وَالكَرْب

وَعلى كَرْزَن لها :

أَنا العبد المقرُّ بطول رقٍّ وَليس عليك من عبدٍ خِلاَفُ

---

(١) الشيب : سير السوط .

قال : ورأيتُ على جاريةٍ لاهي كُرْزنا مكتوبا عليه :

عَـذَّبَه بالهجـر مَولاهُ وَزادَهُ شَوْقًا وَأضنَاه

فَدَمعُه يجرى على خَـدِّهِ ولم تَنَمْ لِلوَجْـدِ عينـاه

قد كتب الحبُّ على قلبه: مُتْ كَمدًا يَرْحَمُـكَ اللهُ

وكتبت جارية لعيسى بن جعفر بن المنصور، وكانت قيّمة له، على كُرْزَنها :

ليتَ النِّقَابَ على القِباحِ مُحَرَّمٌ وَعلى المِلاح خطيئَةٌ لا تُغتَفَرُ

وكتبت على وقاية تجمع بها ضفائرها :

جَزَى اللهُ البَرَاقِـعَ من ثيابٍ عن العَيْنَـيْنِ شَرًّا ما بَقِينَا

يُغطِّينَ المِـلاحَ فـلا تَرَاهُمْ وَيَسْتُرْنَ القِبـاحَ فَيَسْتَوِينَا

وكتبت عارم، جارية جَنَاح، على كُرْزَنهـا ، وكانت تتعشق بعض ولد الحسن بن وهب :

وإنّى لأَخلُو مذ فقدتُكَ دائبًا فأنقشُ تِمثَالاً لِوَجْهِكَ فى التُّرْبِ

فأَسقِيه من دَمْعِى وَأبكى تضرُّعًا إليه كما يبكى العبيدُ إلى الرَّبِّ

وكتبت ابنة الرُّصافية، وكانت تتعشق ابن الرشيد، على كُرْزَنها :

قالوا: عليك سبيلُ الصَّبْرِ، قلتُ لهم: هيهاتَ أين سبيلُ الصَّبْرِ قد ضاقا؟

ما يرجع الطَّرْف عنه حين يُبصِرُه حتى يعود اليـه الطرفُ مُشْـتاقا

قال الفضـل بن الربيع : قال أبى : رأيت على عصابة دبْسيّه جارية أبى حَرْب :

مَحاسِنُ وَجْـهِك تَمحو الذُّنوبَا وتَعْمل فى القـلب شيئًا عَجيبًا

فمِن ثَمَّ تهجُرنى ظالِمـا تجَنَّى وتُحصِى عَلىَّ الذُّنوبا

وكتبت شمسة الطنبورية على عصابتها ، وكانت تغنّي الرشيد :

لا لِصَبرٍ هجرتُكُمْ عَلِمَ اللّـــه ولكن لِشِدَّةِ الإشتياقِ
رُبَّ سِرٍّ شاركتُ فيه ضميري وطَوَاه اللِّسانُ عند التّلاقى

وكان على قَلَنسوَة شمائل جارية الماهانيّة :

لَيْلِي بوَجْهِكَ مُشرِقٌ وظَلامُه فى اللَّيل سَارِى
فالنّاسُ فى سَدَفِ الظَّلاَ مِ ونحن فى ضَوْءِ النَّهارِ[1]

وكان على كَرْزَن مُشتاق ،جارية اسحاق بن على الهاشمى ، مكتوبا بالذهب سطران :

إنْ كان قلبي يهوى وَصْلَ غيرِكُمُ إذًا فعاقبنى الرحمنُ فى بَصَرِى
أوْ لم يكن بِكُمُ ماعِشتُ ذَا كَلَفٍ فأنزَلَ اللهُ بى ياسيّدِى خَدَرِى[2]

وكان على عصابتها مكتوبا بالذهب :

ما كنتَ إلاّ حُلُمًا رَأَته عينى فى الوَسَنْ[3]
يا سَمِحَ الفِعْلِ وَيَا أحْسَنَ مِنْ كلِّ حَسَنْ

٤٤ — باب ما وجد على الزنانير والتّكك والمناديل

قال علىّ بن الجهم : رأيت فى منطقة واجد الكوفيّة زُنّارا[4] منسوجا مكتوب فيه :

لستُ أدرِى أطالَ لَيلِىَ أمْ لاَ كيف يدرى بذاكَ مَنْ يَتقَلّى[5]

(١) السدف : الظلمة . (٢) الخدر : تشنج يصيب العضو فلا يستطيع الحركة .
(٣) الوسن : النعاس . (٤) الزنار: مايشد على الوسط . (٥) تقلى على فراشه : تململ .

لو تفرغتُ لاستطالةِ ليْـــلى ولِرَعْيِ النُّجومِ كنتُ مُخَلاَّ

ورأيتُ جارية فى بيعة مارى مَرْيَمَ فى دار الروميّين بمدينة السلام، كأنها فلقة قمر خارجة من الهيكل ، فى وسطها زُنّار عليه بيتان :

زُنّارُها فى خَصْرِها يَطْرَبُ وريحها من طِيبها أطْيَبُ

وَوَجْهُها أحْسنُ من حَلْيِهـــا ولونُها من لونِهـا أعْجَبُ

وقرأت فى زُنّار وقاية لبعض القصريّات :

أليس عجيبـــاً أنّ بيتاً يضمُّنِي وإيّاكَ لا نَخْلُو ولا نَتَـكَلَّمُ

ورأيت جارية أُبليّـة لبعض المخنثين ، وقد علقت طبلا فى عنقها بزُنّار عليه مكتوب:

آوّتا مِنْ بَدَنِى كلِّهِ فُتُّتَ مِنّى مَفصِلاً مفصِلاَ

وعلى تكّتها مكتوب :

غَابوا فأضْحَى الجِسْمُ مِن بَعْدِهِمْ لا تُبْصِرُ العَــيْنُ له فَيّـا[1]

واخجلتا منهم ومن قَوْلِهِمْ : ما ضَرَّكَ البُعْـدُ لَنَـــا شَيّا

بِأىِّ وَجْــــهٍ أتَلَقّـاهُمْ إذَا رَأوْنِى بَعْـدَهُمْ حَيّـا

وكان على تـكّة هاتف جارية العاجىّ مكتوباً :

ولى عَاذِلٌ قد شَفَّ قلبى بِعَذْلِهِ وواشٍ بِنَبْلِ الحُبِّ يرمى مَقَاتِلى

كَفَى حَزَنًا، والحمد لله، أنَّنِى تَقَطَّعَ قلبى بين واشٍ وعاذِلِ

وكتبت خاضِـع المغنّية على زنار كانت تشدّ به طُرّتها :

ما أتيَهَ المعشوقَ فى نفسه وأبينَ الذُّلَّ على العاشِق

---

(١) الفىء : الظل .

وأخبرنى من قرأ على طرفى تكّة لقينة :

ما أرانى حُلتِ التّكـ ـةَ إلاّ لِهَنَاتِ
وَإنّمَا خُلّىَ لِلتّكـ ـةِ إنجازُ العِدَاتِ

وأخبرنى آخر أنه قرأ على تكّة لبعض المواجن :

إقطَعِ التّكةَ حَتّى تَذهَبَ التّكّةُ أصْلَا
ثمّ قُلْ للرّدفِ أهْلاً بك يا ردفُ وَسَهْلَا

وكتبت سلم جارية لمم إلى فتى كانت تحبّه فى منديل دبيقىّ بالذّهب :

هَأَنَذَا يُسْقِطُنِى لِلبِلَى عَنْ فرُشى أنفاسُ عُوّادِى
لوْ يجدِ السِّلْكَ عَلَى دِقّـــةٍ خَلقًا لَأَضْحَى بعْضَ حُسّادِى

وكتبت اليه فى منديل آخر :

لاتَسْأَلِى كَيْفَ حالى بعد فُرْقَتِكُمْ هَا فانظُرِى وأجِلّى طَرْفَ مُمْتَحِنِ
ترى بِلًى لم يَدَعْ مِنّى سِوَى شَبَحٍ لوْ لم أقُلْ هَأَنا للنّاس لم أبِنِ

وقرأت على منديل لبعض الظرفاء ، وقد أدرج فيه كتابا :

وإنى لتَغْشَانِى لِذِكْرَاكِ فَتْرَةٌ كماانتَفَضَ العصفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ
عَجِبتُ لِسَعْىِ الدّهرِ بَيْنِى وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انقضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدّهرُ

وكتب آخر على منديل :

إنّ بَعضَ العِتَابِ يَدْعُو إلَى العَتْـــبِ وَيُودِى به الحبيبُ الحَبِيبَا
واذا ما القلوبُ لم تُضمِرِ الْـــحُبّ فَلَنْ يَعطِفَ العِتَابُ القُلُوبَا

وأخبرنى من رأى على منديل مسّك لبعض الظراف :

أنا مبعوثٌ إليكمْ أُنسُ مولاتى لدَيكِ

صَنَعَتْنِي بِيَدَيْهَا فَامْسَحِي بِي شفتَيْكِ

وكتب آخر على منديل أهداه :

أنا منـــديلُ مُحِبٍّ لم يَزَلْ نَاشِفًا بي من دُموعِ مُقْلَتَيْهِ

ثمّ أهداني إلى محبوبةٍ تَمْسَحُ القَهْوَةَ بي مِنْ شَفَتَيْهِ

وقرأت على منديل لبعض الظّراف :

إن يكن حَبْلُكِ من حبلي وَهَى وإلى شَوقي اليك المُنْتَهَى

لم يذكّرنيكِ شَوْقٌ حادثٌ إنما يَذكر من كان سَهَا

وكتبت أَسماء بنت غضيض، جارية حَمْدُونة ابنة المهديّ، على تكّتها من الوجهَيْن :

جلدٌ على أَعظُمٍ دِقاقِ مَسْكَنُ أَنفاسِهِ التّرَاقِي

تُوقَدُ أَحشاؤُه فيُطْفِي حُرْقَتَها هاطِلُ المَـآقِي

لولا تَسَلّيهِ بالتّبَـكّي إذًا جَنَيْنَاه بانْحِـرَاقِ

يارَبِّ عَجِّلْ وَفَاةَ رُوحِي قَبلَ هُجُومِي عَلَى الفِرَاقِ

وكتبت على منديلها :

إليْكَ أَشْكو رَبِّ ما حَلَّ بي مِنْ صَدِّ هَذا العاتِبِ المُذْنِبِ

صَـــدٌّ بِلَا جُرْمٍ، ولو قال لى: لا تَشْرَبِ البـاردَ، لم أَشْرَبِ

وكتب آخر على منديل أهداه:

أَيا مَنْ لا أُرَجِّي مِنـه رِفقًا ولا مِن رِقّـهِ ما عِشْتُ عِتقَا

لقد أَنفدتَ دمعَ العـين حَتّى بكيتَ دما لفَقْدِكَ لَيْسَ يَرْقَا

وكتبت عِنان، جارية النّطاف، على منديل وجّهت به إلى أَبي نواس، وكانت تحبه:

أما يُحسنُ من أحسنَ أن يَغضبَ أن يَرضى
أما يرضى بأن صِرتُ على الأرض له أرضاَ

٤٥ — باب ما وجد على الستور والوسائد والبسط والمرافق والمقاعد

قال عليّ بن الجهم : قرأتُ على سترٍ لبعض أمّهات ولد المأمون :

هجرتنى كَىْ أُجارِيكُمْ بِفِعْلِكُمُ ... لا تَهْجُرِينى فإنّى لا أُجارِيكِ
قلبي مُحِبٌّ لكم راضٍ بفعلكمُ ... إسترزقَ اللهَ قلبٌ لا يُجازيكِ
أصبحتُ عبدًا لأدنَى أهلِ داركمُ ... وكنتُ فيما مضى مولى مَوَاليكِ

وكتب بعض ولد المتوكل على ستره :

يا أيُّها اللائمى فيها لِأَصْرِفَها ... أكثرتَ لو كان يُغنِي عنك إكثارُ
إرجع فلستُ مُطاعًا إن وَشَيْتَ بها ... لا القلبُ سالٍ ولا فى حُبِّها عارُ

وكتب موسى الهادى بن المهدى على ستره :

يا أيُّها الزّاعِمُ الذى زَعَما ... أن الهوى ليس يُورث السَّقَما
لو أن ما بى بك الغداةَ لَمَا ... لُمْتَ مُحِبًّا إذا شكا ألَمَا

وكتب بعض الظرفاء على مِخَدّة له :

يا راقِدَ الليل مِمَّن شَفّهُ السَّقَمُ ... وَهَدّهُ قَلَقُ الأحزانِ والألَمِ
جُدْ بالوِصالِ لِمَنْ أمسيتَ تَمْلِكُهُ ... يا أحسنَ النّاسِ مِن قَرْنٍ إلى قَدَمِ

أخبرنى من قرأ على مخدّة لبعض الظّرفاء :

لم أَذُقْ يا سُولَ قلبي ... للكَرى مُذْ غِبْتَ طَعْمَا
تَرَكَ الدَّمعُ على خدَّ ... ىَّ لَمَّا فاضَ رَسْمَا

وقرأتُ على وسادة لبعض الكتّاب :

تشكَّى المحبُّون الصَّبابَةَ ليتَنِي تحمَّلتُ ما يلقَوْنَ مِنْ بينِهِمْ وَحدي
فكانت لِرُوحِي لذَّةُ الحبِّ وَحدَها فلم يَلقَها قَبلِي محبٌّ ولا بَعدِي

وأخبر بعض الكتاب أنه قرأ على بساط لبعض أهل الهوى :

أحسَنُ مِنْ قَهْوَةٍ وعُودِ تَوْرِيدُ خَدَّيْك يا وَحِيدُ
نَأَيتَ عَنِّي فَذَابَ جِسْمِي وَهَدَّنِي الشّوقُ والصُّدُودُ
وطال سُقْمِي لبُعْدِ حُبِّي ومَلَّنِي الأَهْلُ والبَعِيدُ

وكتب بعض الظرفاء على مصلاه :

وَقَفَ الهَوَى بِي حيثُ أَنْتِ فليس لي متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ
أَجِدُ الملامَةَ في هواكِ لذيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ
وأَهَنْتِنِي فأَهَنْتُ نفسي عامدًا ما مَن يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّن أُكرِمُ
أشبَهْتِ أعْدَائِي فصِرْتُ أُحِبُّهم إذ صارَ حَظِّي مِنكِ حَظِّي مِنْهُم

وكتب سعيد بن قيس على مصلاه :

سأمْنَع عيني أن تَلَذَّ بِنَظْرَةٍ وأُشغِلُها بالدمع عن كلّ مَنظَرِ
وأَشكُرُ قلبي فيك حُسْنَ بَلائِهِ أليس به ألقاكَ عند التَّذَكُّرِ

وكتب بعضهم على بساط :

كتمتُ حبَّهمُ صَوْنًا وتكرِمَةً فما دَرَى غيرُ إضمارِي به وهُمُ
قومٌ بذلتُ لهم صَفوَ الودادِ فما جازَوا عليه ولا كافَوا ولا رَحِموا
هُمْ علّموني البكا لا ذُقتُ فقدَهُمُ ياليتَهم علّموني كيف أبتَسِمُ

٤٦ — باب ماوجد على المناص والحجل[1] والأسرّة والكلل[2]

قرأت على كلّة معصفرة[3] لبعض الكتّاب بالذّهب :

مِنْ قِصَرِ اللّيل إذا زُرْتَنى أبكى وتبكين مِنَ الطُّولِ
عَدُوُّ عينَيْك وشانِيهما أصْبَحَ مشغولاً بِمَشْغُولِ

وأخبرنى بعض الظرفاء أنه قرأ على منصّة لبعض المجّان :

تقول، وقد جرّدْتها مِنْ ثِيابها: ألسْتَ تخافُ اليوْمَ أهْلَكَ أوْ أهْلى؟
فقلْتُ: كِلانا خائفٌ بمكانه، فهل هو إلا قَتْلُكِ اليوْمَ أوْ قَتْلِى!

وقرأت على كِلّة حرير اسمانجونى بالذّهب :

سهرتُ وعانقتها ليلةً على مِثلها يَحْسُدُ الحاسِدُ
كأنّا جميعًا وثوْبُ الدُّجا عَلَيْنَا لِمُبْصِرِنا واحِدُ

وقرأت على كِلّة لبعض الظُّرفاء :

فبِتْنَا على رَغْمِ الحسودِ وبيننا حديثٌ كريحِ المِسْكِ شِيبَ به الخَمْرُ
حديثٌ لَوَ أنّ الميْتَ يُوحَى ببَعْضِهِ لَأصْبَحَ حيًّا بعد ما ضَمّه القَبْرُ

وقرأت على وجه أريكة لبعض الهاشميّين :

جعلْتِ مَحَلّةَ البَلْوَى فؤادى وسلّطْتِ السُّهادَ على رُقادِى
دَعِينى لا أبوحُ بكلِّ وجْدِى أليس النار مِن طرَفَىْ زِنادِى
وبتِّ خليّةً وسلبْتِ نَوْمى أما اسْتَحْيَا رقادُكِ من سُهادى

---

(١) المناص : جمع المنصة : الكرسى ترفع عليها العروس فى جلاتها ، أو الثياب المرفعة والفرش الموطأة . الحجل : جمع الحجلة : الستر يضرب للعروس .

(٢) الكلل : جمع الكلة : الستر الرقيق ، غشاء رقيق يخاط كالبيت يتوقى به من البعوض ، ويعرف بالناموسية .

(٣) عصفر الثوب : صبغه بالعصفر ، وهو صبغ أصفر اللون .

وكتب بعض الظرفاء على حَجَلةٍ له معصفرة بالذّهب :

دعيني أمُتْ والشّملُ لم يَتَشَعَّبِ ولا تبعُدِي أفديكِ بالأُمِّ والأَبِ

سقى اللهُ ليلا ضمَّنا بَعْدَ هَجْعَةٍ وأدنَى فؤادًا من فؤادٍ مُعَذَّبِ

فبِتْنا جميعًا لو تُرَاق زُجاجةٌ من الرّاحِ فيما بيننا لم تُشَرَّبِ

وأخبرني بعض الكتّاب أنه قرأ على حَجَلة مكتوبا :

نَشَرَتْ عَلَيَّ غدائرًا من شَعرِها حَذَرَ الفَضيحَةِ والعدوِّ المُوبِقِ(١)

فكأنّه وكأنّني وكأنّها صُبْحَان باتا تحت ليلٍ مُطْبِقِ

ودخلتُ على بعض الكتّاب في يوم شديد الحرّ ، وهو على دكّان ساج مكتوب في وجهه باللازَوَرْد :

حَرُّ حُبٍّ وحَرُّ هَجْرٍ وحَرٌّ أيُّ شَيءٍ يكون مِنْ ذَا أمَرّ

وعلى الجانب الآخر :

ثلاثةُ أحْبابٍ فحُبٌّ عَلاقةٌ وحبٌّ تِملّاقٌ وحُبٌّ هو القَتْلُ(٢)

وأخبرني بعض من قرأ حول سرير لبعض الظرفاء :

ومجدولةٍ أمّا مَجالُ وشاحِها فغُصْنٌ وأمّا رِدْفُها فكَثيبُ

لها القَمَرُ السّاري شقيقٌ وإنّها تَطَلَّع أحيانًا له فيَغيبُ

أقول لها ، والليل مُرْخٍ سُدولَها علينا: بكِ العيشُ الخسيسُ يَطيبُ

فقالت : نَعَمْ، إن لم يكن لكَ غيرُنا ببغدادَ من أهلِ القُصورِ حَبيبُ

وكتب بعض الظرفاء على سرير له آبنوس بعاجٍ :

إنَّ طَيفَ الخَيالِ أرّقَ عَيْني ما لِعَيْني وما لِطَيفِ الخَيالِ

---

(١) الغدائر : جمع الغديرة ، الذؤابة ، الضفيرة . الموبق : المهلك .

(٢) التملاق : التودد والتذلل والإبداء باللسان من الاكرام والود ماليس في القلب .

جَمعَ اللهُ بين كلِّ مُحِبٍّ قد جفاهُ الحبيبُ بعدالوِصالِ

وكتب على منصّته بالذّهب :

يَنامُ المسْعِدونَ ومَن يلومُ وتُوقِظُنِي وتوقِظُها الهُمومُ

صحيحٌ بالنَّهارِ لِمَنْ يرَانِي ولَيْلِي لا أنامُ ولا أُنِيمُ

٤٧ — باب ما يكتب على المحابس والأبواب

ووجوه المستنظرات وصدور القباب

قال عليّ بن الجهم : رأيت في صدر قبّة مكتوبا بألوان فصوص منضّدة[1] :

لا تُطمِع النّفسَ فى السُّلُوِّ إذا أحببتَ حتّى تُذِيبَها كَمَدَا

مَنْ لم يَذقْ لَوْعَةَ الصُّدودِ وَلَمْ يَصْبِرْ على الذُّلِّ والشَّقَا أبدَا[2]

فذاك مستطرَفُ الفؤَادِ يَرَى فى كلِّ يَوْمٍ أحبابَه جُدُدَا

وأخبرنى أبو جعفر القارئ قال : أخبرنى بعض شيوخنا أنّه قرأ فى صدر مجلس لأمير المؤمنين المأمون :

صِلْ مَنْ هَوِيتَ ودَعْ مَقَالَةَ حاسِدِ ليس الحَسود على الهوى بِمُسَاعِدِ

لم يَخلُقِ الرَّحمٰن أحسنَ منظرًا من عاشِقَيْنِ على فراشٍ واحِدِ

مُتَعانِقَيْنِ عليهما أُزُرُ الهَوَى متوسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وبِسَاعِدِ

يامَنْ يَلومُ على الهوى أهلَ الهوى هل تستطيعُ صلاحَ قلبٍ فاسِدِ

وقرأت على وجه مستنظر لبعض الكتاب :

هَبَّتْ شمالٌ فقلت من بَلَدٍ أنتَ به طابَ ذلك البَلَدُ

وقَبَّلَ الريحَ مِنْ صَبَابَتِهِ هل قَبَّلَ الريحَ قَبله أحَدُ

(١) منضدة : ضم بعضها الى بعض (٢) اللوعة: حرقة الحزن والهوى والوجد .

وأخبرني أحمد بن الحسين بن المنجّم المقرئ أنه قرأ على مستنظر لبعض الكتاب :

لي إلى الريح حاجةٌ لو قَضَتْها كنتَ للريح ما حَيِيتُ غُلاما
حَجَبوها عن الرِّياحِ لأنّي قُلتُ يا ريحُ بلِّغيها السّلاما
لو رَضُوا بالحِجابِ هان ولكنْ مَنَعُوها يومَ الرِّياحِ الكلاما

أخبرني عبد الحميد المَلَطي أنه قرأ على باب مجلس بمَلَطْية :

لا يمنعنَّكَ خفضُ العيشِ في دَعَةٍ نُزوعَ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ[1]
تَلْقَى بكلِّ بلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها أهلاً بأهلٍ وجيرانًا بجيرانِ

وفي صدر المجلس أيضا مكتوب :

إذا كنتَ في أرضٍ غريبًا فَرَجِّها ولا تكثَرِثْ فيها نُزُوعًا إلى الوَطَنْ
فما هِيَ إلاّ بَلْدَةٌ مثلُ بَلْدَةٍ وخيرُهما ما كان عونًا على الزَّمَنْ

وقرأت على باب دار خَدْشًا في الجصِّ بعُود :

هلاّ رَحِمْتُمْ موقفي بفِنائكم متعرِّضًا لنسيمكُمْ أتنشّق
متلدّدًا أَبكي لِمَا قد حلَّ بي مثلَ الغَريقِ بما يَرَى يتعلّق[2]

وأخبرني صديق لي أنه قرأ على باب دار بالحجاز :

يا دارُ إنَّ غزالاً فيكِ عذّبني لله درُّكِ ما تحوينَ يا دارُ
الدارُ تملكني ويحي وصاحبُها قلبي مَليكانِ ربُّ الدارِ والدارُ
يادارُ لولا غزالٌ فيكِ تُعلِقُني ما كان لي فيكِ إقبالٌ وإدبارُ

---

(١) خفض العيش : سهل وكان هنيئا. الدعة : الراحة وخفض العيش. نزع إلى أهله : اشتاق
(٢) التلدد : التحير ، التلفت يمينا وشمالا .

وأخبرنى من قرأ على باب دار باصطخر منقوشا بحجر :

أرى الدّارَ مِن بعدِ الحبيبِ ولا أرى حبيبى مع الباقين فى عَرْصَةِ الدّار[1]

فيا عجبًا إذْ فارَقَ الجارُ جارَهُ أليس شديدًا فُرْقةُ الجارِ للجارِ

٤٨ — باب ما وجد من الظرفات والطراف

مكتوبا على النعال والخفاف

قال الماوردى: كتبت جارية للمارقىّ على نعلها بالذّهب :

لم ألقَ ذا شَجَنٍ يَنوحُ بحبّهِ إلاّ حَسِبْتُكَ ذلكَ المَحْبوبا

حَذَرًا عليك وإنّنى بك واثقٌ أنْ لايَنالَ سِوَاىَ منك نَصِيبا

وكان على نعل جارية سعيد الفارسىّ :

لا تأنفَنَّ من الخضو ع لِمَنْ تحبُّ ودارهِ

إخضَعْ لهُ فلطالمَا مُلّكْتَ حَلَّ إزارهِ

وكتبت مُلْك جارية ابن عاصم على خفّ لها رَهاوىّ بذهب .

وإنّى لإشفاقِى عليك وصَبْوَتِى إليك كأنّى فى المَنَامِ أراكَا

تُحدّثُنى نفسى اذا غِبْتَ سَاعَةً بأنّ لِقَاءَ الموتِ دونَ لِقاكَا

وكتبت متيَّم المغنّية على نعلها :

أقسَمَتْ مُقْلَتُهُ لا تَنْثَنِى عن فؤادى أوْ تَرَاهُ قِطَعَا

فلقد بَرّتْ فَهَلْ من مَطْمَعٍ أنْ ترى ما قَطّعَتْ مُجْتَمِعَا ؟

وأهدى سعيد بن حميد نعلا إلى صديق له وكتب عليها :

نعلٌ بعثتُ بها لتَلْبسَها قَدَمٌ بها تَسْعَى الى المَجْدِ

لو كان يَصْلُح أن أُشرّكَها خَدّى جعلْتُ شِراكَها خَدّى[2]

---

(١) العرصة : ساحة الدار . (٢) شرك النعل : جعل لها شراكا، والشراك : سير النعل .

وكتبت جارية على بن عيسى بن يزداد، كاتب اسحاق بن ابراهيم، على خفها:

تُؤلِمُهُ الألحَاظُ لمَّا بَدَا محتجبًا عن لَحَظَاتِ العبادْ
مَنزِلُهُ نَاءٍ ولكنّه يَسْكُنُ مِنّى فى سَوَادِ الفُؤَادْ

وأهدى بعض الكتّاب نعلا وكتب على شِرَاكها:

لى فؤادٌ شَفَّهُ الحُزْ ن وأضناهُ الصُّدُودُ
وهواىَ كلَّ يومٍ هو يَنْمِى وَيَزِيدُ

وكتب بعض الظرفاء على خف له محالسىّ بالذهب:

لولا شقاوةُ جَدِّى ما عرفتكم إن الشّقىَّ الذى يَشْقَى بمن عَرَفا[1]
طافَ الهوى بِعِبَادِ اللهِ كلِّهمِ حتّى إذا مَرَّ بى من بينهم وَقَفَا

وأخبرنى من رأى نعلا من فضّة أُهديت لبعض الظرفاء عليها مكتوب:

بِأبِى أنتَ سَيِّدِى وَمنَاىَ جعَلَ اللهُ والِدَىَّ فِدَاكَا
لك خدّى من الثَّرَى لَكَ نَعْلاً قُدَّ للنَّعل من فؤادى شِرَاكَا[2]

وقرأت على نعل سندىّ مدهون:

جعلتُ خَدِّىَّ له أرضَا فقلتُ: طَأْ من فَوْقِها وَارْضَى
فقال: لا، فقلتُ: بلى سيّدى صبرًا على الحُبِّ وإن مَضَّا[3]

٤٩ — باب ما يكتب بالحناء فى الوطأة والوشاح[4] وعلى الأقدام والرّاح[5]

كتبت ذُوَيْت جارية حمدونة على وطأتها اليُمنى:

إعْلَمِى ياأحَبَّ مِنِّى إلَيَّا أنّ شوقى إلَيْكِ يَقْضِى عَلَيَّا

---

(١) الجد: الحظ. (٢) قدّ الشيء: قطعه طولا. (٣) مض: آلم وأوجع. (٤) الوطأة: موضع القدم. الوشاح: شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها. (٥) الراحة: باطن اليد.

وعلى اليسرى :

إنْ قضى اللهُ لى رجوعًا إليكُمْ لم أعُدْ للفِرَاقِ ما دمْت حَيًّا

وكتبت لُبْنَى جارية عبّاس النّديم على راحتها بسُك[1] وعنبر فى اليمنى :

قالوا : تَمَنَّ وقُلْ ، فقلتُ لهمْ: ياليتَهـا حَظِّى من الدُّنيـا

وعلى اليسرى :

لا أبتغى سُقْيَا السَّحاب لها فى عَبْرَتِى خَلَفٌ من السُّقْيا[2]

وكتبت جارية السّعدِيّة على راحتها اليمنى بالحنّاء :

رفعَتْ للوَداع كَفًّا خَضِيبًا فتقبلْتُهـا بدمعٍ خَضِيبِ

وعلى اليسرى :

وأشارتْ إلىَّ غمزًا بِحَقٍّ نَعْتُه مثلُ فِعْـلِهِ فى القُلوبِ

وكتبت جارية ابن الساحر على وطأتها اليمنى :

وماأنا عن قلبى براضٍ لأنّه أشَاطَ دَمِى ممّا أتَى مُتَطَوِّعَا[3]

وعلى اليسرى:

تَمَنَّى رجالٌ ماأحَبُّوا وإنّما تمَنَّيْت أن أشكو إليهـا وتَسْمعَا

قال الماوردى : رأيت على راحة قائد ، جارية لبعض جوارى المأمون ، اليمنى بالحناء :

فديتُكَ قد جُبِلْتُ على هَوَاكَا فقلبى ما يُنَازِعنى سِوَاكَا[4]

وعلى اليسرى :

أحبُّك لا ببعضى بَلْ بكلِّى وإن لم يَبْقَ حبُّك من جرَاكَا

---

(١) السك : ضرب من الطيب (٢) الخلف : البدل والعوض (٣) أشاطه : أحرقه

(٤) جبل : خلق وفطر

وقرأت فى كفّ جارية بالنقش :

إذا قيل: ما تشكو؟أشار إلى الحشا فأوّلُ ما تشكو وآخره الهجْر
فياليْتَ قلبي صار صخرًا كقلبِهِ ولم يُبْلِهِ الشوقُ المبرِّحُ والفكر(١)

وأخبرنى من رأى جارية لبعض آل طاهر قد كتبت فى وُشاحها وقدميها:

عزَمُوا المقامةَ أم تُراهم أزمعوا ياطُولَ وَجْدى إن هُمُ لم يَربعوا(٢)
ومُراعةٍ لِلْبَيْنِ تحسِبُ أنّنا شمسٌ على غُصْنٍ يَغيبُ ويَطْلَع(٣)
كتبتْ إلىّ على شقائق خدّها سَطْرًا من العبَرات:ماذا تصنَع ؟
فأجَبْتها بلسانِ صِدقٍ ناطقٍ: ما فى الحياة من التفرُّقِ مَطْمَعُ

وكتبت الماهانيّة على كفّ جاريتها شماريخ بالحنّاء :

أبَى الحبُّ إلاّ أن أكون معذَّبًا ونيرانه فى الصّدر إلاّ تلهُّبَا
فوا كَبِدَا حتّى متَى أنا واقفٌ ببابِ الهوَى ألقَى الهوَانَ وأنْصَبَا

٥٠ — باب مايكتب على الجبين والخد ويطرف(٤) به ذوو الصبابة والوجد

قرأت على جبين جارية لنخّاس بالغالية(٥) وقد أخرجها للعرض :

وشادنٌ أحسَنُ خَلْقِ اللهْ فى كفّه سيفُ رَسول اللهْ(٦)
قد كتب الحُسْنُ على وجهها سطرَيْن بالعنبر باسم الله
على يَدَىْ رِضْوانَ منسوجةٍ صَنْعَةُ حُسْنٍ فى طِرَازِ اللهْ

---

(١) المبرح: المتعب، المتوهج (٢) ربع بالمكان : أقام . (٣) المراعة: من خامرها الخوف. البين : الفرقة (٤) أطرفه بكذا : أتحفه به . (٥) الغالية : أخلاط من الطيب . (٦) الشادن : ولد الظبى، والمراد : جارية ترعرت .

أنا غريقٌ فى بحار الهوى   شِبهُ قتيلٍ فى سبيل الله

وأخبرنى من رأى على جبين جارية نخّاس مكتوبا فى سطرين :

إذا حُجبتْ لم يكفكَ البدرُ فقدَها   وتكفيك فقدَ البدر إن حُجب البدرُ
وحسبُك من خمرٍ تفوتُك ريقَها   ووالله ما من ريقِها حسبُك الخمرُ

وقال على بن الجهم : رأيت على خَدّ جارية لفاطمة بنت محمد بن عمران الكاتب مكتوبا بالمسك :

رَضيتُ على رَغمى بحبِّكِ فاعدِلى   ولا تُسرفى إذ صارَ فى يدِكِ الحُكمُ
مَتَى يَظفَرُ المظلومُ منكِ بحقّه   إذا كنتِ قاضيه وأنتِ له خَصمُ

قال المازنى : كان على جبين جارية شريط مكتوب بالغالية :

صرمتَنى ثمّ لا كلّمتَنى أبدًا   إن كنتُ خنتُك فى حالٍ من الحال[1]
ولا هممتُ ولا نفسى تحدّثنى   قلبى بذاك ولا يجرى على بال

وقال الجاحظ : كتبت مؤلف جارية الصخرى على جبينها :

ومحسودةٍ بالحسْن كالبدر وجهُها   وألحاظُ عينَيْها تجور وتظْلِم
ملكتُ عليها طاعةَ الشّوق والهوى   وعلّمتُها ما لم تكن منه تَعلَم

قال : وقرأت على جبين قينة بالعسكر مكتوبا بغالية وعنبر :

يا قمرًا لاحَ فى الظلامِ   عليك من مُقلتى السّلامُ

وكتبت ظَلوم على جبينها بالمسك :

العَين تَفقدُ مَنْ تهوى وتُبصِره   وناظرُ القلب لا يخلو مِنَ النَّظَر

وظَلوم هذه كان يُحبّها العبّاس بن الأحنف ، وفيها يقول :

---

(١) صرمه : هجره .

إنّ بالكَرْخِ منزلاً لغزالٍ بين قصرِ الأمير والخيزُرانِ
والهوى قائدى إليــه وشوقى ليس بالشّوق والهوى لى يَدانِ
لستُ أنساكِ يا ظَلُومُ وعَهدِ الـلّـهِ حتى أُلَفَّ فى أكفانى
فثِقِى بى فأنتِ أعرَفُ منّى بحِفَاظِى فى السِّرّ والإعلانِ

٥١ — باب ما يخلع به التفاح والاترج والوسقنبوبات ويُعدل به تنضيد الورد والياسمين والخيريّات

أخبرنى بعض شيوخنا من الكتّاب بالعسكر قال : قرأتُ على طَبَقَين أهداهُما بعض الفُرس إلى بعض الكتاب ، قد نُضِد بأنواع من السوسن وَالياسمين والشقائق والرياحين ، على أحدهما مكتوب :

شادنٌ راحَ نحوَ مَرْجِ ماءٍ مُسْرِعًا وجنتاهُ كالتُفّاحِ
وَرَدَ المَاءَ ثمّ راحَ وقد أصْـدَرَهُ الماءُ فى غِلالةِ رَاحِ

وعلى الآخر :

رَقّ حتى حَسِبْتُه وَرَقَ الوَرْ دِ نَدِيًّا يَرِفُّ بين الرِّياضِ
وَرَدَ الماءَ ثمّ رَاحَ وقد ألْـبَسَهُ الماءُ حُمْرَةً فى بَيَاضِ

قال : ورأيتُ بين يدى بعض الكتّاب طَبَقَ وَرْدٍ أحمر مكتوب فيه بالأبيض :

لم يَضْحَكِ الوردُ إلّا حين يُعجِبُهُ زَهْرُ الرّبيع وصَوتُ الطّائرِ الغَرِدِ
بدَا فأبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنَها وراحتِ الرّاحُ فى أثوابِها الجُدُدِ

وأخبرني من رأى طبق ريحان مكتوب في دَوْره بياسمين ونسرين:[1]

فما ريحُ ريحانٍ بمسكٍ وعنبرٍ بِنَدٍّ وكافورٍ بِدُهْنَةِ بانِ[2]

بِأَطيَبَ رَيَّا من حبيبي لَوَانَّني وجدتُ حبيبي خاليًا بمكانِ[3]

وقرأت في تفليج أترجّة أُهديت لبعض الظرفاء:

هِيَ في العالَمِ كالشمسِ أضاءتْ في البلادِ

وَهْيَ في كلِّ كمالٍ قد علَتْ فوق العبادِ

وأخبرني من قرأ في تفليج تفّاحة:

أنا إلى العاشقِ منسوبهْ أُهْدَى لمحبوبٍ ومحبوبَهْ

وعلى تفّاحة أُخرى مفلّجة:

خَطَّتْ يميني فوق تفّاحةٍ: أقلقني هجرُك يا قاتِلي

وحضرتُ هديّة لبعض متظرّفات القيان إلى بعض ظرفاء الكتّاب، وفيها تفّاحة، في تفليجها مكتوب:

ليس تفّاحةٌ بأطيبَ طِيبًا من حبيبٍ مُعانقٍ لحبيبِ

وأُترجّة في تفليجها مكتوب:

أُهْدَى هلالٌ لكلِّ يومٍ إذا بَدَا الثَّغرَ بابتسامِ

وطبق خيريّات[4] مكتوب في تعديله:

يا طِيبَ رائحةٍ فاحتْ لِبُستانِ مِنْ بينِ وَرْدٍ ونِسْرِينٍ وريحانِ

وياسمينٍ ذكيٍّ زادني طَرَبًا حتى تكشّفَ عنّي كلُّ أحزانِ

---

(١) النسرين: ورد أبيض عطري الرائحة.

(٢) الند: عود يتبخر به. الدهنة: اليسير من الدهن. (٣) الريا: الريح الطيب

(٤) الخيرات: جمع الخيري، المنثور الأصفر، وهو نبات ذو زهر زكي الرائحة

٥٢ — باب ما يكتب على القناني والكأسات والأقداح والأرطال والجامات[1]

قرأتُ على كأس لبعض الظرفاء :

إذا فكَّرْتُ خاطبَني مِثالُ ... وإن أغفيتُ نبَّهني خَيالُ

ولي حالٌ إذا ما الكأسُ طابَتْ ... لِشارِبِها وللنَّدمانِ حالُ[2]

وقرأت على كأس لبعض الكتاب :

إشرَبْ على ذِكرِهِمْ إذ حِيلَ دونَهُمُ ... عَيناكَ مِنْهُمْ على بالٍ إذا شَرِبوا

تَدْعو المُنَى قُرْبَهُم والدَّارُ نازحةٌ ... حتَّى يُناجِيَهُمْ قَلْبٌ وما قَرُبوا

وعلى كأس :

إذا لم يَمْزُجِ النَّدمانُ كأسي ... جعلتُ مِزاجَها ماءَ الجُفونِ

وإن ضَحِكوا بَكَيت، وإن تَغَنَّوْا ... أجبتُهُمُ بألوانِ الحَنينِ

وكتب عُبيد الماجن على كأسه :

إشرَبْ هنيئًا لا تَخَفْ طائفًا ... قد آمنَ الطَّوافَ أهلُ الطَّرَبْ[3]

وكتب بعض الكُتَّاب على قدح له :

وما لَبِسَ العُشَّاقُ ثوبًا من الهوى ... ولا أخْلَقُوا إلاَّ بَقِيَّةَ ما أُبْلِي[4]

ولا شَرِبوا كأسًا من الحُبِّ حُلْوَةً ... ولا مُرَّةً إلاَّ وشُرْبُهُمُ فَضْلِي[5]

---

(١) الجامات : جمع الجام : الكأس

(٢) الندمان : المنادم على الشرب ، والرفيق والصاحب .

(٣) الطائف : العسس . الطواف : كثير الطواف .

(٤) أخلق الشيء : صيره باليا

(٥) الفضل : البقية

وبعثت نَشْوان الكرّاعة إلى على بن عيسى بن عبد الله الهاشمىّ برطل عليه مكتوب :

يا باعِثَ السُّكرِ من طَرْفٍ يُقلّبه ... هَاروتُ ، لَا تُسقِنِي خمرًا بِكَأْسَيْنِ
ويا مُحَرِّكَ عَيْنَيْهِ لِيَقْتُلَنِي ... إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكَ العَينَ مِنْ عَيْنِي

وأخبرنى من قرأ على قِنِّينة [1] بين يدى أبو دُلَف العِجْلىّ :

وقَهْوَةٍ كَوْكَبُها يَزْهَرُ ... يَفُوحُ مِنْهَا المِسْكُ والعَنْبَرُ [2]
يُسْقِيكَهَا من كفِّه أَحْوَرُ ... كأَنَّهَا من خدِّه تُعْصَرُ

وكتب آخر على طاس :

لا تحسبِي أنّ طولَ الدّهر غيّرنى ... بَلْ زَادَنى كَلَفًا يا أملَحَ النَّاسِ
لم يَجْرِ ذِكْرُكِ فى لَهْوٍ ولا طَرَبٍ ... إلا مزجت بدمعى عنده كاسِى
كم عاذِلٍ قد لَحَانِى فيك قلت له: ... شَلَّت يمينُك هل بالحبِّ مِنْ باسِ [3]

وأخبرنى يحيى بن محمد المسلى أنه قرأ على كأس لقينة :

إشْرَبِ الكأْس على صَرْفِ الزَّمَنْ ... قَلَّمَا دامَ سرورٌ أو حَزَنْ
إنَّمَا كان لِمِثْلِي سَكَنٌ ... من جميع الخَلْق طُرًّا فَظَعَنْ [4]

وقرأتُ على قدح :

إشْرَبْ وسَقِّ حبيبَك الرَّاحَا ... وَبُحْ مِنَ الوَجْدِ بالذى باحَا

---

(١) القنينة : إناء من زجاج يجعل فيه الشراب .
(٢) القهوة : الخمر.
(٣) لحاه : شتمه وسبه وعابه . شلت يده : يبست .
(٤) طرًّا : جميعا . ظعن : سار ورحل .

وعلى آخر :

إشرَبْ وسَقِّ الحبيبَ يا ساقِي　　وسَقِّنى فَضلَ كأسِهِ البَاقِي

وسَقِّنى فضلَ ما تخلَّفَ فى الـ　　ـكأسِ بعَمْدٍ بغَيْرِ إشفاقِ

وعلى آخر :

فديتُ مَنْ لم يزَلْ على طَرَبٍ　　يُديرُ بينى وبينه الكاسَا

ألثمني خدَّه وقال ألا　　دونك ما قد منعتهُ النَّاسَا

وكتبت بنت المهدى[1] على قدح بالذهب :

إشرَبْ على وَجهِ الغَزا　　لِ الأغيدِ الحسَنِ الدَّلالِ

إشرَبْ عليهِ وقل لَه :　　يا غُلَّ ألبابِ الرِّجالِ

وكتب بعض الظرفاء على قِنِّينة :

فقلتُ لها ، وقد أبديتُ سُكْرى:　　ألا ردِّى فؤادَ المستَهامِ

فقالت : مَن ؟ فقلت : أنا. فقالت :　　متَى ألقَيتَ نفسَك فى الزِّحامِ

وقرأت على قنّينةٍ مدهونة مكتوب عليها بالذهب :

أحسَن مِنْ موقِفٍ على طَلَلٍ　　كأسُ عُقَارٍ تجرى على ثَمِلِ[2]

يُديرُها أهيَفٌ به حَوَرٌ　　معتدِلُ الخلْقِ راجِحُ الكَفَلِ[3]

إذا تَمشّى بها مصفّقةً　　رأيتَ فيها تلهُّبَ الشُّعَلِ

---

(١) علية بنت المهدى

(٢) الطلل : الشاخص من الآثار . العقار : الخمر

(٣) الأهيف : ضامر البطن رقيق الخصر . الكفل : العجز أو الردف

وعلى جام :

إشْرَبْ هَنِيئًا فى أَتَمِّ النَّعِيمِ ... طابَ لك العيشُ بطِيبِ النَّديمِ

وعلى آخر :

وكؤوسٍ كأنهنَّ نجومٌ ... طَالِعَاتٌ بُروجُها أيدِينَا

طالعاتٍ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغرُبْنَ فينا

٥٣ — باب ما يكتب على أوانى الفضة والذهب

ومموهوه الصينى المذهب

قال العباس بن الفضل بن الرّبيع : حدثنى أبى قال : رأيت على صينية بين يدى المأمون مكتوبًا فيها :

لا شيءَ أملحُ من أيّامِ مَجْلِسِنَا ... إذ نجعل الرُّسْلَ فيما بيننا الحَدَقَا

وإذْ جوانحُنا تُبْدِي سَرَائِرَنا ... وشَكْلُنا فى الهوى تلقاه متّفِقًا

لَيتَ الوشاةَ بنا والعاشِقِين لنا ... فى لُجّةِ البَحْرِ ماتوا كُلُّهم غَرَقَا

أو لَيْتَ مَنْ ذَمَّنا أو عابَ مَجْلِسَنَا ... شُبَّتْ عليه ضِرَامُ النّارِ فاحْتَرَقَا

وأخبرنى بعض الكُتّاب أنّه قرأ على صينيّة ، بين يدى الحسن بن وهب ، مفصّلة [1] بالفصوص بألوان شتّى :

مَنْ كانَ لا يَزْعُمُنى عَاشِقًا ... أحضرتُه أوْضَحَ بُرْهَانِ

إنّى على رِطْلَيْنِ أُسْقَاهُمَا ... أرُوحُ فى أثوابِ سَكْرَان

وكنت لا أسكَرُ من تِسعَةٍ ... يَتْبعها رِطْلٌ ورِطْلانِ

---

(١) فصل العقد : جعل بين كل خرزتين خرزة أو جوهرة مخالفة لهما

فصار لى مِنْ غمَرَاتِ الهوى　　والسُّكرِ سُكرانِ عجيبانِ

والشعر للحسن بن وهب

وكتب بعض الظرفاء على صينيّة له صينى :

حُثَّ النُّدَامَى بعاجِلِ النُّخَبِ　　وحُثَّ كأسَ النَّدْمانِ يا بِأَبِي [1]

إنْ لم تُدِرْهَا والكأسُ مترعةٌ　　حتّى تُميتَ الهمومَ لم تَطِبِ

وكتب آخر على صينيّة له :

قدْ قلتُ لمَّا صَبَا بِيَ اللّعِبُ　　وبا كرَتْنى الشَّمول والطرب

وكتب آخر على قضيب مدهون :

أصبحتُ يشبِهُنِى القَضِيبُ　　وأنتَ يُشبِهكَ القَضِيبُ

غُصْنانِ إلّا أنَّ ذَا　　بالٍ وذَا غصْنٌ رَطِيبُ

وقرأت فى مِذَبَّة [2] لبعض الكتّاب :

تَعَلَّمْتُ أنواعَ الرِّضَى خوفَ سُخطِهِ　　وعَلَّمَه حبّى له كيفَ يَغْضَبُ

ولى ألفُ وجْهٍ قد عرفتُ طريقَه　　ولكن بِلاَ قَلْبٍ إلى أينَ أذهَبُ

وعلى آخر :

دَلَّ البكاءُ على عينى فأرّقها　　ظَبْىٌ يُطِيلُ البكَا منْ ظِلّهِ فرَقَا [3]

لومَسَّ غُصناً مِنَ الأغصانِ منجرِدًا　　لاَخْضَرَّ فى كفّهِ واُستشعرَ الوَرَقَا

وأخبرنى أبو جعفر القارىء ، قال : أخبرنى من قرأ على مروحة بيتين للقُطامىّ :

---

(١) الندامى : جمع الندمان . النخب : الشربة من الخمر وغيرها يشربها الرجل لصحة حبيبه أو عشيره　(٢) المذبة : ما يدفع به كالمروحة　(٣) الفرق : الفزع

قد يُدرِكُ المتأنّى بعضَ حاجته ... وقد يكون مع المستَعجِلِ الزَّلَلُ

ورُبَّما فات بعضَ القوم أمرُهُمُ ... مع التأنّى وكان الحزمُ لو عجِلوا

قال: فحضرنى بيتان، فكتبتُ على الجانب الآخر:

لا ذا ولا ذاك فى الإفراط أحمده ... وأحمدُ الأمرِ ما فى الفعل يعتدِل

إفراطُ ذا فى التأنّى فوتُ حاجتِهِ ... وليس يعدَم عثرًا دونها العَجَل

وقرأت على مِروحة لبعض الظُّرفاء:

مُحتمِلٌ حسبكُ لى ساعةً ... ذاك إذا أجهدَكَ الحرُّ

غيركَ مِنّى طالبٌ مِثلَ ما ... تطلبه يا أيّهـا الحُرُّ

وكتب بعض الأدباء على مِروَحة:

إنَّ رُوحَ الحياةِ فى ... حَرَكاتِ المَراوِحِ

كم بَنان لَطيفةٍ ... من ظِباءٍ سَوانِحِ (١)

حركَتْها فَنفستْ ... عن خُدودٍ رَواشِحِ

وقرأتُ على قوس جُلاهق مكتوبًا بالذهب:

بينما الطيرُ فى الهوى يَتكَفَّى ... إذْ سَقَيْناه جُرعَةَ الموت صِرفَا

ونَزعْنا من القرين قرينًا ... وجعلْنا هناك بالإلفِ إلفَا

وكتبتُ على قوس أهديتُها بعض إخوانى:

لمّا رأيتُ الطَّيْرَ عالى المُرتَقى ... هَيَّأتَ قَوْسًا يا لها وبُنْدُقا (٢)

ثمّ غدَوْنا إذ غدَوْنا حَلَقًا ... فلَمْ يَحُمْ حتّى هَوَي مُمزَّقًا

---

(١) السوانح: جمع السانح: الذى يأتى من جهة اليمين

(٢) البندق: كل ما يرمى به

٥٤ — باب ما يكتب على العيدان والمضارب والسرنايات والطبول والمعازف والدفوف والنايات

كتبت قصعة المغنية على عودها :

ماطافَ حبٌّ لإنسان يَلَذُّ به حتى يكون به فى الناس مُشتهِرَا
فاخلَعْ عِــذارَكَ فيما تَستَلِذ به واجْسُرْ فإنَّ أخااللّذَات مَنْ جَسَرا

وكتب مخارق على عوده :

كم ليــلةٍ نادَمَنى ذِكْرَهُ يُسْعدنى المَثْلَثُ والزيرُ(١)
حتى إذا الليلُ جَلَا نفسَه على الدُّجَى إبتسَمَ النورُ
أصبحتُ مَسْتُوراً لجيرانهِ والوصلُ بالهجران مستور

وكتب بعض المغنين على عوده :

سَقَوْنى وقالوا : لا تغَنِّ ، ولوْ سَقَوْا جبالَ حُنينٍ ماسَقَوْنى لَغَنَّتِ
تَجَنَّتْ علىَّ الخَوْدُ ذنبًا علمتُــه فيا وَيلتى منها ومِمَّا تجنَّتِ

وأهدى بعض الكتاب إلى قينة ، كان يهواها ، عودًا وكتب عليه :

من ذا يبلغُ نحلةً عن عَبْدِهَا أنّى إليك وإن بَعُدْتِ قريبُ
تستنطقينَ بحُسْن صَوْتِك أعْجَمًا يدعو بذاك صَــوَابُهُ فيجيبُ
فالعودُ يشهَدُ والغِنــاءُ بأنّه لَوْلاكِ لم يَكُ فى الأنام مُصِيبُ

وقال على بن الجهم : قرأت على مضراب لقينة :

أُحِبــك حبًّا لستُ أبلُغُ وصفَه
ولا عُسْرَ ما أصبحتُ أُضمِرُ فى صَدْرِى(٢)

---

(١) المثلث : ثالث أوتار العود . والزير : أحدُّ أوتاره ، أى أرفعها صوتا ، وهو رابع الأوتار (٢) العسر : الشدة والضيق

وأكتمُ ما ألقاهُ منك تشجُّعًا   لعلّ إلٰهَ الخلقِ يُدْنيك من نَحْرى

وعلى مضراب آخر :

ياذا الذى أنكَرَنِى طَرْفُهُ   إذ ذابَ جسمِى وعَلانى شُحُوبْ

ما مسَّنى ضرٌّ ولكننى   جَفَوْتُ نفسى إذ جفانى الطبيبْ

وعلى آخر :

نضو هُمُومٍ بُكًا وحُقٌّ له   دمعٌ حَداهُ الضَّنَى فأسْبَلَهُ

وطَال لَيْلُ الهوى عليه وما   أمَرَّ ليلَ الهوى وأطْوَلَهُ

وكتبت كرّاعة على طبل لها :

يانفسًا ليس ينقَضِى أمَدُهْ   ويافؤادًا أذابه كَمَدُهْ

ويا مُحِبًّا جفاهُ سَيِّدُهْ   تقطّعتْ منْ جفائه كَبِدُهْ

وكتبت أخرى على ناى :

فكيف صبرى وَبئسَ الصبر لى فَرَجُ   والطّرفُ يَعشق مَنْ فى طرفه غُنُجُ[1]

وقرأت على مِعزَفة :

إن كنتَ تهوىٰ وتستطيلُ   فإنّنى عبدُكَ الذّليل

أعرضتَ عنّى وخُنتَ عهدى   وجُرْتَ فى الصدّ يا مَلُولُ

كيفَ احتيالى ولَيس يأتى   منك كتابٌ ولا رَسولُ

وعلى آخر :

ألذ عندى من الشّرَاب   تقبيلُ أنيابِكِ العذَاب

ولثْمُ خَدٍّ كلونِ خَمرٍ   قد شفّه كثْرَةُ العتَابِ

---

(١) الغنج : الدلال

وقرأت على دفّ :

يا بِدَعًا في بِدَعٍ جارتْ على من مَلَكَتْ[1]
أرثِي لصَبٍّ نفسُه مِمَّا به قد تلِفَتْ

وعلى آخر :

ما سرَّني أنَّ لسانى وَلا أنَّ فُؤادى منك يومًا خَلَا
وأنَّ لى مُلْكَ بنى هاشمٍ يُجْبَى إلىَّ أوَّلاً أوَّلاَ

وقرأت على طنبور :

يا أوَّلَ الْحُسنِ يا مَنْ لا نظيرَ له هَلَّتْ سحائبَ عيْنى نَغْمَةُ الزِّيرِ
وَأيُّ مُزْنَةِ غَرْبٍ لا تَسُحُّ دمًا مِن عاشِقٍ عندَ نغْماتِ الطَّنابيرِ[2]

وعلى طنبور آخر :

بَكَيْتُ من طَرَبٍ عندَ السَّماعِ كما يَبكى أخُو قصَصٍ مِن حُسنِ تذْكيرِ
وَصاحِبُ العِشقِ يَبكِى عندَ شَجْوَته إذا تجاوبَ صَوْتُ البَمِّ وَالزِّيرِ[3]

٥٥ — باب ما يكتب على الأقلام

من مستظرف الكلام

كتب بعض الكتاب على قلم أهداه :

إنِّى لأَعجَبُ إذْ يزهُو بِهِ قَلَمٌ أنْ لا يلينَ فَيُبدِى حولَه وَرقا

---

(١) البدع : جمع البدعة : ما أحدث على غير مثال سابق
(٢) المزنة : المطرة . الغرب : عرق فى العين تجرى منه الدمع
(٣) البم : أغلظ أوتار العود ، وأغلظ أصواته

يا ليتني قَلَمٌ فى بطن راحتِهِ ألتَذُّ باطِنَ كفَّيْهِ إذا مَشَقَا [1]

وعلى آخر :

إذا دخل الدِّيوانَ أشرقَ نُورُه ولم يك للشمس المُضِيئَةِ نورُ

فياليت أنى كنتُ فى بطنِ كفِّه له قَلَمًا إن المُحِبَّ شَكُورُ

وكتب عمر بن ابراهيم البصرى على قلم أهداه لبعض غلمان ديوان الخراج :

يا قَمَرَ الديوان يا مُلْبِسَ قلبي سَقَمَا

كأنما فى كَبِدِى أنت تَخُطُّ القَلَمَا

يا أحسنَ الناسَ معًا جِيدًا وعَيْنًا وفَمَا [2]

وأخبرنى من قرأ على قلم لبعض الكتاب بالديوان :

إذَا دَخلَ الديوانَ حارتْ عيونُنَا وَقلْنَا كما قالت صَحَابَاتُ يوسف

فَيَمْشُقُ والتَّشويرِ فِى حركاتهِ فَيُورِثُنَا مِن ذاكَ ما ليْسَ يُوصَفُ

وقرأت على قلم :

إذا دخل الديوانَ حارتْ عيونُنا وكادت قلوبُ الناظرينَ تطيرُ

فيانِعْمَتَا إن لم تُصِبْكَ عيونُهم لك الله من تلك العيون مُجِير

وعلى آخر :

أفدِى البَنَانَ وأَفدِى الخطَّ من علَمٍ وقد تطرَّفَ بالحِنَّاءِ والعَنَمَ [3]

كأنما قابَلَ القرطاسَ إذ مشَقَتْ فيـــه ثلاثة أقـــلامٍ على قَلَم

---

(١) مشق فى الكتابة : مد حروفها

(٢) الجيد : العنق

(٣) العنم : شجر له ثمرة حمراء ، يشبه بها البنان المخضوب

٥٦ — باب ما يكتب على الدراهم والدنانير التى ضُربت للملوك فى المقاصير

قال على بن الجهم : قرأت على دينار فى خلافة المتوكل من ضرب الدار :

وَأَصفرَ صاغَتْــهُ الملوكُ تَطَرُّبا   بأسمائها فيه المُرُوَّةُ وَالفَخرُ

باسمِ أمينِ الله زينتْ سُطُورُهُ   كما زين بالتفصيل فى نَظْمِه الدُّرُّ

هو المَلكُ المأمونُ من آل هاشمٍ   بهم إنْ أغَبَّ القطرُ يُستنزَلِ القَطْرُ

له غُرَّةٌ فَيْنانةٌ جعفريةٌ   بها تَضحَكُ الشمسُ المضيئةُ والبدْرُ

قال : ورأيت على دينار من ضرب المتوكل أيضا مكتوبا عليه

وأصفرَ منْ ضربِ دارِ المُلوكِ   يلوحُ على وجهه جعفرُ

وقرأت على درهم من ضرب المنتصر :

درهمٌ أَبيضٌ مليحُ المعانى   بسُطورٍ مبيَّناتٍ حِسَانِ

صاغَه الصائغُ المنمّقُ بالحُسْـ   ـنِ ليُهدَى صبيحةَ المِهرَجانِ

فيه إِسمُ الإمام أكرمَهُ اللّـــهُ   ووقَّاه نائباتِ الزمانِ

وقرأت على درهم :

أخى درهمى ما دامَ ، والنّاسُ إخوتى   فانْ غابَ عنِّى غاب كلُّ صديقِ

هذه جملة ممّا بلغنا وفيها كفاية لمن اكتفى ، وبيان لمن تبيَّن واقتنى ، وما استوعبنا كل ما انتهى إلينا ، ولو قصدنا إلى تكثير لما استصعب علينا ، وإنما قصدنا التخفيف ، لا التأليف ، والاقتصار ، والاختصار ، وليس كل ما سمعناه ذكرناه ، ولا كلّ ما قيل فى ذلك سمعناه ، وقد أدّينا بعض ما بلغنا ،

ووصفنا بعض ما استحسنّا، وخلطنا جدا بهزل، واعوجاجا بقصد، وجعلنا كلّ ذلك فى نظام، وإلى الله نرغب فى السلامة والسلام.

والحمد لله بجميل التسديد، وهو المتفضل بالاعانة والتوفيق، وإياه نستعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كمل الكتاب وتمّ بقوّة الله ومنّه، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على خيرته من خلقه محمد وآله، وحسبي الله وعليه أتوكّل.

فهرس الأعلام

فهرس الكتاب

تصويب ما فى الكتاب من أخطاء

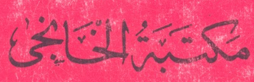
الصفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١	١٦	عن ما	عما
١	٢١	الح	الحق
٢	٢	وقل ما	وقلما
٢	٦	لاتعرضن	لاتعرضن
٣	١٣	تغطية	تنطية
٤	٢١	منطوى	منطو
٥	٢١	القائة	النائلة
٦	١٢	وليسُ	وليسَ
٨	٩	نصت	أنصت
٨	١٤	وقصه	أوقصه
٨	٢٠	شنانه	شناته
٩	٢	تعدُّ	تعدّ
٩	١٣	لحيتيه	لحيه
١١	٤	تبينا	تبينًا
١١	١٦	عمروا	عمرو
١٤	١٩	وغره	أوغره
١٥	١	كرام	كِدَام
١٥	١٠	وقبش	وقتشَ
١٦	٣	أكثم	أكثم
١٦	١٧	البزيدى	اليزيدى
١٧	١٨	قياً	قيًّا
١٨	٢٠	عقا	عقّ
٢١	٧	الحلىُ	الحلىَ
٢١	٦	آباه	أباه
٢٩	١٨	أعربياً	أعرابيًّا
٣٠	٦	وتثبت	وتبثت
٣١		التقو ا	التقوا
٣٣	١٠	معدنا	معدِنا
٣٣	٢٢	جنم	جنح
٣٥	٨	محمد	محمد
٣٥	١١	ومديل	ومديلـ
٣٦	٤	قَريا	قُريا
٤٠	١٤	ملياً	مليًّا
٤٣	٥	النبى	النبى
٤٣	٥	آمن	أثمن
٤٣	١٤	لكيلا لا	لكى لا
٤٥	٣	تطرقه	تطارقه
٤٨	٧	السر	السر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٨	٨	السرُ	السرَّ
٤٨	٢٠	شجاعة	شجاعته
٤٩	٤	لزّميت	الزّميت
٥٦	١٦	صادفتيه	صادفته
٦٢	٢١	مِنا	مِنا انا
٧٢	١	وكفاً	وكفًّا
٧٥	٢	شد رتنى	شهدتنى
٧٥	١٠	التطـ ع	التطوع
٧٥	٢١	مضم النون	بضم الدال
٧٨	٦	تمطف	تمطف
٧٩	٤	عل	على
٧٩	١٩	ذالخلق	ذا الخلق
٨١	١٤	غبطة	غِبطة
٨٧	١	مَن	مِن
٨٧	١٣	رأيتَ	رأيتُ
٩١	٥	يخبركمْ	يخبركمُ
٩١	٥	مصيبٌ	مصيبُ
٩٣	٢	بشابٌ	بشاب
٩٣	١٣	والى أرغب	والى الله أرغب
٩٣	١٨	جانى غير مثله	جانى مثله
١٠٣	١	باتن	باتنا
١٠٣	١١	عاتكة	عاتكة
١٠٤	١٢	الدى	التى
١٠٥	١٦	ومحمد	ومحمدا
١٠٨	١	بسية	بنية
١٠٨	١١	تقومن	تقوى
١٠٩	٢	البليا	العلين
١١٢	٢	فهاهى	فهاهى فى
١١٧	١٠	الاماء	الا ماء
١٢٣	٤	المائشَ	المائشِ
١٢٣	٥	درنها	دونها
١٢٤	١٥	لهمْ	لهمُ
١٢٥	٥	أعرف	يعرفَ
١٢٦	٢	فأطلق	فأطلقْ
١٢٦	٥	يبجل	مبجل
١٢٧	٢٠	الرقرآن	الرقراق
١٣٠	٤	مقل	مقل
١٣٠	٥	أخبرَكم	أخبرْكم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٠	١٣	بالنيوب	باليوب
١٤٣	٣	بلياقته	بلباقته
١٤٣	٩	غلا	غله
١٤٤	٨	الا — أسماء	ألايا — أسما
١٤٦	٦	اختيار	اختبار
١٤٦	٨	لتقصدوا	لتقصدوا
١٤٦	١٤	قبل — دما أناذ	قبلُ — وهاأنذ
١٤٨	١٢	نصيبُ	نصيبه
١٥٧	٣	ليلى	لبنى
١٥٨	٢	فاعي	فأعيا
١٥٩	٦	يعجز	يعجز
١٦١	١٩	النخين	التخين
١٦٣	٢	يستعملونه	يستعمله
١٦٥	٩	بالابريسم	بالابريسم
١٦٦	٣	الظرف	الظَّرف
١٦٦	٢٠	أرنيه	أرنيه
١٦٧	٧	يهديها	يهديه
١٦٧	١٧	١٩	٢١
١٦٩	٥	والأريان	والأريان(٢) ثم تصحح الأرقام التالية
١٧٠	٨	عن ما	عما
١٧٠	١٦	الطيار	البيطار
١٧١	١	تيتك	وتيتك
١٧١	٦	الموم	العوام
١٧٢	١٣	البطار	البيطار
١٧٣	٧	إسمَ	إسمُه
١٧٦	٥	بل أنتما متيمتان	بل أنتما متيمنان
١٧٨	٣	يشبه	يشبهه
١٧٨	١١	أين	بين
١٧٨	١٣	وزنتيه	وَزَنْتِهِ
١٧٨	١٤	بالطيب	بالطبب
١٧٩	٨	عمهن	عمهن
١٧٩	١٢	يجنه	تجنه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٢	١١	تأكل تفاحه	تأكل تفاحةً
١٨٢	١٢	فالثمر والثغر	فالثمرُ والثغرُ
١٨٦	١٠	جوارى	جوار
١٨٧	٤	بنعمة	بنعمته
١٨٨	٧	الغر	الغر
١٨٨	١٠	جوى	جرى
١٨٨	١٢	برد تحذر	بَرَدٌ تحدَّر
١٩١	٢	واعتمرا	واعتمروا
١٩١	٣	فأتحفيتي	فأتحفيني
١٩٧	٤	ومدارته	ومداراته
١٩٨	٢٠	والقلة	والزلة
١٩٩	٦	حفوتنا	جفوتنا
٢٠٠	١١	حد	احمد
٢٠٠	١٩	يترى	تر
٢٠١	٩	وتعل ما	ولعلما
٢٠١	١٢	منة	منه
٢٠١	١٢	عنى	عيني
٢٠٢	١٨	يتوقع كتاب جواب	يتوقع جواب
٢٠٢	٢١	التلد	التلدد
٢٠٣	٩	عزمته	عزمته
٢٠٤	٦	مكتمه	مُكَتَّمَه
٢٠٦	١٦	كالجمان	كالجان
٢٠٧	١	وميتته	وميته
٢٠٨	٥	فأحي	فأحيا
٢٠٩	١٢	الحسين	الحسن
٢١٤	٦	توالامم	تولامم
٢١٥	٦	يكشف	تكشف
٢١٩	١٢	بيص	قيص
٢١٩	١٥	متة	متى
٢٢٤	٧	هيهات اذاك	هيهاتِ! ذاك
٢٣٣	١٠	وحر	وحرٍ
٢٣٣	١٠	أمر	أمرّ
٢٣٤	٥	المحالس	المجالس





١١ ش عبد العزيز بالقاهرة
ص ب ١٣٧٥ ت { ٣٩٠٦١٤٨ - ٣٩١٥١٤٨ }